أحمد الشعراوى

دراسات فى

# الأدب العربي وتاريخه

دار الطباعة المحمدية بالقاهرة

# الأدب العربي وتاريخه

دراسات في تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني
وفي الأندلس

---

تأليف الأستاذ
أحمد الشعراوي

---

دار الطباعة المحمدية : درب الأتراك بالأزهر بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

# تمهيد

ندرس فى هذا الكتاب الأدب العربى وتاريخه فى فترة من زمن الخلافة العباسية . تلك هى المدة التى أعقبت قوة نفوذ الخلفاء العباسيين ، وفيها تطامنت هيبتهم ، وضعفت كلمتهم ، وضاع سلطانهم ، وتبدد ملكهم ، وتزايلت عنه الوحدة السياسية ، فتوزع ـ بعد أن كان جميع الشمل ـ على دول وإمارات ، يستقل بكل منها صاحبها ، سواء ربطته ببغداد رابطة قوية أو ضعيفة ، أو تقطعت بينه وبينها الأسباب .

وهذه صبغة طرأت على الملك العباسى فى ذلك العهد ، وهى لذلك تقتضينا أن نمهد بين يدى دراستنا بأحاديث تتناول الحياة السياسية والاجتماعية ، لما كان لها من تأثير قوى ، ظهرت نتائجه واضحة فى الأدب فى هذا العصر .

ويلى ذلك عرض عام للأدب وتاريخه فى الأندلس خلال الحكم العربى الإسلامى لها ( ٩٢ - ٨٩٧ هـ ) وللأندلس تاريخ أدبى خالد ، تجد صوراً كثيرة منه فى هذا الكتاب . وما توفيقنا إلا بالله ؟

# الأدب في ظلال العصر العباسي الثاني

# الحياة السياسية

بين القوة والضعف :

خلف العباسيون بنى أمية على ملك عريض واسع الجنبات ، كان يشمل الأقطار الإسلامية كلها ، ويربطها برباط واحد ، هو الخضوع لمن سموه الخليفة ، ومركز إدارة تلك الأقطار وحكمها - على اتساعها وتباعد أنحائها - هو بغداد عاصمة الملك ومستقر الخلفاء :

غير أن هذه الحال لم يطل بها الزمان ، فما هو إلا أن تمكن عبد الرحمن الداخل من النفوذ إلى بلاد الأندلس ، حتى أسس فيها ملكا جديدا خالصاً للأمويين ، ثم ما لبثت بلاد المغرب أن انتهت أيضاً إلى الانفصال عن المشرق والتحرر من التبعية له ، وبذلك خرج غرب الأقطار الإسلامية عن دائرة النفوذ العباسى ، واستقل حكامه بشئونه ، وقطعوا كل صلة سياسية تربطهم بالمشرق .

ومع ذلك بقى فى قبضة العباسيين ملك كبير ، فقد بقى لهم الشرق الإسلامى كله ، وهو رقعة فسيحة الأرجاء ، تتألف من مصر ، وبلاد النوبة والسودان ، والجزيرة العربية ، والشام ، والعراق ، وفارس ، وما وراء النهر إلى الهند والصين .

بقى ذلك الملك كله تحت إمرة العباسيين زهاء قرن من الزمان ، كان لهم فيه من المهابة والجلال ما يشد أقطاره الكثيرة ويربطها ببغداد ، فيها كانت تصرف أموره ومنها يخرج ولاته وحكامه ، وإليها تجبى أمواله ، وما يتبع ذلك من مظاهر الخضوع والولاء .

فلما تسلط الأتراك على الخلفاء وتلعبوا بهم ، ومالوا فى توليتهم وعزلهم مع الأهواء والشهوات ، واستبدوا بالحل والعقد ، وحكموا بالعسف والغشم . . هنالك تغير الوضع ، وبدأت هذه الدولة العظيمة المتماسكة فى

التفكك والانحلال ، وتقسمها الطامعون دولا وإمارات .

## سبب انقسام الدولة ومظاهره :

لقد كان قيام الدولة العباسية بنصرة مواليها من الفرس إيذانا بظهور العناصر الأعجمية إلى جانب العنصر العربى ، ظهور مشاركة ومساواة فى المجتمع الإسلامى ، بعد أن كان الموالى مغمورين ، بل مقموعين فى عهد الأمويين ، يسومونهم الخسف والضيم ، ويجرعونهم ألوانا من الهوان والذل ، ويخرجون فى معاملتهم على أصول الدين .

بل لقد كان قيام الدول العباسية على هذا النحو سببا فى استعلاء الأعاجم وسيطرتهم ، فجهود الفرس منهم أنبتت الدعوة للعباسيين ، وعلى كواهلهم قام عرشهم ، وبسيوفهم ودمائهم وأرواحهم تمهد السبيل إليه ، فكانت مكافأتهم أن اتخذت منهم بطانة الملك ، ووزراؤه ، وأعوانه ، وقواد جنده . وفتح الطريق أمامهم إلى أسمى مناصب الحكم ، وانطلقت أيديهم فى تدبير هذا الملك وتصريف أموره . وبذلك قوى نفوذهم وعلا صوتهم ، وصاروا قوة ذات خطر ، إذا مالوا إلى طرف من الرأى رجحت كفته ، وإذا اتجهوا إلى نصرة فريق كان له الغلب ، وبانحيازهم إلى جانب المأمون كتب له النصر على أخيه الأمين .

وكأنما أخذتهم نشوة الظفر حين انتصر المأمون بتأييدهم فلم يقنع طموحهم بما صاروا فيه من سلطان ، وتطلعت نفوسهم إلى أفق من الأمل أوسع من نفوذ الكلمة ، وأسمى من الوقوف فى الصف الأول وراء الخليفة ، وأرادوا أن يكون لهم الرأى فى منصب الخلافة ومن يتولاه ، وقد حاولوا تحقيق هذا الأمل مرتين ، لم يخرجوا فى واحدة منها بنجاح ، ولكنهم خرجوا فى النهاية بأن تغيرت عليهم قلوب بنى العباس .

حاولوا ذلك أول مرة فى عهد المأمون ، حين أراد الفضل بن سهل على تحويل الخلافة عن العباسيين إلى العلويين .

ثم حاولوه مرة أخرى عقب وفاة المأمون، وكانت محاولة جريئة سافرة كادت تسدد طريق الخلافة على المعتصم، فما جلس ليبايعه الناس حتى ثار الجنود الفرس، وتجمعوا حول القصر يشغبون وينادون بالعباس بن المأمون خليفة لولا أن بعث المعتصم فى طلبه، وأخذ البيعة منه، وأخرجه إلى الجند الثائرين يقول: ماهذا الحب البارد؟! لقد بايعت عمى، وسلمت الخلافة إليه.

هـذا الذى بدا من روح الفرس واستعلان، كان سبباً فى تغيير سياسة العباسيين وتبدل نظرهم إلى العنصر الذى يقربونه، ويعتمدون عليه، ويستنصرون به، واتجهوا اتجاها آخر ابتعد بهم عن الفرس، وحقق لهم ما أرادوا من كسر شوكتهم، والقضاء على نفوذهم - وإن كان إلى حين - ولكنه ذهب مع ذلك بجلال الخلافة وعزتها إلى الأبد.

ولو كان الفرس ظفروا بما أرادوا، ونجحوا فى أى من المحاولتين، ماحاق الضرر بغير المعتصم، ولطارت الخلافة من يده وهى-على ماتجرى به الأمور آنذاك-حقه الذى جاءت مقاديره، لأن الرشيد كان قد رتب ولاية الأمر من بعده وأخذ البيعة من الناس على أن يخلفه الأمين، ثم المأمون، ثم المعتصم فما بال هؤلاء الناس يحاولون المرة بعد المرة، أن يمنعوا حقاً أخذت فيه العهود والمواثيق؟!

ليكن مكان المعتصم من يكون، فإنه لن يحمل الأمر على غير العداوة الشخصية التى تتجه الى ذاته، ولذلك اضطغن قلبه على الفرس ودخن، واعتقد فى دخيلته ضرورة التخلص منهم، ولم ينظر إلى العرب لاعتقاد العباسيين عامة أن لاخير لهم فيهم، وإنما اتجه إلى الترك - اذ كانت خئولته فيهم - يتخذ منهم عونه وعدته فأكثر منهم فى الجند- وابتنى لهم «سر من رأى»، وأقطعهم القطائع وركن اليهم وصدرهم حتى هجاه دعبل بن على الخزاعى بذلك، ومن قوله فيه:

لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم وصيف، وأشناس وقد عظم الخطب
وإنى لأرجو أن ترى من مغيبها مطالع شمس، قد يغص بها الشرب
وهمك تركى عليه مهانة فأنت له أم، وأنت له أب

وتحققت نبوءة دعبل ، واقتربت ساعة العباسيين ، وطلعت شمسهم من مغيبها بسبب هؤلاء الترك ، الذين استجار المعتصم بهم من الفرس ، وأرادهم عزاً للخلافة فكانوا ذلها ، وكانوا لها ناراً بعد رمضاء .

ثم سار الواثق من بعد المعتصم على سيرته ، يكثر منهم ، ويضع مقاليد الأمور فى أيديهم ، فما جاءت أيام المتوكل حتى كانت أقدامهم متمكنة ، ونفوذهم متغلغلا ، واستبدادهم ينشر الرعب والفساد فى أرجاء البلاد ، وضاق ذرع المتوكل بهم ، فعزم على الفتك بزعمائهم ، لولا أن بادروا قتله بالحيلة ، فسبق حتفه ما أراد .

وأى حتف ؟! لقد قتلوه برضى ابنه المنتصر أشنع قتلة ، إذ بغته حارسه باغر التركى . ومعه عشرة من فتيانهم فقدوه بالسيف ، وبعجوا بطن الفتح ابن خاقان أن حامى دونه .

وقد سجل البحترى هذا المصرع الفاجع ، وذكر أنه شهده فى قصيدته :

حل عـــلى القاطول أخلق دائره وعادت صروف الدهر جيشاً تغاوره

ومنذ ذلك الحين بدأت أمور الدولة العباسية تدخل فى طور خطير ، فقد فتح الأتراك بمصرع المتوكل باباً من الشر صبوا منه العذاب الهون على رؤوس الخلفاء ، فصاروا ليعزلون من يكرهون ويولون من يشتهون ، غير راجعين فى ذلك إلى رأى من دين ، أو نظر إلى صالح المحكومين ، وإنما هى شهواتهم التى لاتهدأ عن طلب المال ، ولذلك كانوا لاينظرون من يولونه إلا بمقدار مايسترقون معينه ، وقلما أعفوه بعد ذلك من قتل ، أو مثلة أبشع من القتل

ولابن المعتز أرجوزة يمدح فيها المعتضد ، لأنه نهنه شيئاً من غربهم ، ويصور فيها شرورهم فيقول :

وكل يوم ملك مقتـــول أو خائف مروع ذليل
أو خالع للعـــهد كيما يعفى وذاك أدعى للردى وأدنى
وكم أمير كان رأس جيش قد نغصوا عليه كل عيش

وكل يوم شغب وغصب ... وأنفس مقتولة وحرب
وكم فتاة خرجت من منزل ... فغصبوها نفسها فى المحفل
ويطلبون كل يوم رزقا ... يرونه دينا لهم وحقا
كذاك حتى أفقروا الخلافة ... وعودوها الرعب والمخافة

لقد صار مثل الخلفاء معهم مثل العصفور الضعيف بين يدى طفل نزق ، يلهو به ما شاء ، فاذا مله قضى عليه ، أو قذف به محطما منهوك القوى ، وما كان للخلفاء معهم ـ إلا فى الفرط النادر ـ رأى أو سلطان .

هذا الاستبداد سبب هذا الانقسام :

وهل كان لمثل هذه الطريقة فى حكم دولة أن تدوم ، دون أن تنتج نتائج تماثلها فى السوء ؟ !

وهل كان لولاة الأقاليم أن يصبروا على حفنة من طغاة الأتراك يحكمون دولة مترامية الأطراف بالبغى والجور ، وهم يحملون إليهم أموال الخراج يبددونها فى ملاذهم وشهواتهم ، ويستعينون بها على ظلم الناس ؟ !

صحيح أن المستوزرين من الفرس فى عهود الخلفاء الأول ، كانت أيديهم مبسوطة فى تدبير أمور الدولة ، وكانوا يتصرفون فيها تصرفا مطلقا يجاوز الاستبداد ، ولكنهم كانوا يصدرون فيما يصنعون عن تفويض من الخليفة . وتحت ظل عرشه ، وفى بسطة من حمايته ، وللخلفاء عندهم هيبة السلطان ، ومراسم التوقير ، فإن عدا أحدهم طوره أو أحس الخليفة منه بدخل ، قضى عليه ، ونكل به ، مهما كانت منزلته من قلبه . صنع ذلك السفاح بأبى سلمة الخلال ، وهو الذى أخلى له طريق الخلافة بسيوف قومه ، والمنصور بأبى مسلم الخرسانى ، بعد أن وطد له الملك ، وثبت أركانه ، والرشيد بالبرامكة ، مع أنه أخو جعفر من الرضاع ، وكان يخاطب يحيى بالأبوة ؛ والمأمون بالفضل بن سهل ، وهو أخو الحسن صهره وعونه على الأمين .

أما الآن فقد امتهنت الخلافة ، وذل الخلفاء ، وارتضعت منزلتهم ، وسفر

استبداد الترك وغشم ، حتى نبه الغافى من همم الولاة ، وأحيا فى نفوسهم الطموح فرأى كل واحد منهم أنه أولى بالسيطرة والحكم ، ولو فى حدود ما يتولى من أعمال ، فأخذت أوصال الدولة تنحل وتتفكك . وتتابع انفصال الأطراف عن بغداد ، وظهر من الدويلات الإسلامية فى فترة طغيانهم :

١ — الدولة الطولونية ، فى مصر والشام (دولة تركية ٢٤٥ - ٢٩٢ هـ)
٢ — « الصفارية بفارس ( « فارسية ٢٥٤ - ٢٩٠ هـ)
٣ — « السامانية بفارس وماوراء النهر (دولة فارسية ٢٦١ - ٣٨٩ هـ)
٤ — « الساجية فى أذربيجان ( « « ٢٦٦ - ٣١٨ هـ)
٥ — « الزيارية بجرجان ( « « ٣١٦ - ٣٤٤ هـ)
٦ — « الحمدانية بحلب والموصل ( « عربية ٢٣٧ - ٢٩٤ هـ)
٧ — « البويهية بفارس ثم العراق ( « فارسية ٢٢٠ - ٣٢٠ هـ)
٨ — « الإيليكية بتركستان ( « تركية ٣٢٠ - ٥٦٠ هـ)
٩ — « الإخشيدية بمصر والشام ( « « ٢٢٣ - ٣٥٨ هـ)

لقد كان الناس ينظرون إلى الخلافة من قبل نظرة تقديس وإجلال ، ويعتبرونها حبلاً من الدين يعصمهم من التفرق ، ويمسكهم على الوحدة ، ولذلك انتظم الحكم العباسى المشرق الإسلامى كله ، حين كان للخلفاء وقارهم وهيبتهم ، ولم يشذ عن ذلك إلا بنو طاهر — الفرس — فى خراسان (٢٠٥ - ٢٥٩ هـ) وبنو دلف — العجليون من العرب — فى كردستان (٢١٠ - ٢٨٥ هـ) .

فلما ظهر الأتراك فى أفق الدولة ، وساسوا الناس بالخرق والحمق ، وساموا الخلفاء الهوان والخسف ، وديثوهم بالصغار والذل ، هانت أقدارهم على الناس ، ووهت العروة الجامعة لأقطار الدولة ، ورث الحبل الذى كان يمسك الأقاليم أن تنفصم ، فتمزق الملك وتبدد ، وضاعت الوحدة ، وانشقت العصا ، وحنت الشعوب التى أدخلها الإسلام فى حكم العرب إلى مجدها القديم ، واستقلالها الذاهب ، فساعدت ذوى الأطماع من الولاة على الانفصال ، وأخذت الأقاليم المختلفة تتزايل عن بغداد واحداً إثر آخر ،

حتى إذا أشرفت أيام الترك على الزوال ، كان الخليفة فى بغداد ، ولا يتبعه - وهو تحت سيطرتهم - إلا العراق ، والجزيرة العربية التى أنهكتها الفتن المتتابعة من العلويين ، والزط ، والزنج ، والقرامطة ، والقبائل الثائرة ، والفرس لهم بالمرصاد ، يتحفزون فى دولتهم الناشئة بفارس ، ويتحينون الفرصة حتى سنحت لهم سنة ٣٣٤ هـ ، فدخل البويهيون بغداد ، وسيطروا بدل الأتراك .

— ٢ —

امتداد الاستبداد :

والبويهيون الذين أزاحوا عن الخلفاء تسلط الأتراك ، كانوا من الفرس ، وكانوا يستطيعون أن يعيدوا إلى الخلافة وقارها وبهاءها ، وأن يتصرفوا فى تدبير ملكها تصرفاً مطلقاً كما صنع أسلافهم من قبل ، ما داموا يسترون ذلك ويجملونه باحترام الخليفة وتبجيله ، ولو أنهم فعلوا لجمعوا شتات الدولة بعد تفريق ولأعادوا شملها كما كان جميعاً ، ولكن شراسة الترك أعدتهم ، فساروا سيرتهم مع الخلفاء ، ولعل أول اتصال بهم قبل دخولهم بغداد كان نذيراً بما ينتظرهم على أيديهم من سوء .

الدولة البويهية :

نشأت هذه الدولة كغيرها من الدول التى نشأت بخذلان الخلفاء وطغيان الأتراك ، وقام أساسها على ثلاثة أبناء لرجل من عامة الشعب ، هو أبو شجاع بويه ، وهم : على ، وحسن ، وأحمد ، التحقوا بالجند للارتزاق ، وتلقبوا فى خدمة ملوك العجم ، إلى أن ملك (على) قطعة من بلاد فارس ، ومازال يوسعها حتى كتب إلى الخليفة الراضى أن يجعلها إقطاعا له ، على أن يحمل إلى دار الخلافة كل عام ثمانمائة ألف ألف درهم ، فقبل الخليفة ، وبعث إليه خلعة السلطنة ومنشورها ، وأمر رسوله ألا يسلمها إليه حتى يقبض المال ، ولكن علياً غالطه ، وأخذ الخلعة فلبسها ، والمنشور فقرأه على رءوس الأشهاد ، ووعد

الرسول بالمال ، ثم دافعه إلى أن مات عنده ، ولم يصل إلى الخليفة شيء مما اشترط ، وكان ذلك بدء اتصالهم ببني العباس .

ومعنى هذا أنهم بيتوا النية على أن يكون اتصالهم ببغداد ستاراً يصلون من ورائه إلى التصدر والتسلط ، ولا نظر بعد ذلك إلى وفاء ، أو ولاء ، أو رعاية لحرمة الخلفاء .

وهذا هو الذي كان ، فاقنعت نفوسهم بما آل إليه أمرهم ، ولكنها تطلعت إلى بغداد وفيها الخليفة المستكفي ، فزحفت جيوشهم إليها ، ودخلتها سنة ٣٣٤ﻫ وخلعت عليهم الألقاب : فعلي عماد الدولة ، وحسن ركن الدولة ، وأحمد معز الدولة ، وضربت أسماؤهم على الدينار والدرهم ، وخطب لهم على المنابر ، وفوض إليهم الخلفاء كل ما وكل الله إليهم من شئون الرعية وتدبيرها ، في جميع جهاتها ، مما يلي باب الخلافة وما وراء أهل بيته وخدمه .

ولم يقفوا من أمرهم عند هذا القدر من السلطان ، بل ضايقوا الخلفاء ، وقتروا عليهم في الرزق ، وقدروا لهم النفقات بعد أن كانت مطلقة ليس لها حد وصادروهم على أموالهم ، وقطعوا الخطبة عنهم حتى في بغداد . وخلعوا من لم يرضوا عنه منهم ، وسملوا عيونهم ، وأذلوهم . وأذاقوهم ما أذاقهم الأتراك .

فمعز الدولة أول ملوك بني بويه في بغداد ، والذي منحه المستكفي إمرة الأمراء ، وأعطاه الطوق والسوار وآلة السلطنة ، وعقد له لواء ، ولقبه ولقب أخويه ، وأمر أن تضرب ألقابهم على الدينار والدرهم ، معز الدولة هذا لم يلبث بالمستكفي كثيراً ، فقدر له كل يوم خمسة آلاف درهم للنفقة ، ثم أنزلها إلى مائة دينار ، ثم رأى خلعه ، فدخل عليه يوما فوقف ، ووقف من بحضرته ، ثم تقدم اثنان من الديلم إلى الخليفة كأنهما يريدان السلام عليه ، ومد إليهما يده ، فجذباه عن السرير ، ونكساه ، ووضعا عمامته في عنقه ، وسحباه إلى دار معز الدولة ، فاعتقل بها ، وخلع ، وسملت عيناه ، ونهبت داره ، وظل معتقلا في دار السلطنة إلى أن مات سنة ٣٣٨ ﻫ .

وبهاء الدولة احتاج إلى مال ، فبيت خلع الطائع سنة ٣٨١ هـ ، واستأذنه فى الحضور لتجديد العهد ، فلما دخل قبل الأرض بين يديه وجلس ، وتقدم بعض الديلم إلى الخليفة متظاهرين بالرغبة فى تقبيل يده ، ولكنهم جذبوه منها وهو يستغيث ولا مغيث ، ثم أمروه بخلع نفسه ، ونهبوا داره ، وامتهنوا من كان بحضرته من القضاة والأشراف ، وسلبوهم ثيابهم ، وكان الشريف الرضى حاضراً فهرب ، وقال فى ذلك قصيدته :

لواعج الشوق تخطيهم وتصميني   واللوم فى الحب ينهاهم ويغريني

بمثل هذا أخذ البويهيون الخلفاء ، وقد حذوا فيه حذو الأتراك ، ولذلك تشابه الميدان ، ملك مفكك العرى ، متقطع الأوصال ، وخليفة مغلوب على أمره ، وحكام مستبدون بما فى أيديهم ، متناحرون فيما بينهم ، يأكل قويهم ضعيفهم ، فتتبدل الأوضاع ، وتتغير الحدود ، وتختفى أسماء وتظهر أخرى ، وتنشأ دول غير التى نشأت أيام الأتراك .

أهم الدويلات الإسلامية :

١ — الدولة الغزنوية فى السند وأفغانستان (دولة تركية ٣٥١-٥٨٢ هـ)
٢ — « الفاطمية « مصر والشام ( « عربية ٣٥٩-٥٦٧ هـ)
٣ — « العقيلية « ديار بكر والجزيرة ( « « ٣٨٦-٤٨٩ هـ)
٤ — « المزيدية « الحلة ( « « ٤٠٣-٥٤٥ هـ)
٥ — « المرداسية « حلب ( « « ٤١٤-٤٧٢ هـ)
٦ — « السلجوقية وفروعها بأغلب بقاع الإسلام فى آسيا .
(دولة تركية ٤٢٩ - ٧٠٣ هـ)

الفصل الأخير فى قصة امتهان الخلفاء العباسيين ببغداد :

وكان القهر بالغلبة شعار البويهيين مع الخلفاء ، وكذلك كان شعارهم بعضهم مع بعض ، يتسع نصيب أحدهم من الملك ما اتسع له من القوة والشوكة ، وينكمش ويتضاءل ، أو ينمحى ويزول ماعجز صاحبه عن حمايته ، وظل بإسم

شديداً بينهم حتى تأدى بهم إلى الانحلال والفتور ، والعجز عن مقاومة السلاجقة ، فاجتاحوا ملكهم جميعاً ، ومحوا أثرهم من بغداد سنة ٤٤٧ هـ .

— ٣ —

الدولة السلجوقية :

وأصل السلاجقة من الترك الخزر ، نشأ جدهم سلجوق فى خدمة بعض خانات تركستان ، ثم فر من وجهه خوفاً من بطشه به ، وجمع حوله جموعا من قومه ، يتنقلون فى طلب المرعى أول الأمر ، فلما استشعروا اختلال الحكم واضطرابه فيما يجوبون من أقطار ، والتياث الأمور على الحكام ، اتجهت أنظارهم إلى التملك فحاولوه أولا فى اقتطاع بعض أملاك الترك ، ثم انساحوا فى البلاد إلى أن وصلوا نيسابور سنة ٤٢٩ هـ . ومن ذلك الحين بدأ نجمهم فى الظهور .

وقبل أن يمتلك السلاجقة نيسابور لم يكن لهم صلة بخليفة بغداد ، فلما بلغوها وبلغه نبؤهم ، بعث إليهم كتاباً يخوفهم الله ويذكرهم به ، ويحلهم على رعاية عباده وعمارة بلاده ، فاعتزوا بكتاب الخليفة ، وازدادوا قوة ، واستمروا فى فتحهم حتى ملكوا خراسان ، وتجاوزوها إلى العراق .

شارف السلاجقة العراق وفتنة الباسيرى آخذة فى الشدة . والخليفة ـ وهو القائم بأمر الله ـ فى غمرة من تلك الفتنة تأدت به إلى الأسر ، فأخذ يراسل طغرلبك زعيم السلجوقيين لينقذه مما هو فيه ، وطالت المراسلة حتى حرك عزمه كما يقول العماد الأصفهانى « واندفع كالسيل ، وكسا الفلق عجاج فيلقه صبغة الليل . ولم يترك الترك ورداً إلا شفهوه ، ولا حسناً إلا شوهوه ، ولا ناراً إلا أرثوها ، ولا داراً إلا شعثوها ، ولا عصمة إلا رفعوها ، ولا وصمة إلا وضعوها ، وأجفل الملوك من خوف اقدامهم ، وتنحوا من طريق ضرامهم ، فما جاءوا إلى بلدة إلا ملكوا مالكها ، وملأوا مسالكها ، وأرعبوا ساكنيها ، وأسكنوها الرعب وغلبوا ولاتها وولوها الغلب ، وازوروا إلى

الزوراء وأشاعوا مد اليد بالغارة الشعواء » .

وفى سنة ٤٤٧ هـ . دخلوا بغداد ، وخلصوا الخليفة من هول الفتنة ، وقضوا على ملك البويهيين فقبضوا على آخر ملوكهم ، وهو الملك الرحيم .

وماذا ننتظر من هؤلاء السلاجقة فى سياستهم ؟

إنهم خرجوا من بواديهم فدادين رعاة ، فانقلبوا إلى سلاطين وملوك ثم إنهم ترك ، وفى طباعهم الغلظة والجفوة ، ومن شيمتهم الغدر والنكث ، وفيهم يقول مؤرخهم عماد الدين : « كأنما سل طين السلاطين من جفن الجفاء وجبلت جبلتهم على الإغفال والإغفاء ، فالرحم عندهم مقطوعة ، والرحمة ممنوعة ، والعزة فى خدمتهم بالذل مشفوعة ، والاغترار بهم غرر ، وصفوهم كدر ، يقسمون ويحنثون ، ويبرمون وينكثون » .

ثم ماذا ننتظر من هؤلاء أن تكون سيرتهم مع الخلفاء ؟

لقد جاءوهم وهم فى قبضة غيرهم ، فهل يفلتونهم من أيديهم ؟ يكفى أن نقرأ فى جواب ذلك قول العماد فى تاريخهم : « كان أهون ماعندهم خلاف الخليفة وعناده وتمردهم عليه بأن يحصل مرادهم مراده ، ومعالم بغداد مظلمة مشحونة منهم بالظلمة ، ولهم من الديوان العزيز مطالب لا يفى بها خواصه ، ومغارم تلحقهم منهم ويتعسر منها خلاصه ، والحرم من جناياتهم خائف ، والشرف لمهاباتهم عائف ، وشريعة الشريعة مكدرة ، والدماء والفروج مستباحة مهدرة ، والخليفة يغضى ويغضب ، ويعتب ولا يعتب ، ويقدر عليه ولا يقدر ويغدر به وهو على العهد لا يغدر » .

ولقد مكنهم بطشهم من بسط نفوذهم على كل ماظهر فى ملك العباسيين قبلهم من دول وإمارات ، وختموا بذلك تاريخ أسر مليت بالحكم حيناً من الزمان ، وتقسموا ذلك الملك الفسيح فيما بينهم ، يتنقلون على أجزاء رقعته تنقل قطع الشطرنج يأكل بعضها بعضا ليحل محله ، ويتواثبون تواثب القردة على غصون الشجر ، لا يتلبث أحدها فوق غصن إلا ريثما

يغلبه عنه سواه ؛ وقد يعود إليه ، فلا يمكنه صاحب شوكة آخر من أن يتملاه ، وفيما بين ذلك تطيح رءوس ، وتسيل نفوس ، وتاريخهم طويل يملؤه الألم الفاجع ، وفى كل صفحة منه روح أزهقها الغدر المعسوف ، ودم تزكم لريحه الأنوف .

وعلى الرغم من هذا التواثب والتناحر لم يتمكن عنصر آخر من القيام لهم ، فالجنس واحد والطبع واحد ، وإن اختلف العنوان إلى سلاجقة عظام أو كرمانيين ، أوسوريين ، أو عراقيين ، أو روم ، والملك بينهم . وإن تفرع إلى فروع من أحفادهم ، وقوادهم ، ومماليكهم . وتنوع إلى دول تختلف أسماؤها باختلاف الأسر والمواطن التى تحكمها ، كالغورية ، والزنكية ، والأرتقية ، والأتابكة . والأذربيجانية ، والخوارزمية . . . وما شئت من أسماء تظهر وتخفى . إلى أن زحف التتر على بغداد (سنة ٦٥٦ هـ) . فقوضوا عرش العباسيين ، وقطعوا الشجرة السلجوقية فرعا بعد فرع ، فلم يستعص عليهم منها إلا سلاجقة الروم الذين تمكنوا من آسيا الصغرى حتى قامت دولة الترك من آل عثمان على أنقاضهم .

كل ذلك غير ما ملك الفاطميون من بلاد مصر والشام ؛ فقد ثبتوا لهم ، ولم ينل السلاجقة منهم ، فلما ضعفوا واعتراهم الوهن ، خلفهم على ملكهم الأيوبيون الأكراد ( ٥٦٧ — ٦٤٨ هـ ) ثم من بعدهم مماليكهم ، إلى أن وقع مع غيره فى قبضة العثمانيين الأتراك .

— ٤ —

إيجـــاز :

وهكذا صارت حال الملك العباسى فى تلك العصور :

١ — فلقد كانت الخلافة العباسية فى عهدها الأول عصام ملكها الواسع ورباط أقطاره المتعددة ؛ تلم شعثه ، وتجمع متفرقه ، وتشد أطرافه القريبة والبعيدة إلى بغداد ؛ وذلك حين كانت عزيزة الجانب ، مهيبة المقدار ،

٢ ـ فلما حاول المعتصم أن يتخلص من غطرسة الفرس مستعينا بالأتراك جاءت بداية النهاية لعزة بنى العباس ، إذ وكلوا مصيرها إلى سيوف هؤلاء الأتراك وكان عهد المتوكل نهاية هذه البداية ، لأن قوة الأتراك أخذت تتجه فيه إلى الشر والاستبداد ، حتى وصلت إلى غايتها منهما بمصرعه على أيديهم سنة ٢٤٧ هـ . وبهذا المصرع الرهيب مرغوا جلال الخلافة فى الرغام ، وتحيفوا سلطانها بالمهانة والابتذال ، فتطامنت هيبتها . وتخاذلت قوتها عن أن تسيطر وتدبر ، نطمحت نفوس الولاة إلى الاستقلال بما تحت أيديهم من أقاليم ، ودخل على الدولة المتماسكة التفكك والانحلال ، فتوزعت إلى أكثر من عشر دول ، ترجع السيادة فيها إلى عناصر تختلف أصولها بين الفارسية والتركية والعربية .

٣ ـ وكان بين تلك الدول التى تقاسمت ملك العباسيين ، دولة فارسية هى دولة البويهيين ، أسسها بنو بويه فى بلاد فارس سنة ٣٢٠ هـ ، ولبثوا يرقبون ماتجرى به المقادير فى دار الخلافة ويستعدون للوثوب عليها واستلاب الصولجان فيها ، إلى أن سنحت لهم الفرصة فانتهزوها ، ودخلوا بغداد فاتحين سنة ٣٣٤ هـ .

وظهور دولة البويهيين قضى على نفوذ الأتراك ، ولكنه لم يخلص الخلفاء من الاستبداد بهم ، وغاية مافى الأمر أنه غير مظهره . ونقله من يد تركية إلى أخرى فارسية ، وبذلك لم تستطع بغداد أن تصل ما انقطع من أسباب كانت تربطها بالأقاليم ، بل لقد تكاثرت فى ثبت الدول الإسلامية الأسماء ، ورجعة إلى ما أسلفناه . ترينا أن الدولة البويهية كانت تبسط سلطانها على العراق وفارس . . . وفيما حولها من الدول :

(ا) دول شابهتها فى النشأة عن تسلط الأتراك وخذلان الخلفاء ، وهى : السامانية وفارس وما وراء النهر ، والزيارية فى جرجان ، والحمدانية فى حلب والموصل ، والإيليكية فى تركستان ، والإخشيدية فى مصر والشام .

(ب) وأخرى نشأت والبويهيون يسيطرون على بغداد ، وهى : الغزنوية

فى السند وأفغانستان ، والفاطمية فى مصر والشام ، والعقيلية فى الجزيرة وديار بكر ، والمزيدية فى الحلة ، والمرداسية فى حلب ، وأخيرا السلجوقية وما تفرع عنها من فروع .

٤ ـ وكانت دولة بنى سلجوق أخطر ماظهر من الدول على البويهيين ، لأنها هى التى قضت عليهم ، وقضت على ملكهم ، وكان بدء ظهورهم بين الدول سنة ٤٢٩ هـ ، فلما استنصرهم الخليفة من محنته بثورة البساسيرى دخلوا بغداد سنة ٤٤٧ هـ وأنقذوه من تلك المحنة ومن البويهيين معا ، وخلصت لهم بذلك دار الخلافة وشئونها ومكن لها فيها فترة أربت على القرنين ، تفرعت فيها شجرتهم إلى فروع ، انبسط ظلها على أغلب بقاع الإسلام فى الشرق ، ولم يستعص على سيوفهم فى النهاية إلا مصر والشام ، فقد بقيتا فى حوزة الفاطميين ، ثم انتقلتا من بعدهم إلى الأيوبيين فالمماليك .

— ٥ —

### نتائج هذا الانقسام السياسية والأدبية :

وكان لهذا الانقسام نتائجه ، فبعد أن كان السلطان مجموعا فى قبضة واحدة ، هى قبضة الخليفة أو من يستبد به من الأتراك ، وبعد أن كان يتركز فى حاضرة واحدة هى بغداد ، بعد هذا تشقق السلطان وتفرق فى أكثر من يد ، وتوزع فاستوطن أكثر من عاصمة ، حيث يعتصم من استقل بالولايات من ملوك وأمراء .

وقد يكون لهذا التصدع أثره السىء من وجهة النظر السياسية ، وقد يكون موهنا لقوة الدولة الإسلامية ، ومضعضعا لهيبتها فى أنظار أعدائها والطامعين فيها من جيرانها ، ولكن الذى يشهد به التاريخ أنه كان جميل الأثر بما أتاح للأدب من رواج ونهوض وازدهار .

ذلك أن بغداد كانت من ذى قبل تنفرد باحتضان الأدب والأدباء ، بل باحتضان كل حركة فكرية فى محيط الثقافة التى عنى بها المسلمون ، لأنها كانت قلب العالم الإسلامى آنذاك .

وما كان لنا أن ننتظر غير ذلك لبغداد ، بعد أن أصبحت مستقر السلطان ومجمع الثروة والجاه، ومع ما نعلمه عن أحوال المجتمعات السابقة، وما يلابسها من نظم فى الحكم والاقتصاد . فقد كانت الدوافع شديدة ، نوجه المفكرين عامة والأدباء خاصة ، وتولى وجوههم شطر دار الخلافة ، ليعرضوا نتائج أفكارهم التماسا للشهرة والمال ، ولذلك صارت بغداد ـ بعد أن استلبت مجد دمشق ـ قبلة الأنظار ، يعشو إليها الأدباء والعلماء وكل صاحب فن . وتتعلق بها آمال الراغبين منهم فى غنى أو صيت ، وغبرت نحو قرن من الزمان ، ولا يكاد يذكر معها غيرها فى هذا الباب .

أما بعد أن تفلق الملك العباسى ، وتفاصلت الأقاليم ، وانتثرت المملكة كما رأينا دولا وإمارات ، فقد تعددت حواضر الملك ، وأقام فى كل حاضرة ملك ، يطيف به من مظاهر الجلال والسلطان والجاه ما يناسب حاله من قوة البأس ، وتحت يده بيت مال يتصرف فيه بالبذل والإنفاق ، كما كان يتصرف خليفة بغداد .

وهكذا أفاد الأدب من ذلك فى ناحيتين ، ترجع إحداهما إلى الأدباء ، وترجع الأخرى الى الأقاليم :

١ ـ أفاد الأدباء حيث تعددت لهم معارض الأدب وأسواقه وكثرت أمام المنتجعين الموارد ، وبعد أن لم يكن لهم متجه غير بغداد ، تراءى لهم ما يضارعها فى الذكر أو يفوقها ، مثل القاهرة ، وحلب ، والرى ، وأصبهان ، وشيراز ، وجرجان وبخارى ، ونيسابور ، وغيرها من المدن التى أظهرها هذا الانقسام.

وتسابقت هذه المراكز الأدبية فى اجتذاب الأدباء ، واندفع الملوك الناشئون إلى هذه الغاية بدوافع سياسية ، ونفسية ، وعنصرية ، وثقافية . فهم وقد تقاسموا فيما بينهم ما استلبوا من مجد بغداد السياسى ، يتطلعون إلى أن يتقاسموا كذلك ما كان لها من مجد أدبى ، وقد تسامعوا بما سعد به الأدب فى بغـــداد من رعاية الخلفاء ومن تعلق بغبارهم من الأمراء

والوزراء ، لذلك تبارى هؤلاء الملوك فى إحياء تلك السنة بعد أن أماتها الأتراك ، وجرى كثير منهم فى مضمار السابقين ، فكان منهم مثل ما كان لأولئك أو ماهو منه قريب .

ثم إنهم أصحاب دول تتطاحن فيما بينها ، وتحفزها المنافسة السياسية إلى التسابق فى التماس أساليب الدعاية ، ولم يكن أمامهم من تلك الأساليب أجدى وأقوى مما يقوم به الأدب والأدباء .

وهم مع ذلك حديثو عهد بالملك وهم بشر يرتكز فى طبيعتهم الزهو والخيلاء وكل واحد منهم يحب أن يكون فى حوزته وتحت يده ما تقصر عنه يد غيره ولا تناله ، وإذا كان كل منهم يشتهى أن يكون فى تاجه أبهى الجواهر وأغلاها وفى ملكه أخصب البقاع وأغناها ، فهو كذلك رغاب فى أن تزدان حضرته بأفذاذ الرجال والنوابغ ، فبذلك يحقق لدولته ما تحتاج من دعاية ، ويرضى لنفسه مطامحها فى التعالى والمباهاة .

ونضيف إلى ذلك امتياز بعض الأسر الحاكمة بما تأكد بينهم وبين الأدب من أواصر وأسباب ، فقد كان فيهم من يضرب فى الثقافة العربية بعرق ، ويمت إلى أساليبها العالية بوشائج قوية ، وإقبال هؤلاء على الأدب يكون عن تذوق وانطباع .

فبهذه الحوافز كلها أو بعضها تسابقت الدول الجديدة إلى اجتذاب الأدباء وتنافست فى الاحتفال بهم ، وإجزال العطاء لهم ، فقربت معارض الأدب من مواطن الأدباء ، وسنحت فرص الظهور لكثير من ذوى المواهب والنبوغ بعد أن كان يحول بينهم وبينها عجزهم عن الوصول إلى بغداد ، وإن كان هذا العجز فى أغلب الأحوال يرجع إلى غير المقدرة الفنية وقوة الاستعداد .

بل لقد اتسعت لكثير من آفاق الأمل ، وتنوعت أمامهم سبل الظفر ، فطرقوا لالتماس الجائزة أكثر من باب .

وأبو بكر الخوارزمى واحد من هؤلاء الذين طوفوا فى الآفاق ، وأثرهم

أدبهم من قلوب ذوى الجاه أكرم منزل ، ونظرة فى تاريخه ترينا أنه ولد ونشأ فى خوارزم ، فلما شب وتمكن فى الأدب ، ارتحل إلى العراق ، ثم وصله أدبه بسيف الدولة الحمدانى فى حلب ، وبأبى على البلعمى الوزير فى بخارى ، وبأبى نصر الميكالى فى نيسابور ، وبطاهر بن محمد فى سجستان ، وبالصاحب بن عباد فى أصبهان ، وبعضد الدولة البويهى فى شيراز ، ثم عاد إلى نيسابور فاستوطنها حتى مات .

والثعالبي صاحب « يتيمة الدهر » أخرج كثيراً من كتب الأدب، تحقيقاً لرغبة كثير من أمراء عصره واستجابة لطلبهم كما يقول . فألف « لطائف المعارف » للصاحب بن عباد ، وألف « المنهج » و « التمثيل والمحاضرة» لشمس المعالى قابوس بن وشمكير ، وألف « سحر البلاغة » و « فقه اللغة وسر العربية» لأبى الفضل الميكالى وألف « النهاية فى الكناية » و « نثر النظم » و « اللطائف والظرائف » لمأمون بن مأمون السامانى .

٢ ـ وأفادت الأقاليم لأن تاريخ الأدب أدخلها فى حسابه ، وما كان لها ذلك وهى تدور فى فلك العراق .

وسر ذلك واضح ، فهذه الأقاليم أيام ارتباطها ببغداد لم يكن فى استطاعتها أن تحقق للأدباء ما يشتهون من رغائب وآمال ، فكيف يكون لها أن تحملهم على التوطن والاستقرار بها ليدخلوا من تاريخها فى الحساب .

لقد كان يقوم على تدبيرها ولاة يحاسبون على ما يجمعون من مال، وبقاء أحدهم فى منصبه ، أو زواله عنه ، رهن بمقدار ما يرسل إلى دار الخلافة ، فأنى ليده أن تنطلق حرة فى البذل والعطاء .

لذلك أقفر تاريخ الأقاليم من الأدباء المقيمين ، لأن آمالهم لم تكن فيها وإنما كانت فى بغداد .

أما الآن فقد تغير الوضع ، وبعد أن كان مؤرخ الأدب يجد الحظ الموفور للعراق . ولا يجد لغيره ـ إن وجد ـ إلا النذر اليسير ،

أصبح وأمامه لكل إقليم ثروته الزاخرة من الأدب ، وعدده الوفر من الكتب والشعراء .

وفى كتاب « يتيمة الدهر » مصداق لما نقول ، وهو كتاب أرخ به الثعالبي لمعاصريه من أدباء القرن الرابع الهجرى ، وكان اعتبار الأقاليم عمدته فى تقسيم الكتاب إلى أربعة أقسام ، جعل الأول لأدباء الشام ، ومصر والموصل ، والمغرب . والثانى لأدباء العراق والثالث لأدباء الجبل وفارس وجرجان ، وطبرستان . وأصبهان . والرابع لأدباء خراسان ، وما وراء النهر من الدولتين السامانية والغزنوية ، وخاصة أدباء بخارى ونيسابور طارئين أو مقيمين .

# الحياة الاجتماعية فى العصر العباسى الثانى

— ١ —

الحياة الاجتماعية لأمة من الأمم ، هى تلك الصورة العامة المجتمعة من ألوان العيش التى تعيشها طبقاتها ، وما يشيع فيها من عادات وأخلاق ، وأواصر وصلات تربط بين الأفراد والطبقات ، فتكون منها جماعة واحدة تعيش فى نظام واحد ، تدين له وتدافع عنه أمام غيرها من جماعات الشعوب.

ومثل هذه الصورة إنما يتجمع من خطوط كثيرة ، لعل أوضحها تلك التى تمثل العناصر المكونة للجماعة وما ورثته من عادات وتقاليد ، ونوع الحكم الذى تخضع له هذه العناصر ، والنظام الاقتصادى الذى يسانده هذا الحكم ويشايعه وتتوزع الثروات بمقتضاه على الناس ، والطبقات التى تتولد عن هذا التوزيع الاقتصادى ، وحياة كل طبقة منها ومسلكها فى الحياة .

١ ـ أما العناصر التى قام عليها المجتمع فى هذه الدول الناشئة ، فهى تلك التى تألفت منها الجماعة الإسلامية من زمن بعيد : أخلاط ترجع إلى أصول شتى . من عرب ، وفرس ، وترك ، وهند ، وقبط ، وروم ، وزنج ، وما شاء الله من أجناس تمثل السامية والحامية والآرية ، ويحمل كل جنس منها رواسب حضارته البائدة ، ويستصحب ما ورثه عن آبائه وأجداده من أوهام وتقاليد وعادات .

وقد عرفنا من دراسات العصور السابقة أن العناصر غير العربية كانت قلة ضئيلة فى أول الأمر ، ثم أخذت تكثر وتزداد باتساع رقعة الإسلام .

وأنها على الرغم من كثرتها الفائقة بتكامل الفتوح ، لم تستطع أن تحدث فى الحياة الجديدة آثاراً ذات بال طول حكم الأمويين ، لما كان يشوبه من جاهلية تتعصب للعرب ، وتترفع عن العجم ، وإن خرجت فى ذلك على سماحة الدين .

وأن دولة الزمان لبنى العباس كانت فرصة هذه الأجناس . لتشارك فى المجتمع مشاركة فعالة تكون لها مظاهر واضحة أمام التاريخ ، فقد اقتضت سياسة العباسيين أن تستعين بالأعاجم ، وأن توسدهم أرفع مناصب الحكم ؛ فظهروا ظهور استعلاء ، واستطاعوا أن يؤثروا فى الحياة الاجتماعية ، وأن يشكلوها ويلونوها ، فبدت لهم فيها آثار قوية . بما نقلوه من أساليب حضاراتهم القديمة فى الحكم والسلطان ، وبما أطلعوا الناس عليه من أنماط توارثوها فى اللباس والطعام والشراب ، وبما أشاعوه بينهم من عادات وطباع .

ثم جاء العصر العباسى الثانى وتعددت فيه الدول ، فكانت هذه الآثار الأعجمية أقوى فيه وأظهر ، وأكثر مما كانت عليه فى عهدها الأول .

ذالك لأن القديم من تلك الآثار ، كان قد جاوز مرحلة البدء والنشأة ، ومضى عليه زمان طويل ، رسخه فى المجتمع ، ومكن له من النفوس ، ولأن هذه العناصر قد استشعرت فى ظلال الدول الجديدة بمواطنها الأصيلة شعوراً بالعزة القومية ، فأخذت تجتر من رواسب الماضى البعيد ما يحقق لها هذا الشعور ، وتشعبه فى الحياة ، ونشير من ذلك إلى مثال وهو عيد السلبق ، أو عيد الوقود ، فقد أحياه الفرس ، وبالغوا فى الاحتفال به كل عام ، وتقدم الشعراء لهم فيه بتهانى الشعر ، مع أنه أثر من آثار المجوسية وتعظيمها للنار .

وذاك لأن العناصر المختلفة ، من طول ما ألف بعضها تقليد بعض ، قد تهيأت نفوسها لقبول أى جديد من العادات والتقاليد ، وننظر فى ذلك إلى جانب المواسم والأعياد ، فنرى للمجتمع أعيادا لم يعرفها قبل ظهور الدول الناشئة ، ونجد المسلمين وغير المسلمين ، عرباً وعجما . وحكاماً ومحكومين ، يشتركون فى الاحتفال بأعياد فارسية وقبطية ونصرانية ، كالنيروز ، والمهرجان . والسذق ، وصب الماء ، والفصح . والميلاد ، والغطاس ، وخميس العهد ، وغيرها من الأعياد ، وفى كل ذلك تهدى الهدايا ، وتنشد الأشعار .

ومع ذلك كله كان ظهور الدول الناشئة ، وقد هدأت بل خمدت عاطفة التدين فى نفوس كثيرة ؛ فتخطى أصحابها على اختلاف أجناسهم حواجز الخلق والدين ، والتمسوا من تقاليدهم القديمة مايشبع الرغبات الجامحة ، ويلائم الميل الشديد إلى نوازع الجسد المادية ؛ وبذلك فسد المجتمع ، وشاع فيه الانحلال ، وبدت معالمه واضحة فى حيوات الأدباء وآدابهم ، فاجت بمظاهر الخلاعة والمجون ، وسفرت فيها الفواحش والعورات .

٢ — ونوع الحكم الذى عرفته تلك الأجيال ، هو أسوأ ماعرف الناس من ألوان الحكم ، فهو نظام فردى استبدادى مطلق من كل رقابة ، الملك هو كل شيء فى الاعتبار ، والشعب لا وزن له ولا تقدير ، وما أشبه الدولة آنذاك بضيعة يرثها الملك ، أو ينالها بالغلبة والقهر ، فيكون له كل ماتغل من خير ، والشعب فيها مسخر ضائع جائع ، وهلاكه أهون عليه من نفوق دابة أو تلف أداة جامدة ، فهو عوضها من ماله ، وذاك يعوضه نسل الآباء والأمهات .

وما علمهم الإسلام هـذا ولا ارتضاه لهم ، فما قام ليهدمه ويخلص الناس من التعبد لكسرى وقيصر . وما اعترف بغير الشورى التى تختار الحاكم ، ولا عرف الحاكم إلا خادما للشعب لاطاعة له فى غير رضى الله ولا ولاء له إلا بمقدار مايرعى من صلاح الناس ، واذكروا فى ذلك ما كان من أمر الثورة الإسلامية الأولى أيام عثمان .

وإنما نقلوه عن الروم والفرس ، حيث اقتبسه معاوية ، وحول خلافة الشورى والاصطفاء إلى ملك عضوض يرثه الأبناء عن الآباء ، وسن لهم فيه خدعة حاول بها تجميل الأسوة ، وتحلية المر فاخترع أخذ البيعة لولى العهد ، وإن كان وليداً فى المهد ، وما ولى العهد إلا ابن هذا الآخـذ بالبيعة وما المبايعون إلا الخابطون فى حبله ، أى الراغمة أنوفهم بالبطش والسلطان .

ثم جاء العباسيون فزادوا الطين بلة واقتبسوا عن الفرس فكرة تقديس الحاكم ، فوصفوا الخليفة بأنه ظل الله فى أرضه ، وصوروا ولايته أمر الناس

بصورة الحق الإلهى المقدس ، وجهدوا أنفسهم فى تقرير هذا المعنى ، وترسيخه فى عقائد الناس .

فلما ظهر ملوك الدول الناشئة كانت الأوهام متشبعة بهذا الزعم المضلل وقد كان يكفيهم فى إخضاع الجماهير ما بأيديهم من باطشة ، ولكنهم أبوا إلا إحكاما فى التمثيل ، فكانوا يأخذون من الخلفاء تقليد الولاية ، يأخذونه بالإهداء والمصانعة ، أو بالتهديد والقهر ، وبذلك يتسلطون على الرعية — كما يقول الفخرى ويستوجبون الطاعة والاستسلام .

وسرعان ما تطورت فكرة التقديس فى كنف النظام الجديد ، فسرت فى أوهام الناس من الخلفاء إلى الملوك ، وتصوروا الملك على أنه نفحة من نفحات الله يمنحها من يختار ، وكأن الملك فى نظرهم رسالة أو نبوة ، بل لقد جعلوه صنو النبوة وقريعها ؛ وابن الطقطقى — وهو من علماء القرن السابع — يصور فهم زمانه للملك ، فيتحدث عن الملوك ، وأنهم كثيراً ما يخالفون مقتضى العقل والحكمة فى اختيار حواشيهم وبطانتهم ، إذ يحتضنون النفاية والأوباش ، فيسمون ويرتفعون ، ويختنون السروات والأخيار ، فينحطون ويتضعون ، ثم يعقب على هذه الظاهرة بأنها خاصية من خواص الملك ، وهى مأخوذة من الخواص الإلهية كما يقول « فإن العناية الألهية إذا صدرت ذرة منها إلى النفوس صار الإنسان نبياً أو إماماً ، أو ملكا ، وإذا صدرت فى حق الزمان صار اليوم . . . عيداً وموسماً ؛ وإذا صدرت فى حق المكان صار . . . مقدساً وحرماً » .

وهكذا ضللت أفهام الناس ، وذلك نفوسهم ، ووطئت ظهورهم للملوك فهل يقبل هؤلاء الملوك بعد ذلك أن يقتصد الأدباء فى خطابهم ومدحهم ؟ وكيف يسمعونهم إذا كان النداء أدنى من منزلتهم التى فى السماء ؟ .

إن جواب ذلك واضح فى الأدب ، حيث يوجه الخطاب إلى السدة ، ويرفع الكتاب إلى الأعتاب ، ويشيع فى المدح الضراعة والملق ، ولا يقف

فى سبيل المبالغة حدود من عقل أو حياء أو دين . ثم ماسيرة هؤلاء الملوك فى الحكم ؟ .

إن الذى ينحدر إليه الملك بالميراث ، أو يأخذه بقوة الشوكة وحد السيف ، ويجد فى عقيدة شعبه أنه مختار من الله محبوب بعنايته ، لا ينتظر أن تتكاءد طغيانه عقبة ، أو يقوم فى وجهه معارض ، وكذلك كان أمر هؤلاء الملوك ، يملك أحدهم ملايين الناس ، ويسوسهم بهواه ، فلا يعقب على حكمه معقب ، ويضع نصب عينيه مصلحته هو ، وإن تراكمت على رءوس الشعب تلول من الظلم والعسف ، ويعينه على طغيانه عصابة من النفعيين ، بل زبانية من الشياطين ، يمكنونه من رقاب الجماهير ، ليتمكنوا معه من امتصاص دمها وتحقيق مصلحتهم على حساب مصالحها ، ومن غارت نفسه للظلم فليكظم ، وإن أراد التنفيس فحسبه أن يقرأ لأبى العلاء :

مل المقام فكم أعاشر أمة     حكمت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية ، واستجازوا كيدها     وعدوا مصالحها ، وهم أجراؤها

٣ — والنظام الإقتصادى الذى حماه هذا الحكم ، والذى توزعت الثروات على الناس بمقتضاه ، كان شبيهه فى الفساد ، فالاقتصاد الجماعى مختل الموازين ، وباختلاله تجمعت الثروة فى أيدى فئة قليلة ، هى فئة الحكام وصفرت منه أيدى الكثرة الغامرة من الناس .

فالجباة والعمال يعسفون الشعب ، ويرهقونه فى جباية الأموال ، يجمعونها من كل يد ، ويتخطفونها من كل فم ، ثم يحملونها الى بيت مال الحاكم المستبد ، فيتصرف فيها على هواه .

وأكثر الوزراء والولاة يصلون إلى مناصبهم بالرشى ، يدفعونها عشرات ومئات من ألوف الدنانير ، فيعوضها بما يغلون من أموال الدولة ، وما يغتصبون بالمصادرة ، وما يأكلونه سحتاً حراما باسترشاء من دونهم من العمال ، أو من يستنجزون مصالحهم من الناس .

والنتيجة أن هذه القلة الحاكمة امتلأت خزائنها بالذهب والفضة ،

وسجلت تواريخها مايشبه الخيال عن التركات ، التي تعد دنانيرها بألوف الألوف ، وتقدر دارهما بمئات الأرادب ، وتكال جواهرها ويواقيتها بالويبة والمد، وتغل ضياعها في العام مئات الألوف ، وتخرج في تقدير أمتعتها عن طوق الحصر والحساب ، ومن شاء فليرجع إلى أخبار البويهيين ، أو السلاجقة ، أو الفاطميين أي وزراء أيهم شاء ، ليرى من حديث ذلك العجب العجاب .

وتجمع الثروة في أيدى هذه القلة من طبقة الحكام ، جعلهم يتحكمون في توجيه الحياة وتلوينها بما يريدون ، المال عصب الحياة كما يقولون .

ووضع في أيديهم مفاتيح الأرزاق لكثير من الناس ، ومنهم الأدباء فتراموا على الأعتاب ، ومرغوا جباههم في التراب ، وتملقوا فيهم غريزة الغرور والكبرياء بالمبالغة والادعاء .

وغرس الحقد والحسد في القلوب ، فنجم من ذلك آثار ظاهرة في كثرة الهجاء وتلونه بألوان صارخة من الشر والسوء .

٤ — أما الطبقات التي تألفت منها تلك المجتمعات .

٥ — وأما عيش كل منهما ومسلكه في الحياة .

فاستجلاؤهما سهل بعد ما أسلفنا من أحاديث الحكم والاقتصاد، وقد رأيناها نظماً تقوم على التحكم والاستبداد ، وتوزن فيها الأمور بميزان الأنانية والأثرة ، فلا تكافل ولاتضامن . ولا نصفة ولا عدل ، وإنما يأكل القوى الضعيف ، ويستغل الحاكم المحكوم . وتظفر القلة القليلة بالثراء المفحش . وتبوء الكثرة الكاثرة بالفقر المدقع .

ومن شأن هذا الفساد أن يوسع الفروق بين الناس . وأن يخلق منهم طبقات لاتوازن بينها ، ولا تقارب في ألوان عيشها .

فما هذه الطبقات إذن ؟ وكيف كانت تعيش ؟

أقرب مقياس لذلك هو مقياس اليسر والعسر ، فإذا اعتبرناه في النظر

وجدنا طبقتين من الناس ؛ ارتفعت إحداهما إلى الأوج بغناها ، واتضعت الأخرى تحت الحضيض بفقرها .

ووجدنا حياتين : الأولى تجد فلا يعز على وجدها تحقيق أمل ، والثانية تعدم فلا يفلتها أى ألم .

والوسط بين هذه وتلك قليل ، أو لا يكاد يكون .

وإذا كان الأدب مرآة الحياة ، وإذ كان الأدباء — على اختلاف فى حظوظهم — قد تذوقوا كلا من العيشين ، كان لا بد لكل من حديث .

## — ٢ —

## حياة الواجدين وأثرها فى الحياة العامة

### طبقة مترفة :

والواجدون هم الطبقة العالية من الخلفاء ، والملوك ، والسلاطين ، والأمراء والوزراء ، ومن وصلوا بجاههم إلى الغنى والثروة .

ومذهب هؤلاء فى الحياة : لك الساعة التى أنت فيها ، فقد تكدست فى خزائنهم الأموال ، وبهرتهم زخارف الحضارة المادية ، وأقفرت نفوسهم من نوازع الدين والخلق الكريم ، فأقبلوا على مناعم الحياة ولذاتها يلتمسونها من كل سبيل ، ولا يقفون منها إلا على ما يعقب التلف والبوار .

### إسراف :

والإسراف أول ما يطالعنا من سيرة هؤلاء الناس ، وإنه لإسراف عجيب ، إن أدرك الباحث سره فى بعض المواطن ، عجز عن إدراكه فى مواطن أخرى حتى ليظنه سر نفسه ، ويحسبه غاية لذاته فلا يبحث له عن غاية .

وإذا كان التفخيم فى شأن الخلافة كما يفهمه الفاطميون ، يقتضيهم أن يجملوا سرير الملك بمائة ألف مثقال وعشرة آلاف مثقال من الذهب الخالص وأن يحلوا ستره بثلاثين ألف مثقال ذهباً ، وألف وخمسمائة وستين قطعة جوهر مختلفة الألوان ، وأن يوشوا مظلته الكبيرة من الذهب بثلاثين ألف

مثقال ، ومن الفضة المحرقة بعشرين ألف درهم ، ومن الجوهر المتعدد الألوان بثلاثة آلاف وستمائة قطعة ، إذا كانت أبهة الملك هي سر هذا الإسراف ، فما السر في أن يكفنوا تميم بن المعز في ستين ثوباً ، وحسبه منها ثلاثة ؟ بل أي غاية في أن يتكلف الحنوط والكفن ليعقوب بن كلس عشرة آلاف دينار ؟ ألعلها انعكاس لما يوحي به الموت من زهد يبغض في الحياة أو لعلها رغبة في الفلج والسبق عند المباهاة .

قصور باذخة تموج بالنعيم والترف :

وللمباهاة وفخامة المظهر ، ولالتماس النعيم والحياة المترفة ، بسطوا أيديهم في إنشاء المصانع الضخمة والقصور الفخمة ، واستهانوا بالإنفاق على ذلك مهما بلغ ، فيتكلف معز الدولة البويهي في بناء داره ببغداد ألف ألف دينار وينفق الفاطميون ألفي ألف دينار على بناء القصر الغربي ، وهو واحد من قصورهم الكثيرة ، فإذا كانت هذه تكاليف البناء ، فكم تكون النفقة على تأثيثه بما يناسب روعته من فرش ورياش ؟

والجري في هذا المضمار يعجز عنه من ليس من هذه الطبقة ؛ ولعله من أجل ذلك أودع آثاره القوية في الأدب ، حيث قدم للأدباء من مظاهر الروعة والجمال مجالي تبهر النفس ، وتوقظ الشعور والحس ، فتناولوها بالوصف والتصوير .

أفلا يستحق الوصف ما كان عليه هذه القصور من فخامة المظهر وجمال النقش والزينة ؟! . أو تموج فيه من ستائر الخز ، وفرش الديباج . وماتزخر به من آنية الذهب والفضة . وأنيق الرياش . وناعم اللباس . وشهي الطعام ولذيذ الشراب ؟! . أو مايخطر في أبهائها ، ويملأ بالجمال الساحر أرجاءها ؛ من مقاين القيان والغلمان ؟! . أو مايشيع البهجة والسرور في جنباتها من موسيقيين ، ومغنين . وسقاة . وندمان ، ومضحكين ؟! .

بل إن آثاره في الوصف كانت أبعد من هذا المدى . فهم لم يقفوا به عند هذه المظاهر التي لا إشك في نفاستها وروعتها ، وتعدوا به أشياء قد نظمها

من التوافه إذا قسناها بما نعرف من أمثالها الآن. ولكنه وهم يدفعه الوقوف على حقائق هذه الأشياء ، ومن شاء فليرجع إلى خطط المقريزى ـ مثلا ـ ليعرف أن الفاطميين كانوا يزينون أدوات المطبخ بالجواهر الكريمة ، ويرصعون أنصبة السكاكين والملاعق ، وكيزان الماء ، وحوامل الحبية ، ومواقد النيران باللؤلؤ والدر والياقوت ، فهل هذه الأشياء توافه لا تستحق الوصف ؟ .

رخاء ورغد عيش :

ونعود إلى الحديث عن ترف الحياة لهذه الطبقة ، وما كانت فيه من رغد العيش ولينه ، ولنا فيما يذكر المؤرخون أمثلة نأخذ منها القياس ؛ ومن ذلك ما ذكروه عن أبى طاهر وزير عز الدولة البويهى ، وأن راتبه من الثلج كان ألف رطل لكل يوم. وما نقلوه عن شغف الوزير المهلبى بالورد، وأنه اشترى منه فى ثلاثة أيام بألف دينار ، فرش منه مجلسه ، وطرح منه فى بركة ذات فوارات تنفضه على الجالسين ، ثم أبيح بعد انتهاء المجلس لمن ينهبه من الناس .

وفنون من اللهو والعبث :

ولهم إلى جانب البذخ والترف ضروب من اللهو والعبث ، فى بعضها براءة ولكنه ذو تكاليف وعجب ، ومن أفانين ذلك قصر الورد عند الفاطميين ، كانوا يقيمونه بالخاقانية من قرى قليوب ، وكانت لهم بها جنان كثيرة ، ودويرات يزرع فيها الورد ، فإذا قصدها الخليفة للنزهة صنعوا له قصراً من الورد ليقضى فيه متعة يوم .

ومنه ما يصفون من غرام السلطان مسعود السلجوقى بالصيد وعنايته بأدواته ، حتى ليلبس كلابه الجلال من وشى الأطلس ، ويسورها بأسورة من الذهب، وتنال من رعايته ما لا يناله أفاضل الرجال فى دولته ، ولذلك يقول فيه أمين الدولة ابن التلميذ الطبيب الفيلسوف :

من كان يلبس كلبه وشيا ، ويقنع لى بجلدى

فالكلاب خير عنده مني ، وخير منه عندي

واللهو لهو مهما كان ، يجر البريء منه إلى غير البريء ، ومن شأن الترف البالغ والسرف المجنون ، يجر إلى المآثم والموبقات ، فإذا أفلتت النفوس من ربقة الدين ، وتصورت مثلها العليا بغرائزها الحسية ، ونظرت إلى يومها وكأن لاغد له ، إذا كانت النفوس كذلك عبثت من اللذات عبثا . ولم تحفل بما بين الحلال والحرام من حدود .

وكذلك كانت الكثرة من أهل هذه الطبقة ، ألهبتهم الشهوات بسياطها ، فانقادوا لها ، وركضت بهم في سهل الطرق ووعرها ، ولم تجد غرائزها عند النساء ما يطفئ سعارها الجنسي فالتمسوه عند الغلمان من الفحول والخصيان .

وندع حديث الجواري اللواتي ينتقين من كل جنس ولون ، وتمج بهن القصور ويحسبن بالالوف فتبلغ عدتهن في قصر الحاكم بأمر الله الفاطمي عشرة آلاف ، وفي قصر أخته ست الملك ثمانية آلاف ، منهن ألف وخمسمائة من الابكار .

ثم نسرع الخطو في قصة للسوأة السوءى في تعشق السادة الكبراء للغلمان ، فنشير إلى أنه بلاء سرت عدواه إلى المجتمع الإسلامي من الفرس ، وأن بعض العلية قد ابتلوا به من قبل ، ولكنهم كانوا يتغطون في بلواهم عن الابصار والاسماع ، فلما جاء هذا العهد الذي تعددت دوله ، راج فيه هذا الداء الوبيل ، واستشرى خطره ولصقت معرته بكثير من الخلفاء والملوك والسلاطين والوزراء ، فلم يتهونوا فيه عن الفضيحة بالاستتار ، ولم يبالوا في الجهر به دنس العار .

ونحيل في استمداد الشواهد لذلك على تاريخ بعضهم ، مثل مظافر بأمر الله من الخلفاء الفاطميين ، ومعز الدولة ، وعز الدولة من ملوك البويهيين والسلطانين : سنجر ، وزنكي من السلجوقيين ، ففي أخبارهم من فضائح هذا العار غرائب وأعاجيب .

وتبذل بمجالس السماع والشراب :

ومجالس الخمر ومباذلها كانت من شغل هؤلاء السادة المترفين ، وهى مجالس تطفح باللهو الفاجر والعبث الماجن ، يخلعون فيها العذار ويتخففون من التزمت والوقار ، وينزلون عن التصون والاحتشام للمدام والندام .

ولنا شاهد فى مجلس الوزير المهلبى وزير البويهيين ببغداد ، وقد نقلنا عن شاهده أنه اشترى لهذا المجلس ورداً بألف دينار فى ثلاثة أيام ، أما جلساؤه فيه ، وما كانوا يصنعون . فيذكر الثعالبى أنهم رفقة من القضاة يشبهون المهلبى فى بياض اللحية وطولها ويجتمعون معه ليلتين من كل أسبوع على اطراح الحشمة ، والتبسط فى القصف والخلاعة ، فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ، وأخذ الطرب منهم مأخذه ، وهبوا ثوب الوقار للعقار ، وتقلبوا فى أعطاف العيش ، بين الخفة والطيش ، ووضع فى يد كل منهم كأس ذهب من ألف مثقال فما دونها مملوءة شراباً قطربليا أو عكبريا ، فيغمس لحيته فيها بل ينقعها حتى تتشرب أكثرها ويرش بعضهم على بعض ويرقصون أجمعهم ، وعليهم المصبغات ومخانق البرم والمنثور ، فإذا أصبحوا عادوا إلى عادتهم من التزمت والوقار .

وقد بلغ من عنايتهم بهذه المجالس أن وضعوا لها القواعد والقوانين . وألفوا فى آدابها الكتب ، توضح الصفات التى يكمل بمراعاتها الظرف وحسن الندام ، ومن ذلك كتاب « أدب النديم » لمؤلفه كشاجم طباخ سيف الدولة الحمدانى وأحد شعرائه .

والمهلبى على خطورة ما كان يصنع فى هذا الباب ، أقل خطراً وأهون أثراً ممن كانوا فوقه من الخلفاء والملوك ؛ فقد استشرى الفساد بينهم واستفحل ، واندفع أكثرهم مع التيار اندفاعا لا ينهنهه حياء ولا يثنيه شدة أو خطب .

ومن مثلهم الواضحة الفاضحة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمى ، فقد كان مشغوفا بالغناء ، شريباً للخمر ، فلما بويع له يوم النحر من سنة ٤١١ هـ ، صلى

العيد بالناس ، وعاد إلى قصره ، فكتب بخلافته إلى الأطراف ، ثم بدأ أعمال خلافته بأن جلس لشرب الخمر ، ورخص للناس فيه .

والمعتصم بالله آخر خلفاء العباسيين كان كما يذكر ابن طباطبا شديد الكلف باللهو واللعب وسماع الغناء ، ولا يكاد مجلسه يخلو من ذلك ساعة حتى ساعة احتضار الدولة العباسية بغزو المغول ، فقد كانوا يقتطعون ما بقى لها من ملك ، ويزحفون إلى بغداد ، والمستعصم بالله وحاشيته وندماؤه منهمكون على التنعم واللذات . وفى غمرة من اللهو ساهمون ، فلما يئس البغداديون من إفاقته وصلاح أمره ، قذفوا فى أبواب قصره برقاع ضمنوها أشعار التنبيه والتحذير ومنها :

قل للخليفة : مهــلا آتاك مالا تحب
هاقد دهتك فنون من المصائب غلب
فانهض بعزم ، وإلا غشاك ويل وحرب
كسر ، وهتك ، وأسر ضرب ، ونهب ، وسلب

ومما ذكر عنه أنه كتب إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب جماعة من أهل اللهو والطرب ، فوصل رسوله مع رسول هولاكو وقائد المغول يطلب من لؤلؤ منجنيقات وآلات للحصار ، فقال لأعوانه : انظروا إلى المطلوبين وابكوا على الإسلام وأهله .

ومثل المعتصم فى ذلك جلال الدين آخر ملوك الدولة الخوارزمشاهية ، المتفرعة عن الشجرة السلجوقية ، فابن الطقطقى يذكر أنه ما دخل الخذلان على ملك من طريق اللهو واللعب كما دخل عليه ، فقد كان يهرب والمغول فى أعقابه ، إذا أصبح فى مكان أمسوا هم فيه ، يقوضون ملكه ، ويحاولون أسره وقتله ، وهو فى كل مراحل هربه مواصل لشرب الخمر ، عاكف على الدف والزمر لا ينام إلا سكران ، ولا يصبح إلا مخموراً نشوان .

# اثر حياة الخاصة فى حياة العامة

الناس على دين ملوكهم :

وماذا ننتظر بعد مارأيناه من سلوك الخاصة الفاسدة ، غير أن يسرى انحلالها الخلقى إلى المجتمع ، وتشيع بين الناس ؟ .

ذلك أن الناس على دين ملوكهم ، والصحة لاتعدى ، وإنما يعدى المرض وما الفساد المجتمع من دافع إذا كانت منابعه من رءوسه فإنه يندفع اندفاع السيل من عال ويشتد أتيه ، فلا يقف فى سبيله حجاز ، وقد يرشد إلى ذلك قول الله سبحانه : ( وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا ) . فأسباب التدمير — على قدر ما نفهم من الآية — لا تأتى القرية من خارجها بأكثر مما تنبع من داخلها ، لأن ترف المؤمرين وفسق الحاكمين ينتشران فى المحكومين بالمحاكاة والتقليد ؛ وليس وراء ذلك إلا الرهبة والانحلال فالبوار والدمار .

وناس هذه الأزمان كالناس فى كل زمان . هم تبع لملوكهم ، يقلدونهم ويذهبون مذاهبهم فى الحياة ، فيؤثرون ما يؤثرون ، ويجتوون ما يجتوون ، وقد رأوهم مقبلين على ما وصفنا من فساد ، فتعلقوا بغبارهم فى التماس الترف والنعيم ، وباروهم فى ميادين العبث والمجون وأعطوا أنفسهم مقادتها لجرت طلقا جموحها . وكثرت لديهم مجالس اللهو والمتعة وتنوعت بتنوع المرتادين لها واختلاف طاقتهم فى النفقة والإعداد فكان فيها الخاص والعام .

مجالس خاصة للهو :

فالمجالس الخاصة يقيمها المتآخون على المودة والألفة والمتشاكلون فى والهوى والطبع ، وللأدباء من هذا النوع نصيب موفور ، وشواهده كثيرة فى رقاع النثر ومقطعات الشعر ، يدعو بها بعضهم بعضاً إلى هذه المجالس .

فيستجيبون ويجرى بينهم من المباذل والهنوات مثل ماعرفناه عن مجالس المهلبي ورفاقه.

ومثل هذه المجالس فى انحصار دائرتها كانت أديرة الرهبان ، وقد كانت كثيرة منتشرة فى ربوع مصر والشام والعراق ، يرتادها كل من تسهلت له أبوابها واعتاد عليها ، فينعم بما شاء من متع القصف والسماع والمنادمة فى مجالس الراح والريحان :

مسارح عامة للهو :

ومن يتيسر لهم مثل هذه الندوات الخاصة لم يحرموا حظا من العبث ؛ فأمامهم مسارح عامة للهو يهيؤها الخمارون والنخاسون والمخنثون ، ويغشاها كل من تندت يده ، واتسعت للبذل والإنفاق ، وما كان أكثر هؤلاء المتجرين باللذات فى المدن والأمصار !!.

وقد رسم أبو حيان التوحيدى صورة للهو ببغداد فى القرن الرابع ، فيذكر في كتابه « الإمتاع والمؤانسة » أنه أحصى بالكرخ أربعمائة وستين جارية فى الجانبين ، ومائة وعشرين حرة ، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور يجمعون بين الحذق ، والحسن والظرف في العشرة .

ومن شاء فى استجلاء الصورة مزيداً فليرجع إلى حديث أبى حيان ، وسيرى هناك أن دور اللهو كانت تجذب الناس من كل صنف ، فيرتادها متصوفة ، ومقرئون وقضاة ومعدلون ، وفلاسفة ، ومتطببون وشعراء :

وأن بعض هذه الدور لم يقتصر فى إمتاع رواده على الشراب والغناء ، بل كان أصحابها يعطفون على العيون الباكية ، ويحنون إلى القلوب المتصدعة فيؤلفون بين الأكباد المحرقة .

كل الحواضر فى ذلك سواء :

ولا يظن أن تمثيلنا ببغداد أنها فريدة فى هذا الباب ، فقدضاهتها فى ذلك

العواصم والمدن الكبار ، وكان لكل منها مبتذلاتها وملاهيها ، وللحديث عنها تفاريق موزعة على مظانها من الكتب .

وهذه القاهرة - مثلا - لم يكن نصيبها من هذه المعابث أدنى من نصيب بغداد . وكما كان لبغداد كرخها تصطف على جنباته دور اللهو ، كان بالقاهرة كذلك مواطن يرتادها أصحاب الصبوات وطلاب اللذات وكان الخليج أملأ هذه المواطن فساداً ، وأكثرها رواداً .

وفى خطط المقريزى أشعار من القرن الرابع الهجرى فما بعده ، يحيي بها أصحابها معاهـــد أنسهم بالقاهرة . وما صادفوا فيها من نشوة لم تنسهم ذكرها الأيام .

ويذكر المقريزى أيضاً فى أخبار الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمى (وتولى ٤١١ - ٤٢٧ هـ) أنه لشغفه بالخمر والغناء والعبث ، رخص للناس فيها . فأقبلوا على اللهو ، وتأنقوا فى اتخاذ المغنيات والراقصات ، وبلغوا من ذلك مبلغاً عظيما .

وينقل عن ابن سعيد المغربى ماوصف به القاهرة عن مشاهدة وعيان ، أيام الملك الصالح نجم الدين الأيوبى، وعبارته - نقلا عن مواطن متفرقة - : « الفقير المجرد فيها مستريح ، من جهة رخص الخبز وكثرته ، ووجود السماعات والفرج فى ظواهرها ودواخلها ، وقلة الاعتراض عليه فيما تذهب إليه نفسه ، يحكم فيها كيف شاء ، من رقص فى السوق أو تجريد ، أو سكر أو حشيشة أو غيرها ، أو صحبة المردان وما أشبه ذلك ، ولا ينكر فيها إظهار أوانى الخمر ، ولا آلات الطرب ذوات الأوطار ، ولا تبرج النساء العواهر ولا غير ذلك .

حتى القرى :

بل لقد دلف الفساد إلى بعض القرى ، ودب بين المترفين من أهلها . فأخذوا من هذه المباذل بنصيب ، ومعرة النعمان كانت من قرى حلب والشام

وكان بها على زمن أبى العلاء المعرى ماخور يغشـاه الراغبون فى الفحش والفجور ، وقد حدث من معابثات رواده حادث جر على المعرة الحصار ونصب الحرب ، ذلك أن بعضهم عبث بإحدى النساء وأرادها بسوء . فاستصرخت المصلين يوم الجمعة فانتصروا لها وهدموا الماخور ، وأراقوا خمره ، وحطموا أدوات لهوه ، فغضب صالح بن مرداس صاحب حلب على الغاضبين للعار وحاصر البلد وضيق على أهله الخناق ، حتى أنجاهم من بطشه وشره شفاعة أبى العلاء ، وقد سجل الحادث ومسعاته فيه عند ابن مرداس فى شعره من اللزوميات .

## وفى الرياض والمنتزهات :

والرياض والمنتزهات وما أشبهها من الأماكن الخالية ، كانت كتلك العلب الليلية التى تباع فيها المباهج واللذات ، فقد كانت مباءات فسوق وفجور ، يأوى إليها أبناء الليل ، فيتخذون من ظلامه أستاراً لمباذلهم الوضيعة ، ومن وحشته حارساً يحميهم من عين الرقيب ، وما أوضح هذا الفن وأصرحه فى قصيدة لأبى الحسن السلامى — وهو من شعراء العهد البويهى ببغداد — يذكر فيها تصيده لغلام عباد ، ويصف مراحل هذا التصيد ، وما انتهى إليه الأمر ، حين أويا إلى روضة من الرياض ، وكان بينهما ما كان .

ولنا أن نضم إليها ما تحدث به المقريزى عما كان يصنعه القاهريون عند فتح بحر أبى المنجا ، وفى ليلة الغطاس ، وفى رحبة ما بين القصرين ، وغير ذلك من مواطن ومناسبات .

## الاستهتار بالشهوات :

وقد يبتلى كثير من الناس فيتجملون فى بلاواهم بالاستتار ويتغطون بالكتمان إلا أهل هاتيك الأزمان ، فقد توقح أغلبهم فى الاستهتار بالشهوات توقحاً لا يترفع عن إعلان الوزر ، ولا يستتر من الحيـــاء بستر ، فجهر بالموبقات مقارفها ، وأشاعها عن نفسه ؛ وهو لا يخشى أن يزن بريبة ، أو

تسوء سيرته بين الناس ، ولو كان ممن توجب عليهم مناصبهم التصون والتعفف والظهور بمظهر الأدب والكمال ، وكيف أن يرجمه الناس ، وبيوتهم جميعاً من زجاج ؟! .

## اثر هذه الحياة فى الأدب

لقد كان هذا اللون من الحياة الفاسدة أشد الألوان ظهورا وأقواها آثارا فى الأدب ، فقد تراءت اللذات لأكثر الأدباء . وتمثلت لهم بكل سبيل فوغلوا فيها من الأبواب المشرعة ، وتسللوا إليها من المسارب الخبيثة ، وانطلقت نزواتهم من عقلها ، وعاشوا عيشة منحلة . فجــاء أدبهم مثل عيشهم فى الانحلال يبسط الغرائز الوضيعة موائده الفاجرة ، تمتلىء صحافها بالعورات المكشوفة ، وتتواثب عليها الشهوات الجامحة ، وتتصاعد منها نغمات الفحش والبذاء ، دون ترفع أو استحياء .

وقد تقولون: ألم نعلم من دراسات العصور السابقة أن شيئا من ذلك قد كان وأن فى الأدباء السابقين من كانت له نزوات نزاها فى حياته ، وترددت أصداؤها فى أدبه ، مثل بشار ووالبة وأبى نواس ، وابن الضحاك . وغيرهم من المجان ؟ فأى فرق بين حالى هؤلاء وأولئك فى هذا ؟ .

والفرق بين الحالين هو الفرق بين الجيلين ، وما أحاط بكل جيل من حياة عامة ، وقد يكون الأدباء فى كل عصر من أشد الطوائف تحللا وانطلاقا ولكن مجاهرة الأديب بهذا التحلل فى حياته ، ومصارحته به فى أدبه تخضعان لما يسود فى بيئته العامة من تساهل ومسامحة ، أو تزمت وتضييق .

والأدباء السابقون أحسوا من بعض القادة إقبالا على الحياة اللاهية ، فى انكشاف واتضاح ، أو فى مواراة واستخفاء ، فظنوا أن ذلك يشفع لهم أن يتحرروا فى سلوكهم ، وفى تصوير هذا السلوك المتحرر ، ولكنهم صادفوا من نفور المجتمع ما صد انطلاقهم عن استرساله ، وحمى غيرهم أن يجاريهم ، بل إن سخط الشعب كان يتحول فى بعض الأحيان الى ثورة

مخيفة: تتهم بالزندقة والإلحاد وتقلق بال الخلفاء ؛ فيتحامون خطرها بتأديب هؤلاء المتحللين ، وحسبكم من شواهد ذلك ما كان من قتل بشار فى عهد المنصور ، وسجن أبى نواس أيام الأمين .

أما هذا العهد فقد استشرى فيه الشر ؛ وطم الفساد وعم ، وزين لأغلب الناس حب الشهوات ، وخفتت الأصوات عن تنكر المنكر ، فاسترسلوا فى الغى ، يمارسونه عيشا ؛ وينتجونه أدبا ، تجاوبا مع حياتهم التى يحيون ، ومرضاة لهوى السادة المترفين ، ومسايرة لما غلب على المجتمع من فساد وانحلال .

وبذلك كان للسخف والمجون فى أدب هذا العصر نصيب موفور ، لا يقاس به حظه من آداب السابقين ، وهل وجدنا منهم من يقطع له ويقف نتاجه عليه مثل ما رأينا من أدباء هذا العهد ؟ .

ومن شاء فليرجع إلى آثار ابن حجاج ، وابن سكرة ، وأبى الرقعمق ، وأمثالهم من متخالعى الشعراء ، ومنها نماذج كثيرة فى يتيمة الدهر ، لا تعرف غير هزل الحياة وعبثها ، ولا تعنى بغير السخف والمجون .

## — ٣ —

## عيش الحرمان

الجماهير المحرومة :

من البدهى أن ما أسلفنا حديثه من ترف ونعومة عيش لم يكن حظ جميع الناس ، ولا حظ الكثرة منهم ؛ فما كل كادح واجد ، ولا كل واجد ترف ، وإنما هو قدر مقدور لفئة قليلة ، مكنها من الفتى الواسع حظها الباسم وحظ الشعوب العابس ، وتحللت نفوسها من قيود الدين والخلق الكريم ، فشغلت حياتها بالعبث واللهو الداعر ، وملأتها المفاسد والشرور ، حتى قامت بهما على الناس ، وأعدتهم بالشر والفساد .

وما بسطنا القول فى وصف هذه الحياة ، وبيان ما أدى إليها وماتأدى عنها إلا لأنها حياة طبقة من الناس . احتضنوا الأدب ، أو ترامى الأدب فى أحضانهم فصادف فى أكنافهم ماشاء من غذاء ورواء وأخذ أكثر الأدباء من هذه الحياة بنصيب فكان لها فى أدبهم ظلال وأطياف .

ومع ذلك لم يكن عدد هؤلاء المترفين ليقاس بالكثرة الغامرة من معاصريهم الذين لم يمسوا الحياة إلا من جانبها الخشن ، فلم تعرف بطونهم شهى الطعام ، ولا جسومهم ناعم اللباس ، ولا جنوبهم وثير الفراش ، وإنما عاشوا على الحرمان فكان للأقلين منهم لذة وسعادة ، وللأكثرين ألما وشقاء فما كانوا فيه سواء .

حرمان عن تطوع واختيار :

فالأولون عرضت لهم زهرة الدنيا وزينتها ، ومهدت أمامهم سبلها ، ولكنهم اختاروا للحياة طريقها تحفها المكارم ، وتملؤها الصعاب ؛ فقطعوها بالزهد ، واستمسكوها عليهم بالكفاف ، من مطعم جشب ، وملبس خشن ومضجع قضيض ، وأولئك هم الزهاد والمتنسكون .

وقيسوا حياتهم فى ذلك على حياة الفارابى فى بلاط سيف الدولة ؛ فقد كان يكتفى من عطائه بأربعة دراهم لكل يوم ، ولو أنه أراد لأضفى عليه سوابغ النعم ، كما يضفى على دونه من الناس .

وحرمان عن قسر وإرغام :

والآخرون قست عليهم الحياة . ووضعتهم بحيث تنظر عيونهم ، وتشتهى نفوسهم . وتقصر أيديهم عن أن تنال ، وهؤلاء هم سواد الشعب ومعهم من الأدباء والعلماء . من لم تتصل أسبابهم بأهل الغنى والثراء .

أما العامة فكانت تصبر وترضى بالكفاف ، ولاتثور إلا عند الأزمات الموبقات ، حين يغلبها الصبر ، فتهيج الشر ، وتشغب على الحكام ، وارجعوا فى شواهد ذلك إلى « الإمتاع والمؤانسة » وحديثه عن ثورة البغداديين

على ابن سعدان وزير البويهيين ، حينما عز عليهم القوت ، وارتفع السوء بهم على المقدار ؛ ثم إلى خطط المقريزى وخبر الشدة المستنصرية ، وما ألحقت بأهل مصر من أذى حتى أعلنوا الثورة بعد أن أكلوا لحوم القطط والكلاب ، بل لحوم البشر من أحياء وأموات .

وأما الأدباء والعلماء الذين تقطعت بينهم وبين الغنى الأواصر ، فقد تجرعوا الصاب وتحملوا الأوصاب ، وفى تراجم كثير منهم صور منكرة . وأخبار تقطر أسى ومرارة ، حتى ليصل البؤس ببعضهم إلى حال من الشر يعز عليها فيها الصبر ، فيتعجل الموت بالانتحار ، لأن سعار الجوع لا يدافع بالانتظار ، وطالعوا لتعلموا إمتاع أبى حيان .

واحتيال على العيش من المكدين .

وإذا كان من الناس من يضيق بالشدائد صبره ، ويعجز حوله عن صراع الحياة فيستعجل نهاية المعركة على هذا النحو المروع ، وإذا كان فيهم من يتلبد للعاصفة عسى أن تعقبها رخاء لينة ، فيتذرع بالصبر ، وإن أفنى فيه العمل إذا كان فى الناس هذا وذاك ، ففيهم من لا يعرف اليأس والقنوط ، ولا العجز والتبلد ، وإنما يجابه الحياة على أى وضع كانت ، ويدير شراعه مع الريح فى كل اتجاه ، فاذا ضاقت بالرزق أبوابه المألوفة ، وقصرت عن الكسب وسائله الشريفة ، فهناك الذكاء وإعمال الحيلة . ومعادل الطريق أولى من سوائه الملىء بالعقبات والأشواك .

وقد شهد العصر العباسى الثانى كثيراً من هذا الصنف الأخير ، فظهر فيه طائفة من الناس ، عزت عليهم الحياة فلم يستهينوا بها ، ولم يستكينوا لها . واستعانوا على فتح مغاليقها بأساليب متنوعة من الدهاء الخسيس الخبيث وانتشروا فى كل ناحية ، وعرفهم المجتمع بأسماء تختلف فى لفظها وتتحد فى مفهومها . فهم « الساسانيون » و « بنو ساسان » و « أهل الكدية » و « المكدون » ، وهم أولئك الذين تفننوا فى الاحتيال على كسب المال

بل على سلبه بما برعوا فيه من تعطيف القلوب الجاحدة ، وتليين الأكف الجامدة ، بخلابة اللسان ، وسحر البيان ، أو باصطناع العلل والعاهات ، أو التظاهر بانقطاع السبيل ، أو الخروج إلى الغزو ، أو الهروب من دار الحرب ، أو استغفال الأغرار بادعاء الطبابة ، أو النجامة ، أو التفقه ، أو الوعظ ، أو إرهاب المستورين بسوط الفضيحة ، من بعد إيقاعهم فى حبائل طمعهم فى النساء أو الغلمان، أو ما أشبه ذلك من وجوه الحيلة والمكر، أو الختل والغدر .

وأهل الكدية فى العصر العباسى الثانى ، يذكرون بصعاليك العرب فى العهد الجاهلى .

فقد تشابها فى نشأة كل منهما عن الظلم الاجتماعى الصارخ ، وبسبب قوى من شر الحياة ولأوائها .

وتشابها فى اتجاه كل منهما إلى استلاب الآمنين الوادعين وإن اختلفت وسائلهما ، من سطو عنيف يناسب فوضى الجاهلية ، ويماشى خشونتها ، إلى لطف حيلة يشاكل رقة الحضارة ، وينفذ من حرصها وحذرها .

ثم تشابها كذلك فى أن كان لكل منهما أدب وأدباء .

ولعلكم إن تأملتم فى مجتمعنا الآن ـ تجدون للكدية بقايا ، يسهل عليكم وجدانها فى طوائف « القرداتيه » و « الحواة » و « الأدباتية » والمتسولين على اختلاف الوجوه والأساليب .

## آثار الحرمان فى الأدب

كما ارتسمت على صفحة الأدب خطوط وألوان من حياة الترف والنعيم ، تجاوبت فى جنباته أصداء للحرمان مختلفة النغمات .

فمن تطوعوا للحرمان ، وعرضت عليهم زهرة الدنيا فأعرضوا عنها ، ونأوا بجانبهم عن النعيم نسكا وزهادة ، هؤلاء حاولوا أن يشيعوا مذهبهم فى الناس بما أخرجوا من أدب يعمل على تطهير النفوس من نزوعها المادى ،

ويروضها على الخشونة والتقشف ، ويخير بين لذة الدنيا الفانية ، ونعيم الأخرى الباقية .

بل إن الزهد دخل فى طور جديد ، فلم يعد غاية إليها المنتهى ، وإنما اتخذه المتصوفة وسيلة للتجرد ، والكشف ، والاتصال بالملأ الأعلى . وقد تنظم التصوف فى هذا العهد وتفلسف ، وصار له أدب متميز ، فى الكتب التى توضح معالمه ورسومه ، وتبين مراتب السلوك فيه ، وفى الشعر الذى يتحدث عن الشوق ، والوجد ، والوصل ، والكشف ، وما أشبهها من أمور

والحرمان الجدير باسم الحرمان ، وهو الذى عاناه أصحابه شقاء وألما ممضا ، وتجرعوه غصصا قاتلة ، هذا الحرمان تراءى فى أدب ذائقية عيونا باكية ، وقلوبا جريحة ، وملأه صخبا مروعا من الصراخ الشاكى والعويل الكسير ، وزرع فى قلوبهم الحقد والحسد ، والبغضاء ، فأثمرت ثمرها الكريه ، من الإقذاع والبذاء والإفحاش فى الهجاء .

والذين استلانوا صعب الحياة بالكدية ، كانت آثارهم فى الأدب قوية واضحة ولعلها أقوى وأوضح من آثار أولئك وهؤلاء .

فقد اصطنعوا لهم لغة يتفاهمون بها فيما بينهم وسموها « المناكاة » وهى لغة معماة ، لا تنفتح أغلاقها لغير العالمين بها من صميم أهل الكدية ، أو من كان شديد الصلة بهم كالصاحب بن عباد ، وفى يتيمة الدهر قصيدة لأبى دلف الخزرجى ، ضمنها شيئا من ألفاظ المناكاة .

وكما كان لصعلكة الجاهلية شعر وشعراء . كان للكدية فى هذا العصر كذلك شعراء يتغنون فى شعرهم بالانتساب إلى الساسانية ، ويملأونه بألفاظ لغتهم ، ويصورون فيه فنون المكدين وأساليب احتيالهم على الناس . ومن هؤلاء : الأحنف العكبرى . وأبو دلف الخزرجى . وسنورد شيئا من شعرهما فى أعقاب هذا الحديث .

ولا يزال لهذا الأدب الساسانى بقايا تتمثل فيما يصطنعه طائفة « الأدباتية » إلا أنه عامى . وذلك عربى فصيح .

ثم إنهم بما احتالوا على العيش ، وبما افتنوا من فنون المكر والخداع مهدوا لنشأة فن أدبى جديد : هو فن المقامة ، إذ قدموا ، للمؤلفين أنماطاً من الحياة مختلفة فكانت مادة غزيرة لهذا الفن الجديد ، ومنبعاً فياضاً بالصور التي تنوعت بها المقامات .

— ٤ —

صورة موجزة لمظاهر الحياة الاجتماعية :

وبعد : فلعلنا أن نكون بهذا الحديث قد كشفنا عن وجه الحياة الاجتماعية فى ظلال الدول الناشئة ، وأوضحنا ما كان لها من مظاهر وأنماط .

ولعلنا نستطيع إيجاز هذا الحديث فى :

أن المجتمع كان يتألف من أمشاج وعناصر ، هى تلك التى تكونت منها الجماعة الإسلامية فيما سلف من عهود ، ولكن هذا العهد أظلها بعد أن انبسط لها الزمن وامتد ، ومكنها من ترسيخ ما نقلت من رواسب الحضارات البائدة ، وهيأ له أن تدخل معه فى المجتمع الإسلامى ما شاءت أن تدخل من العادات والتقاليد .

وأن نظام الحكم الذى فرضته القوة والتدليس على الشعوب المغلوبة الكاظمة كان جائراً عسوفاً ، يمجد الملك والسلطان ، فيمنحه كل شىء ، ولا يحسب للشعب أى حساب .

وأن العدل الاجتماعى ضاع فى ظل هذا الحكم ، فاضطربت موازين الاقتصاد الجماعى ، واختل توزيع الثروة ، فانحاز المال إلى جانب الطبقة الحاكمة ، تبدده دون رقيب ، ولا حارس من خلق أو دين ، وتترك جمهور الرعية من ورائها المتربة المهلكة والفقر المبين .

وأن ذلك الاختلال الاقتصادى استتبع ما يلازمه من اختلال اجتماعى ، فنشأ عنه نظام طبقى فاسد ، تتسع فيه الفروق بين الطبقات ، فكانت واحدة فوق الذروة وأخرى تحت الحضيض ، وتتباين فيه ألوان العيش ، من لون

زاه بهيج ، إلى آخر قاتم كئيب .

وأن القلة القليلة التى مكنها الظلم من رقاب الشعوب ، فحولت عرقها ودمعها ودمها إلى ذهب نضار ، قد سلطت على هذا الذهب لتحيله فى بطونها كظة وتخمة وفى رءوسها خماراً ونشوة ، وفى فروجها لذة وشهوة ، فأسرفت فى تبديده على الأبهة والترف ، فى فخامة القصور ووثارة الرياش ، ونعومة اللباس ، وليونة الطعام ، واللهو الخليع الفاجر ، والمجون الداعر ، فى السماع والشراب ، والتمتع بالنساء والغلمان ، فدنسوا بذلك أظهر جوانب المجتمع للتاريخ

وأن هذا الانحلال تحدر من قمة المجتمع إلى سفوحه ، ومن رءوسه الفاسدة إلى أطرافه ، فسرت عدوى الانهيار الخلقى فيما حول المؤسرين المترفين ، إلى كل من وصل إليهم ، أو تشبه بهم ، من ذوى النفوس المريضة ، والضمائر الخبيثة ، والدين الواهن الرث ففشا بينهم أردأ الطباع وأدنأ التقاليد ، ودلفوا إلى المتعة والشهوة من كل سبيل ، دون تفريق بين حلال أو حرام .

وأن الكثرة الغامرة من الناس كانت تعيش على العدم والحرمان ، تستمرئه وتلذ طعمه عن طواعية وزهد ، ويتجرعه ولا يكاد يسيغه من قهر عليه وأعضته قسوة الدهر به ، ويحتال على مصارعته كل حول وقلب ، فلا يعف عن المسارب الملتوية الغامضة إذا ضل سواء السبيل .

## ملخص أثر هذه الحياة الاجتماعية فى الأدب :

وقد عرفنا من حديث هذه المظاهر الاجتماعية كيف طبعت الأدب بطابعها ، ورسمت على صفحته ظلالها وأطيافها ، وعرفنا ما كان من قوة تأثيرها فى الأدباء تأثيراً يطرد معها ، أو ينعكس عنها ، وما كان لذلك من آثار واضحة فى توجيه الأدب إلى اتجاهاته الموضوعية المختلفة ، وهذه سطور نرجو أن تكون مجزئة فى استخلاص هذا الذى عرفناه .

فانحياز المال إلى جانب الحكام ومن التف بهم ، واحتجانه فى أيد قليله من أهل السلطان والجاه ، زاد الأدب اندفاعا فى اتجاهه البغيض المذل . وعنفا فى سوقه إلى طبقة الإقطاعيين ، يسير فى ركابهم ويتغنى بمدحهم ، ويعلى إلى السماء ناساً لولا ما بأيديهم من بطش ، وما فى خزائنهم من مال ، ما كان لأحدهم أى ذكر .

وغلب أكثر الأدباء على أمرهم فمرغوا وجوههم فى التراب ، واستفرغوا جهودهم فى مدح هؤلاء السادة ، والتسبيح بآلائهم ، وبالغوا فى هذا التسبيح مبالغات ممقوتة ، يستمدونها من تضخيم صفات قد تكون فيهم ، ومن اختلاق أخرى ليس لها متات بهم ، كل ذلك ليرضوا غرورهم ، ويمكنوا لأنفسهم منازل من قلوبهم ، وقد غلب هذا التعبد المهين على أدب العصر ، وبخاصة نتاج أولئك الذين اتصلت أواصرهم بأصحاب القصور ، وذاقوا فى رحابهم حلاوة النعيم .

وازدهار الحضارة ، وإسراف المترفين على تفننها ، وتملؤ الأدباء منها : مكن لهم من حسها والشعور بها ، واستشفاف أسرارها فى جميع أوضاعها ، فأتقنوا تصويرها فى مظاهرها الرائعة ، وفى مباذلها الوضيعة ، وأجادوا الوصف لكل ما تناولوه بالوصف من خطير أو حقير .

وانغماس أكثر الأدباء فى الحياة الفاسدة ، ومشاركتهم فى لهوها الخليع وعبثها الفاجر السافر ، وانحطاط المثل العليا للأخلاق ، والمجاهرة بالإثم والفسوق ، كل ذلك ملأ أدبهم بذكر الفواحش والعورات ، واتخذ منه بوقاللتحريض على متع الحياة ، وتزيين الخلاعة والمجون فى عرى فاضح ، وصراحة مكشوفة وتبذل مهين ، كالذى نراه فى شعر ابن الحجاج ، وابن سكرة ، وأبى الرقعمق وصريع الدلاء ، وغيرهم من الأدباء العابثين المتماجنين .

والزهد فى مناعم الحياة وتخشينها بالتقشف ، وهو اتجاه انعكاسى لهذه المادية الجارفة ، يحاول مقاومتها بالصد عنها والتنفير من الدنيا ، والترغيب

فى الآخرة والتذكير بالموت والحساب ، هذا الزهد كان له أدب يتجلى فى نتف تتفرق على دواوين بعض الشعراء من أمثال أبى العلاء ، وفى كل ما صدر عن الزهاد والمتقشفين من أقوال .

وبعد أن اتضحت معالم التصوف ـ والزهد أقوى عناصره ـ ظهر الأدب الصوفى فى كتبه التى تنظم قواعده وأصوله ، وفى شعر المتصوفين ، أمثال عمر بن الفارض ، ونتاجه منه غزير وفير .

وقسوة الحياة وشقاؤها ، وشظف العيش وخشونته ، ورنق المشرب وكدره ، تلطف لها أهل الكدية ، وتخففوا منها بالمكر والدهاء ، ونشأ عن ذلك الأدب الساسانى ، يتغنى فى شعر المكدين بالاحتيال ، ويروى فى المقامات قصصا لعيش الكادحين ، وما يتوسلون به إلى هذا العيش من فنون الغش والخداع .

ووهنت عن احتمال هذه القسوة بعض القلوب الرقيقة ، ففاضت بالألم ، وأرسلته فى أدبها سخطا يشكو جور الزمان وأنينا يبكى من البؤس والحرمان .

ولكنها فى كلا الوضعين ملأت الصدور ، وحشتها بالحقد والبغضاء ، فحولت الهجاء إلى سياط تلهب الوجوه ، وأقذار وأوساخ تصب من الرءوس :

وفساد المجتمع . واضطراب نظمه ، واختلال موازينه ، وضياع الحق والعدل فيه ، هذا الفساد الشامل البشع ، لم يعدم من ينعى عليه ، ويندد به تنديداً يختلف باختلاف الباعث عليه ، ووجهة النظر فيه .

فهو ضئيل الغاية ، ضيق الأفق ، حين ينبعث فيه الأديب عن تفكيره الانفرادى الأثر ، وينظر فيه من زاوية خاصة به ، ولا ترائى له منها غير نفسه وأطماعه ، كالذى نراه عند المتنبى وأمثاله من ذوى الطموح .

وهو عظيم الغاية ، نبيل المقصد ، سامى الأفق ، واسع المدى ، إذا استمد له صاحبه بالشعور الاجتماعى الذى يؤثر ولا يستأثر ، كما كان أبو العلاء المعرى ؛ فما بكى لنفسه ، وإنما كان بكاؤه لكل الناس من جميع الطبقات ، وحسبه أننا لا نجد من يجاريه فى هذا الميدان .

# صور تمثل أثر الحياة الاجتماعية فى الشعر

## وصف دير لأبى عثمان الخالدى :

قال فيما ذكره عن وقت سعيد ، قضاه بدير سعيد :

يا حسن دير سعيد إذا حللت به ... والأرض والروض فى وشى وديباج
فما ترى غصنا إلا وزهرته ... تجلوه فى جبة منها ودواج
وللحمائم ألحان تذكرنا ... أحبابنا بين أرمال وأهزاج
وللنسيم عـلى الغدران رقرقة ... يزورها ، فتلقاه بأمواج
والخمر تجلى عـلى خطابها ، فترى ... عرائس الكرم قد زفت لأزواج
وكلنا ـ من أكاليل البهار على ... رءوسنا ـ كأنو شروان فى التاج
ونحن فى فلك اللهو المحيط بنا ... كأننا فى سماء ذات أبراج
ولست أنسى ندامى وسط هيكله ... حتى الصباح غزالا طرفه ساج
أهز عطفى قضيب البان معتنقاً ... منه ، وألثم عينى دمية العاج
وقولى ، والتفانى عند منصرفى ... والشوق يزعج قلبى أى إزعاج
يادير ، ياليت دارى فى فنائك أو ... يا ليت أنك لى فى درب دراج

## من ذكريات شاعر عن ملاهى القاهرة :

يقول ابراهيم بن القاسم الكاتب الملقب بالرشيق . بعد رحيله عن مصر سنة ٣٨٦ ه :

هل الريح إن سارت مشرقة تسرى ... تؤدى تحياتى إلى ساكنى ، مصر ؟
فما خطرت إلا بكيت صبابة ... وحملتها ما ضاق من حمله صدرى
لأنى إذا هبت قبولا بنشرهم ... شممت نسيم المسك من ذلك النشر
فكم لى بالأهرام ، أو دير نهية ... مصايد غزلان المطارد والقفر

إلى جيزة الدنيا ، وما قد تضمنت　　جزيرتها ذات المواخر والجسر
وبالمقس والبستان للعين منظر　　أنيق إلى شاطى الخليج ، إلى القصر
وفى بئر دوس مستزاد وملعب　　إلى دير مرحنا ، إلى ساحل البحر
فكم بين بستان الأمير وقصره　　إلى البركة الخضراء من زهر نضر
تراها كمرآة بدت فى رفائف　　من السندس الموشى تنشر للتجر
وكم ليلة لى بالقرافة خلتها　　لما نلت من لذاتها ليلة القدر

# الحركة العلمية

## نصيبها من النهوض واتجاهاتها المختلفة
## وآثار ذلك فى الأدب

— ١ —

لم يعرف العرب البحث العلمى ، ولم يتجهوا إلى اصطناعه والاشتغال به ، إلا فى نور الإسلام ، ذلك لأن أغلبهم فى الجاهلية كانوا يعيشون على الطبيعة والفطرة ، ويحيون حياة بدوية ساذجة ، يضيق فيها الأفق ، وتقل المطالب ، وتخف المؤنة ، فكانوا ينتزعون معارفهم من بيئتهم المحدودة ، ويقتصرون منها على قدر ما تدفعهم إليه الضرورة ، وتتطلبه حاجة الحياة ،

فلما أشرقت شمس الإسلام ، فتح أذهانهم بنوره ، ودلهم على فضيلة العلم ، وحثهم على التماس المعرفة أنى كان موطنها ، وبدلهم من الحياة البدائية حياة أخرى أرغد وأسعد ، وفسح أمامهم الآفاق بما أورثهم الفتوح من ملك عريض ، وفتح لهم أبوابا لا توصد أمام اختلاطهم بغيرهم من الأجناس ، وأطلعهم على شعب من الحياة وألوان تتشعب مظاهرها ، وتتعدد مشاكلها ، فحينذاك اندفع المسلمون من عرب وعجم ، اندفعوا اندفاعا عنيفاً إلى ميادين العلم ، يبحثون عما تقتضيه الحضارة الجديدة من ألوان الثقافة والمعرفة ، فطرقوا لها كل سبيل من أصيل ودخيل وانغمسوا فيها حتى شملت مطالب الدنيا والدين.

وإذا كانت جوانب البحث العلمى لم تتعادل فيما قبل العصر الذى نؤرخ لأدبه . وكان حظوظها من رعاية الدولة لها ، وإقبال الباحثين عليها ، قد تفاوتت بتفاوت الأحوال السياسية السائدة، واختلفت باختلاف أمزجة أولى الأمر ، فإن هذا العصر ـ العصر الذى تعددت فيه الدول الإسلامية بعد توحد وتقاسم فيه الملوك والأمراء سلطان الخلفاء ـ هذا العصر تساوت فيه جميع الجوانب ، وحظيت منه الحركة العلمية على اختلاف اتجاهاتها بالخير الكثير

وتسابقت همم الملوك والأمراء على إنهاض العلم أيا كان لونه وأصله ، وشحذ العزائم على الاشتغال به سعيا إلى إعلاء شأن الدولة ، أو جريا وراء الشهرة وذيوع الصيت ، فقربوا العلماء على اختلاف طوائفهم، وأكرموهم بإجزال العطاء لهم ، وسهلوا طرق التناول للعلم ، فأنشئوا دوراً للكتب للمطالعين والمنتسخين، ويسروا الحياة على الطلاب ، فأعدوا لهم المدارس والأستاذين، وأجروا عليهم الأرزاق ، ولذلك صار هـــذا العهد أزهى مراحل الفكر الإسلامي فى تاريخه القديم ، وأحفلها بالثروة العلمية والانتاج ، وفيه بلغ كل فن غايته من الكمال أو كاد .

— ٢ —

فالعلوم الإسلامية ، وهى التى نشأت فى حجر الإسلام من دينية ولسانية، كانت قد جاوزت مرحلة البدء والتكوين ، واستعدت لتنتقل من طور الطفولة والنشأة ، إلى طور النضج واكتمال الشباب .

لقد سبق الأولون بجمع مواد هذه العلوم من مصادرها وتلقفها من أفواه الرواة ، ثم عقب عليهم من كملوا نقص مروياتها ، وصححوا خطأها ، وجمعوا الأشباه والنظائر بعد تفرقها ، وأصلوا شيئاً من أصولها ، وحاولوا الترتيب والتبويب فى بعضها .

ولكنهم تركوا وراء ذلك عبئاً يحتاج إلى جهد كثير ، فلما جاء هذا العهد عادوا على كل ذلك بالنظر الدقيق ، وتناولوا ما كتبه أسلافهم بالشرح وبسط العبارة ، وأتموا استنباط القواعد والأصول ، وفرعوا عليها الفروع ، وأكملوا استخلاص العلوم التى بقيت مسائلها مشتبكة بغيرها واتجهوا بمضى الزمن إلى ما يشبه التخصص ، فعرف لكل علم طائفة من العلماء ، يوفرون جهودهم له ، ويخرجون فيه أشكالا متنوعة من الكتب ، بين المبسوط والمجمل والوسيط .

وفى ذلك كله يتجلى التنسيق وحسن الترتيب ، ولنعتبر ذلك بقياس ماصنعوه فى علم اللغة ومتنها على صنيع المتقدمين .

— ٣ —

بدأ تدوين اللغة بجمع الألفاظ المتعلقة بموضوع واحد فى كتاب يطلقون عليه اسم ذلك الموضوع . فكتاب للخيل يضم الكلمات الدالة على أوصافها ، وشياتها ، وأصواتها ، وأعضائها ، وأدوائها ، وعلاجها ، وحملها ، ونتاجها ، وكل مايتعلق بها من أمور ، وكتاب آخر للإبل ، أو الشاة ، أو الشجر والنبات أو النخيل والكرم ، وبذلك توزعت مفردات اللغة على كتب تختلف باختلاف أنواع الحيوان والنبات .

ولما بدا لهم البحث عن طريقة أشمل تأليفاً ، وأسهل تناولا ، وجدوها فيما اهتدى إليه الخليل بن أحمد فى كتاب العين ، وذلك بجمع ما تصل إليه طاقة المؤلف من ألفاظ اللغة فى كتاب واحد . وترتيبها ترتيباً منظوراً فيها إلى أواخرها ، على حسب مخارج الحروف .

وقد كانت الفكرة حرية بالكمال لو لم تشبها هنوات ليست هينات ، فقد هجر الترتيب الهجائى الذى يألفه الناس . وسار على ترتيب الحروف بحسب مخارجها ، مبتدئاً بحروف الحلق ، ومنتهيا بحروف الشفة ، فجاء ترتيب الأبواب فى كتابه على ترتيب أوائل الكلمات فى هذه الأبيات :

علقت حبيبا هنت خيفة غـدر  قليل كرى جفن شكا ضر صده
سبا زهوه طفلا دبانة تائب  ظلامته ذنب ثوى ربع لحده
نواظره . فتاكة بعبيـــده  ملاحته أجرت ينابيع وجـده

وهو كما يبدو ترتيب غريب ، لا يسهل معه التناول على كثير من الناس .

وعسر آخر مما شق به الخليل فى هذا الكتاب ، فهو حين يتناول الكلمة يقلبها فى أوضاع مختلفة ، ويبرزها فى جميع الصور التى يجوز العقل تأليفها من تغيير مواقع الحروف ، وفيها ما وردت به اللغة ، وفيها

المهمل الذى لم يستعمل ، وبين هذا وذاك يضيع جهد الباحث ، كما ضاع جهد صاحب الكتاب .

ولذلك كان أصحابنا أهدى من أولئك سبيلا ، حين خلصوا كتبهم من هذه الشوائب شيئا فشيئا ، وبدأ منهجهم واضحا فى طريقه الجوهرى صاحب الصحاح ، الذى أغفل المنفى المهمل ، وأبقى على الوارد المستعمل ، ورتب الأبواب فى كتابه على الترتيب الذى ألفه الناس لحروف الهجاء .

ثم انهم كانوا أهدى منهم سبيلا وأقوم فيما حاوله الزمخشرى من جمع تفاريق من المعانى الحقيقية والمجازية لكثير من الكلمات ، ومن اجتهاده فى إيراد الكلمة التى يبين معناها مستعملة فى عبارة بليغة منتقاة .

— ٤ —

وما بنا أن نبسط القول فى هذه العلوم علماً علماً ، فلذلك درسه الذى يستقل به ، والذى نحيل عليه فى تعرف حال كل علم منها وحال رجاله ، وما بذلوا له من جهود ، وما أخرجوا فيه من كتب ، ولكن هذه الإحالة لا تعفينا من التنبيه على ظاهرتين كانتا من أوضح خصائص الحركة العلمية لهذه العهود :

إحداهما : كمال التصفية لمسائل العلوم ، التى كانت لا تزال مختلطة بغيرها ، وتمايزها وانفصال بعضها فى بعض ، واستقلال كل منها بكتبه ، ومصطلحاته الخاصة ، والمثل فى ذلك فنون البلاغة ، فهى حسنه من صفات هذا العهد . وتدين فى تشخصها واستقلالها لرجاله ، إذ بقيت مباحثها متداخلة فى غيرها ، مبعثرة على مواطن شتى ، من كتب التفسير حيث تدور حول مناسباتها من الآيات ، وفى بحوث علماء الكلام عن إعجاز القرآن ، وفى تعليقات الرواة من اللغويين على مختلف النصوص ، وفى توجيهات العارفين بصناعة الإنشاء للمبتدئين فى فنونه ، وفيما نتج عن الخلاف المحتدم بين النقاد لتبيين منزلة شاعر أو المفاضلة بين شاعرين ، أو طريقتين من طرائق الشعراء أو الكتاب .

هكذا ظلت البحوث البلاغية ، مشتتة لا تعرف مكاناً تسكن إليه ، وتتجمع فيه ، ويهيىء لها الجو الصالح للنمو . إلى أن جاءتها هذه العهود ، وانتبه إليها رجالها وأولوها الرعاية والعناية ، فملأت مسائلها كتب النقد الأدبى فى أول الأمر ، وأخذ جانب التوجيه فى بعض هذه الكتب يزاحم جانب التقدير للنص ، إلى أن غلب عليه عند بعض المؤلفين ، وهنا بدأت معالم الطريق تتضح ، وشخصت فنون البلاغة ماثلة فى كتب تخصص لها ، وتقلبت فى مراحل وأطوار من تلك العصور تتمثلها فى ابتدائها نامية متجهة إلى النهوض عنـــد أبى هلال العسكرى فى كتابه الصناعتين ، صناعتى الشعر والنثر ، وفى اكتمالها فنية نضرة فى كتابى عبد القاهر الجرجانى ، أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، وفى شيخوختها الجافة لدى السكاكى فى كتابه مفتاح العلوم .

والأخرى : استحكام الروح العلمية وسيادتها ، ويتجلى ذلك واضحاً فى دقة البحث وعمقه ، وفى حسن الترتيب والتبويب ، وفى العبارة الدقيقة المقتصدة التى لا تعرف الإسراف ، اللهم إلا إسرافا فى الدقة والاقتصاد بدأ هيناً يسيراً ، ثم أخذ يقوى ويشتد عند علماء العهد السلجوقى ، وبخاصة متأخروهم ، وسببه تطاول العمر بكل علم ، وتمكن رجاله من بحوثه ومطاوعة العلماء للتأثر الشديد بالمنطق ، فكان ما كان من هذا الاقتصاد الدقيق فى التعبير حتى ليخيل إليك أنه مقصود للتعسير والإعنات ، ويذكرك بالتعمية والإلغاز فى كثير من الأحيان .

— ٥ —

أما العلوم الدخيلة والمعارف الأجنبية التى نقلوها عن الأمم الأخرى فما عدا طورها عندهم هذه السنة ، وما كان الذى سلختة من عمرها فى كنف الإسلام قبل هذا العهد : إلا فاتحة كتاب ، أو قطرات الطل قبل انهمال السحاب بالوابل الغزير .

وقد عرفنا من دراسة الصدر الأول للدولة أنه كان بدء اتصال المسلمين بهذه العلوم اتصالا ترجى له ثمراته وتتضافر جهود الدولة والأفراد على نقل معارف الأمم القديمة من مختلف اللغات .

ورأينا كيف بدأت الترجمة حركتها المترفقة أيام المنصور ، وكيف قويت تلك الحركة على عهد الرشيد والبرامكة ، وكيف ازدادت قوتها . وأسرعت خطاها ، واتجهت وجهتها الحقة فى زمن المأمون حيث اشتدت عناية الدولة بها فأعدت دار العلم أو الحكمة بما يعين التراجمة على العمل المنتج ، وجلبت أصول المترجمات من مصادرها الأصلية فاتسعت دائرة الترجمة ، وتناولت مالم يتناوله السابقون ، وعادت على ما ترجموه بالتصحيح والتهذيب .

ولكنا نعرف مع ذلك أن العهد لم يطل بهذه العناية من الدولة ، فقد اضمحلت بل انمحت بعد عهد المأمون ، وعانى المشتغلون بالعلوم الفلسفية عنتاً ورهقاً تحت وطأة الترك الثقيلة أيام استبدادهم بشئون الدولة وتسلطهم على الخلفاء ، إذ لم تكن لهم سابقة علم ، ولم يكتسب واحد منهم حظاً من الثقافة والمعرفة ، إلا فى الفرط النادر ، وكانوا مع ذلك يلتمسون رضا العامة والدهماء فى مسايرة الحنابلة وأشباههم ممن يرون فى الاشتغال بهذه العلوم إثماً كبيراً ، وخروجا على الدين .

فلما تمكن البويهيون من كسر شوكة الأتراك والقضاء على سلطانهم انمحى ظلمهم الثقيل ، وتهيأ لهذه العلوم وللمشتغلين بها جو صالح للعمل والإنتاج :

تهيأت لهذه العلوم البيئة الصالحة والجو المناسب فى كل دولة من الدول الناشئة ، فقد كانت كلها سواء فى الاعتداد بها والاحتفال برجالها ، وكانوا يعتدون بها لأنهم يدركون قيمتها ، ويقدرونها لذاتها ويعرفون أثرها فى الحضارة كما كان يعرف المنصور والرشيد والمأمون ، ويزيدون عليهم بشعور ينبع من العقيدة والمذهب ، ويدفعهم إلى الاهتمام بهذه العلوم .

ذلك أن المذهب الذى ساد فى أغلب هذه الدول ، كان هو المذهب الشيعى والصلة وثيقة بين الفلسفة والتشيع منذ زمن قديم لأنه يأخذ من الفلسفة أسس بنائه وتنظيمه .

وقد ذكر الشهرستانى « أن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج » .

وكتب عبدالله بن الحسن القيروانى الزعيم الإسماعيلى إلى أحد دعاة المذهب يقول : « إذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به فعلى الفلاسفة معولنا » .

وعرض المقريزى لبيان مراحل الدعوة الفاطمية ، وذكر أن الدعاة يتدرجون بالمدعو فيها ، حتى إذا تمكن من التعاليم الأولى ، أحالوه على ما تقرر فى كتب الفلسفة من علم الطبيعيات ، وما بعد الطبيعة ، والعلم الإلهى وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية .

هذه منزلة الفلسفة من التشيع ، يبنى عليها المذهب ويعتمد عليها فى الدعوة وقد كانت الدولة الناشئة كلها شيعية ، إذا استثنينا الدولة الغزنوية ، ولذلك اشتد اهتمامهم بالعلوم الفلسفية ، ورعايتهم المتفلسفين .

( ا ) فالنقل من اللغات الأخرى عادت له سيرته الأولى ، وعاش المترجمون مرة أخرى فى كنف الدولة ، تجرى عليهم الأرزاق من بيوت المال ، كما كانت تجرى على أسلافهم أيام المأمون ، وكثر المشتغلون بالترجمة والنقل عن اللغات المختلفة .

ومن هؤلاء عيسى الرقى ، وهو واحد من أربعة وعشرين طبيباً كانوا فى خدمة سيف الدولة بن حمدان . وكان يجرى عليه من بيت المال أربعة أرزاق ، أحدهما بسبب الترجمة عن اللغة السريانية .

ومنهم نظيف القس ؛ وهو رومى الأصل ، واستخدمه عضد الدولة البويهى فى البيمارستان العضدى الذى أنشأه ببغداد ، وكان خبيرا باللغات ، وينقل من الرومية إلى العربية .

ومنهم أبو على بن زرعة ، وهو نصرانى حسن الترجمة ، صحيح النقل ، كثير الرجوع إلى الكتب ، كما يقول أبو حيان ،

ومنهم يحيى بن عدى ، وكان ينقل من السريانية إلى العربية ، وإن واسمه أبو حيان بأنه مشوه الترجمة ردىء العبارة .

(ب) والعناية بالكتب الفلسفية كانت عناية بالغة ؛ وحسبنا ما يذكر المؤرخون عن خزان الكتب فى القصور الفاطمية ، وأنها كانت تحوى ثمانية عشر ألف كتاب فى العلوم القديمة ، وهى تلك العلوم التى نقلت عن الأمم الأخرى ، وثمانية عشر ألف كتاب ليست بالقدر اليسير ، فى ذلك الزمن القديم .

(ج) والملوك والأمراء يحتضنون المتفلسفين ، وتزدان بهم محافلهم ، ففى رحاب سيف الدولة يعيش الفارابى ، ويستروح الحياة فى ظله وإن منعته أنفته وزهده أن ينال من عطائه أكثر من أربعة دراهم فى كل يوم ، يدبر منها نفقته وقوته . . .

ودار ابن سعدان وزير البويهيين يتخذها المتفلسفة مثابة ، ويعقدون بها مجالس يجتمع فيها أمثال أبى سليمان المنطقى ، وأبى حيان التوحيدى ، وأبى زكريا الصيمرى ، وابن زرعة ، والقومسى والنوشجانى .

ويحفل مجلس مأمون بن مأمون صاحب خوارزم بجماعة من أهل العلم والفلسفة منهم ابن سينا ، والبيرونى ، وأبو سهل المسيحى ، والعراقى ، وابن الخمار

ويسمع السلطان محمود الغزنوى بخبر هذه الجماعة فيكتب إلى مأمون ابن مأمون فى طلبهم ليشرفوا مجلسه ، ويستفيد منهم ، فيرحل إليه من أطاق الرحلة ، منهم البيرونى ، ويتخلف من استبعد الشقة ومنهم ابن سينا .

وعلى هذا الوضع كانت حال العلوم الفلسفية عند دول العصر البويهى ، يقبل عليها كثرتها الغالبة خدمة لمذهبها الشيعى ، ويجاريها فى هذا الإقبال غير المتشيعين رغبة فى تشجيع العلم لذاته ، أو أنفة من التقصير فى ميدان يتسابق

فيه المتسابقون ؛ . حتى إذا سيطر السلاجقة على العراق وما وراءها من دول الإسلام ، وخلف الأيوبيون من بعد الفاطميين على مصر والشام ، حاربوا التشيع ما وسعتهم الحرب فحوا تعاليمه ، وأتلفوا ماوصلت إليه أيديهم من كتبه ، وتضاءلت العناية بالعلوم الفلسفية ، وحرمت رعاية الدولة وأصحاب الدولة ، ولم يبق من البواعث على الاستغال بها إلا نزوع النفس إلى العلم للعلم ، وذلك قدر لايكاد يخلو منه زمان .

ولعل من تتمة هذا الحديث أن نشير إلى أمور :

( ا ) نشير إلى أن اشتغال المسلمين بهذه العلوم قبل ظهور الدولة الناشئة لم يكن بمستطيع أن يمكن منها النفوس تمكيناً يظهر معه الفيلسوف الناضج ذاك لأن الترجمة كانت ، تتعثر ، والفهم منها يتعسر ، ولم يستقم أمرها إلا بعد أن عنى بها المأمون ، ومنذ ذلك الوقت إلى مطالع العهد الذى ظهرت فيه الدول ، كان الزمان قد امتد ، وانبسط منه أمام العقول مايكفى لاستساغة هذه العلوم وهضمها ، ولذلك ، ظهر معه وفيه فلاسفة تتضح مشخصاتهم ، ويفقهون الفلسفة فقهها الدقيق أمثال الفارابى ، وابن سينا ، والبيرونى والرازى

(ب) ونشير كذلك إلى أن هذه العلوم بعد أن زال اضطهاد المشتغلين بها على عهد الأتراك المستبدين بأمر الدولة . وسعدت بعناية المقدرين لها من أصحاب الدول الناشئة ، رزقها الله رجالا عملوا على توسيع مجالها ، والخروج بها عن الحيز الضيق فى بيئتها الخاصة إلى دائرة تكون أفسح مدى، وتتسع لكل محاول ، ومن قبل ذلك ماصنعه إخوان الصفا . وهم جماعة ظهروا فى أواسط القرن الرابع الهجرى بالبصرة ، تآزروا على نشر البحوث الفلسفية بين الناس صادرين فى ذلك عن اعتقاد أنهم يخدمون الدين ، فقد رأوا ـ كما يقولون ـ أن الشريعة الإسلامية تدنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، وأن لا سبيل إلى تطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها تشمل الحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية وأنه متى انتظمت الفلسفة والشريعة فقد حصل الكمال .

وقد تدارسوا لذلك آراء اليونان من الفرس والهند، واستخلصوا من جميع ذلك رأياً عدلوه بما يقتضيه الإسلام فى رأيهم ونشروه على الناس فى خمسين رسالة، جمعت جميع أجزاء الفلسفة علمها وعملها، وتضمنت كثيراً من البحوث الإلهية، والطبيعة والرياضة، والعقلية، وسموها رسائل إخوان الصفا، وبثوها فى الوارقين، ووهبوها للناس، وكتموا فيها أسماءهم ولأن عرف منهم زيد بن رفاعة وأبو سليمان محمد بن معشر البستى المعروف بالمقدسى، وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى، وأبو أحمد المهرجانى، والعوفى، كما يقول أبو حيان،

(ج) ثم نشير إلى أن إقبال الناس على العلوم الفلسفية قد أخذ يشتد مع ظهور تباشير تلك الدول، فكسبت أنصاراً قووا جانبها، وجعلوا الاتجاه نحوها يضارع الاتجاه إلى العلوم الإسلامية — إن لم يكن زاد — وحسبنا أن نشير فى قوة هذا الاتجاه، إلى أنهم كانوا يتناظرون فى النحو والمنطق، أيهما ضرورة لا بد منه؟ وأيهما كمال يمكن الاستغناء عنه؟ وتعقد المناظرة فى ذلك ببغداد، بين أبى سعيد السيرافى النحوى. ويونس بن متى المنطقى، ويحضرها رسول من قبل الإخشيديين، وآخر من لدن السامانيين.

(د) وأمر آخر مما نشير إليه، وهو أن فلسفة الهند ومذاهبها وآراءها لم تنكشف للمسلمين تمام التكشف إلا فى هذا العهد، فلم تعد صلتهم بمعرفتها قاصرة على ما تقدمه الترجمة عن كتبها القديمة ـ وهو ما كان من قبل على ضيق حدوده — بل تجاوزت ذلك إلى الدراسة العميقة، التى تقوم وتعتمد على المخالطة والمشاهدة والبحث والتنقيب، وللبيرونى فى هذه الناحية فضل عظيم، فقد اتصل بالدولة الغزنويه على ما بيناه آنفا، والدولة الغزنوية هى التى فتحت للمسلمين أبواب الهند وقد أقام البيرونى هناك بسبب هذا الاتصال نحوا من أربعين سنة قضاها فى دراسة وافية للهند، وفلسفتها ودياناتها، وعلومها، وطبيعتها، وكل ما يتصل بها من أحوال. ومما خلفه فى

ذلك متضمنا دراساته كتاب « تاريخ الهند » وكتاب « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » سوى ما ورد فى كتبه الأخرى من تفاريق، وبعمله هذا زادت المعرفة بالهند وعلامها وفلسفتها زيادة لم تتهيأ لأسلاف هذا العصر.

( ه ) وأخيراً نشير إلى أن علوم اليونان كانت أوفر من غيرها حظا فى الترجمة والنقل، ومع ذلك لم يتجه المترجمون إلى نقل شىء من الأدب اليونانى وقد ذكر الباحثون لذلك أسباباً، منها أن حاجة المسلمين إلى العلوم الكونية والعقلية كانت أشد من حاجاتهم إلى الأدب، وإذا كان قد نقل إلى العربية شىء من أدب الأمم الأخرى غير اليونان، فقد نقله أوشجع على نقله رجال ينتسبون إلى هذه الأمم، ويتذوقون أدبها، ويحبون أن يحيوا آثرها وأمجادها واليونان لم يكن منهم من يعاشر المسلمين فيقوم بمثل ذلك العمل، ومنها أن الخيال فى الشعر اليونانى ليس مما يستسيغه العرب أو يتذوقونه، لأنهم من الجنس السامى، واليونان آريون وشتان ما بين الجنسين والخيالين والذوقين، ومنها أن الشعر اليونانى يمتلىء بالوثنيات، ويقوم على تعدد الآلهة، وذلك لاتتسع له عقيدة المسلم ولا يرضى أولياء الأمر عن إشاعته بين الناس.

والأمر فى نظرنا لا يعدو عجز المترجمين عن ترجمة الأدب والشعر، فما كان بينهم - فى رأينا - من يستطيع ترجمة الأساليب العالية، فذلك ما يحتاج إلى تمكن راسخ فى كل من اللسانين اللذين تدور بينهما الترجمة، وتمرس وبصر بأرقى الأساليب فيهما، وقدرة على استشفاف ماترمى إليه التراكيب ويستكن وراء العبارة وليس الأمر مجرد عرفان باللغات، وما يكفى فى الاضطلاع بالترجمة العلمية لا يؤهل لاقتحام ميدان الأدب والشعر، فقد يجزىء فى ترجمة العلم — وغالبا ما يكون ذلك — نقل معان من ألفاظ لغة إلى ما يقابلها من ألفاظ لغة أخرى، ومعاناة أساليب علمية دقيقة، محدودة ليس وراءها مرمى بعيد، ولا تشير ألفاظها إلى غير ما تحمل من المعانى.

ولعل المسلمين وقد كانوا فى ذلك الوقت ساميين ، وآريين ، وحاميين ومن كل جنس - لعلهم لو وجدوا من يترجم لهم من ذلك الأدب لاستساغوه وتذوقوه كما نستسيغ ونتذوق الآن ما يترجم لنا من آداب الأجناس الأخرى على اختلاف عصورها ودياناتها .

وما كان عليهم فى الدين من حرج ، وما منعهم تدينهم أن يتدارسوا أديان الجاهلية ، وآلهتها ، وأصنامها ، ووثنيتها التى لا تقل فى خطرها عن الوثنية اليونانية ، ولا حال بينهم وبين تعمق المذاهب الفلسفية المختلفة ، وقد يكون فى بعضها ما هو أخطر على الدين من أدب اليونان .

— ٦ —

## تأثر الأدب بهذه النهضة وباتجاهاتها :

وهذا الذى اقتضبنا حديثه من نضج العلم وقوته ، وازدياد الرغبات فى العلوم الفلسفية ، واتساع دائرتها عن ذى قبل ، ويسر تناولها على كثير من الناس ، كل ذلك كانت له آثاره الواضحة فى الأدب .

١ — فقد تكاملت العلوم فى هذا العهد ، على النحو الذى أشرنا إليه من قبل ومن كمالها أن استوفى كل فن منها مصطلحاته ، وتوضحت دقائقه ، وأدباء تلك الأيام - كما نحب أن يكون كل أديب يقدر رسالته - كانوا فى الطليعة من المثقفين ، فلم يتوقفوا فى ثقافته عن حدود ضيقة ، وإنما وسعوا آفاقهم ، وضربوا فى كل ناحية بسهم ، وأخذوا من كل فن بنصيب. بل إن منهم من كانت ترسخ قدمه فى بعض العلوم ، رسوخا ينظمه فى سلك الإخصائيين وبذلك صارت المسائل العلميه من متناولهم على طرف الثمام ، يستمدون منها ما يشاءون ، ويجعلونها مصدراً من مصادر المعانى ، وحينئذ تقتضى الدقة فى أداء هذه المعانى المستمدة من مختلف العلوم ، أن يعبر عنها بالألفاظ التى وضعها أصحابها للدلالة عليها ، ومن هنا تسربت المصطلحات العلمية إلى لغة الأدب ، وفشت فشواً ظاهراً فى أساليب الكتاب والشعراء .

وقد يكون استمداد الأدباء لهذه المعانى العلمية راجعاً إلى أنها تجزىء فى مواطنها مالا يجزئه غيرها وقد يكون للتظرف والتملح، وقد يرجع إلى ضيق الأفق وقصور الخيال، إذ دفع إلى مضايق الأدب من يعانيه من العلماء ولكنه على أى حال أدخل على العبارة الأدبية لوناً إن استساغة بعض الأفهام فقد يتأباه بعضها الآخر، ويجد فيه عسراً أو مشقة، لأن هذه المصطلحات كانت تزداد مع الأيام، وتدق فى إفادة معانيها، حتى تعسرت لغة كل علم على غير أهله، وأصبحت معرفة المعانى اللغوية لهذه المصطلحات لا قيمة لها فى فهم أساليبها، مما اضطر العلماء إلى وضع الكتب الموضحة، والمعاجم الكاشفة عن معانيها، مثل التعريفات للجرجانى وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى وكليات أبى البقاء:

٢ — وفى هذا العهد فتق التفلسف الأذهان، وفتح للنثر مسالك وأبوابا جديدة، فتناول الكتاب مشاكل المجتمع، وضمنوا كتبهم مباحث فلسفية مستنيرة فى الأخلاق الاجتماعية، والسياسية المدنية وتدبير الملك، وغير ذلك من شئون العمران.

٣ — وفيه كذلك تفلسف بعض الشعراء، ولم يعدم الشعر من يصطنعه من المتفلسفين، فطرق هؤلاء وأولئك طريق الفلسفة إلى الشعر، فبدت ولها فيه مظهران:

أحدهما: لا تكون فيه أساسا للشعر، ولا غرضا تنشأ القصيدة له، وإنما تكون الفلسفة من الشعر، كالتطريز من الثوب، والحلى على الحسناء، فتنتثر على مواطن من شعر الشاعر، يشد بها أزر معانيه، ويتوصل منها إلى قوة التأثير، وغالبا ما تتصل بجانب الطبائع والأخلاق، كالذى نراه عند المتنبى ومن ترسم خطاه حيث يستمد من الفلسفة الخلقية حكمه الكثيرة، ويوشى بها قصائده، إرضاء لكبريائه النفسى، أو إشباعا لغرور ممدوحيه أو إيلاما وقتلا لمن يهجوه أو ما أشبه ذلك من الدوافع والأغراض.

ولهذا الضرب سوابق فى أشعار السابقين ، فليس إذا بالجديد ، وإنما الجديد فيه أن شعراء هذا العهد كانوا أكثر من أسلافهم تأثراً بالفلسفة ، وأوسع منهم إطلاعا على بحوثها ، وأنضج إدراكا لحقائقها ، فامتاز نتاجهم منه بالغزارة والنضج .

والآخر : كان جديداً كل الجدة فى هذا العصر ، وهو الشعر الفلسفى ، فيه تكون الحقائق الفلسفية أساس الشعر وعماده وغرضاً مقصوداً لذاته ، فلا يتخذها الشاعر سناداً لمعانيه وأغراضه الأخرى ؛ وإنما يتخذ الشعر سبيلا لتقريرها وشرحها ، ولا يقتصر على جانب من جوانب الفلسفة ، بل يدخل عليها من كل باب ، فيخوض فى المباحث الإلهية ، والأخلاقية والطبيعة ، والرياضية ، ويستنزلها من آطامها المستعصية ، وأبراجها المستعلية ؛ وأساليبها المستوعرة حيث تسهلها لغة الشعر وتجعلها قريبة المنال .

ولشعراء الفلاسفة قصائد ومقطعات من هذا النوع كالتى تروى لابن سينا والرازى ، وابن التلميذ الطبيب ، ولكن أبا العلاء المعرى ، وهو من متفلسفى الشعراء ، قد خلف فيه ديوانا كاملا . هى اللزوميات « ضمنه خواطر سنحت له فى عزلته أكثر من أربعين عاما ، وأودعه ما ارتضاه لنفسه من آراء الفلاسفه المختلفين ، فى الإلهيات ، والنبوات والمعجزات ، والأديان ، والوجود والزمان ، والمكان والمادة والصورة ، والروح والجسد ؛ والقدم والخلود ، والحدوث والفناء ، والأفلاك والنجوم والطبائع ، والأخلاق ، وما ينبغى أن ينهجه الإنسان فى الحياة على حسب مايرى أبو العلاء .

وفى مثل هذا الشعر ترجح كفة الحقائق ، وتشيل كفة الخيال ، فيفقد شطراً كبيراً من الروعة والرونق ، ويبدوا عليه النضوب والجفاف .

٤ — وسنعرف من حديث النقد الأدبى بعد قليل مقدار تأثره بهذه النهضة العلمية واتجاهها الفلسفى :

— ٧ —

## أمثلة لاستمداد المعانى العلمية للأدب

### واستخدام مصطلحات العلوم فيه

(١) فى نثر هذه العصور آثار كثيرة من هذا النوع ، وبخاصة نثر العلماء وهذه رسالة لأبى العلاء المعرى ، تضمنت من المصطلحات ما لا يخرج عن دائرة العلوم اللغوية ، ولعلك منها فى المستوى العالى فاقرأها ، واتخذها مقاييسه فى فهمها قياساً لأمثالك ، وأكبر الظن أنك راحم لمن كانوا دون مستواك .

وخذ من أبى العلاء :

«حرس الله سيدنا حتى تدغم الطاء فى الهاء ، فتلك حراسة بغير انتهاء ، وذلك أن هذين ضدان ، وعلى التضاد متباعدان ، رخو وشديد ، وهاو وذى تصعيد وهما فى الجهر والهمس بمنزلة غد وأمس .

وجعل الله رتبته التى كالفاعل والمبتدأ ، نظير الفعل فانه لا ينخفض أبدا ، فقد جعلنى إن حضرت عرف شأنى وإن غبت لا يجهل مكانى ، كيا فى النداء ، والمحذوف من الابتداء ، إن قلت زيد أقبل ، والإبل الإبل ، بعد ما كنت كهاء الوقف ، إن ألقيت فبواجب ، وإن ذكرت فغير لازب .

وأخفف عن سيدنا الرئيس الحبر ، تخفيف المدنى ماقدر عليه من النبر ، إن كاتبت فلا ملتمس جواب ، وإن أسهبت فى الشكر فلا طالب ثواب .

حسبى مالدى من أياديه ، وماغمر من فضل السيد الأكبر أبيـــه ، أدام الله لهما القدرة مادام الضرب الأول من الطويل صحيحاً ، والمنسرح خفيفاً سريعاً ، وقبض الله يمين عدوهما عن كل معن ، قبض العروض من أول وزن» .

(ب) وفى الشعر من هذا الضرب أشكال وألوان .

فمن معانى النحو ومصطلحاته قول أبى الفتح البستى :

عزلت ولم أذنب ، ولم أك جانيا  وهذا لإنصاف الوزير خلاف
حذفت ، وغيرى مثبت فى مكانه  كأنى نون الجمع حين يضاف

وقوله :

أدرجت فى أثناء نسيانكم  حتى كأنى ألف الوصل

ومن الفقه قول البهاء زهير :

أهوى التذلل فى الغرام وإنما  يأبى صلاح الدين أن أتذللا
مهدت بالغزل الرقيق لمدحه  وأردت قبل الفرض أن اتنفلا

ومن الفلسفة قول أبى الحسن بن أبى الغنائم :

تعس الزمان فللغرام قضية  ليست على نهج الحجا تنقاد
منها بقاء الشوق وهو بزعمهم  عرض وتفنى دونه الأجساد

ومن الهندسة قول أحمد بن يوسف المصرى :

ولى غلام طال فى دقة  كخط إقليدس لاعرض له
وقد تناهى عقله خفة  فصار كالنقطة لا جزء له

ومن الطب قول البستى :

إن الجهول تضرنى أخلاقه  ضرر السعال بمن به استسقاء

وقوله :

فلا تكن عجلا بالأمر تطلبه  فليس يحمد بعد النضج بحران

ومن الفلك والنجوم قوله أيضاً :

قد غض من أملى أنى أرى عملى  أقوى من المشترى فى أول الحمل
وأننى زاحل عما أحاوله  كأننى أستمد الحظ من زحل

جـ ـ من الشعر الفلسفى :

( ١ ) يقول ابن سينا فى النفس

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما كرهت فراقك وهى ذات تفجع
أنفت وما سكنت، فلما واصلت ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهوداً بالحمى ومنازلا بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها عن ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت بين المعالم والطلول الخضع
فلأى شىء أهبطت من شاهق عال إلى قعر الحضيض الأوضع ؟!
إن كان أهبطها الإله لحكمة طويت على الفذ اللبيب الأروع
وهبوطها إن كان ضربة لازب لتكون سامعة بما لم تسمع
وتعود عالمـــة بكل خفية فى العالمين نخرقها لم يرفع
وهى التى قطع الزمان طريقها حتى لقد غربت بغير المطلع
فكأنها برق تألق بالحمى ثم انطوى ، فكأنه لم يلمع
أنعم برد جواب ما أنا فاحص عنه فنار العـــلم ذات تشعشع

فى القسم الأول يذكر أن النفس علوية ،محجوبة فى حقيقتها، سافرة فى آثارها، تتصل بالجسد على كره ، وتفارقه على كره، وبين الاتصال والافتراق تنسى أصلها السامى وتذكره ، فإذا ذكرته جاذبها الشوق إليه ، فتعوقها كثافة الجسم ، ولا تزال مع الجسد فى نزاع حتى تتخلص من سجنه ، وتعود إلى عالمها الرحيب

وفى القسم الثانى يتساءل : لأى شىء تعلقت بالبدن ؟ إن كان لتحصيل الكمال فلم يفارق أكثر النفوس أبدانها ، وينقطع تعلقها بها دون أن تحصل شيئاً من هذا الكمال المنشود ؟

أما إن كان اتصالها بالجسم لشىء آخر غير تحصيل الكمال ، فهى حكمة خفية عن الأذهان ، وذلك ، وذلك ما يدق عن الفهم ، ويحوج إلى تكرار السؤال

(٢) لزوميات المعرى :

ولزوميات أبى العلاء معرض بجميع آرائه فى الإله والعالم ، والإنسان وأصله ، ومصيره وطباعه ، وفيها كذلك دراسته للحياة ، والمنهج الذى ارتضاه منها لنفسه ، ورغب فيه الناس ،

وما اتصل من مقطوعات اللزوميات بالإلهيات والأديان والسمعيات يلتبس بشىء من الغموض والدقة ، فيتخيل فيها بعض الناس تضاربا مبعثه الشك ، ويتحكم بعضها بترجيح جانب من جانبين يبدوان فى الظاهر متضاربين ، ولعلهما لو رزقا تأنيا وروية ، لوجدا متكاملين متآلفين على تكوين رأى لا يبعد أن يكون فيه النجاة من الحيرة ، والخلوص من غمة الغموض والإبهام .

وندع أمثال هذه المحرجات الآن ، ونتمثل بغيرها مما يصور لنا تفلسفه فى شعره ، ولا يريبنا فى عقيدته

فهو يرى الشر أطغى من أن يقاوم ، ومنبعه من فساد النفوس فسادا جبلت عليه . ولا اختيار لها فيه :

حوتنا شرور لا صلاح لمثلها ... فإن شذ منا صالح فهو نادر
وما فسدت أخلاقنا باختيارنا ... ولكن بأمر سببته المقادر
إذا اعتلت الأفعال جاءت عليلة ... كحالتها أسماؤها والمصادر
وفى الأصل غدر والفروع توابع ... وكيف وفاء النجل والأب غادر
فقل للغراب الجون إن كان سامعا ... أأنت على تغيير لونك قادر ؟

والذين يرتجون إماما يظهر ليقيم العدل وينفى الجور واهمون ، إذ لا إمام سوى العقل ، ولكنهم واقعون فى حبالة مما ينصبه الرؤساء لاجتذاب الدنيا :

يرتجى الناس أن يقوم إمام ... ناطق فى الكتيبة الخرساء
كذب الظن ، لا إمام سوى العقـ ... ـل مشيرا فى صبحه والمساء

فإذا ما أطعته جلب الرحـ ـمة عند المسير والإرساء
إنما هـــذه المذاهب أسباب لجذب الدنيا إلى الرؤساء
كالذى قام يجمع الزنج بالبصـ ـرة والقرمطى بالأحساء

(٣) من حكمة الفارابى :

وبعد فما انفرد أبو العلاء بحسن ما حوله من تطاحن الناس وتعاركهم على متاع الدنيا ، ولا توحد بالعزوف عن ملاذها وزخارفها ، ومحاولة صد المتناحرين عليها عنها ، بل كان يشاركه فى ذلك كل مؤتم بعقله متحرر من هواه وشهواته ، ولقد كان سيف الدولة يشرع أبواب خزائنه للفارابى ، فيكتفى منها بأربعة دراهم لليوم ويقول :

أخى خل حـــيز ذى باطل وكن للحقيقة فى حـيز
فما الدار دار مقام لنا وما المرء فى الأرض بالمعجز
ينافس هذا لهـــذا على أقــل من الكلم الموجز
محيط السموات أولى بنا فماذا التنافس فى مركز ؟ !

# حياة اللغة فى العصر العباسى الثانى

## حالة اللغة فى العصر العباسى الثانى :

منذ اتجه العرب إلى الفتح ولغتهم تشاركهم الغزو ، وتنتقل معهم إلى كل بلد يفتحون ، لأنها صارت لغة العبادة والدين ، ولسان الطبقة الحاكمة من أهل الدولة والسلطان .

غير أن درجات انتشارها فى الأقاليم المفتوحة ، كانت تختلف فى القوة والضعف ، تبعاً لكثرة النازلين بها من العرب أو قلتهم ، وكثرة هؤلاء أو قلتهم ، كانت تتناسب تناسباً عكسياً مع قرب الإقليم أو بعده من جزيرة العرب ، ومع تبكير فتحه أو تأخره عن فتح الإسلام .

فالأقطار البعيدة النائية ، والجهات التى تريث بها الفتح ، لم يشتد اتجاه العرب إليها بالرحلة والاستيطان ، ولم يقم بها منهم إقامة دائمة إلا القلائل الذين تناط بهم شئون الحكم والإدارة ، وهم الوالى ، وأعوانه وحاميته ، كما كانت الحال فى بلاد السند ، والترك ، والكرج ، والديلم ، وأرمينية ، وخراسان .

وفى مثل هذه البلاد لم تستطع العربية أن تزاحم لغاتها الوطنية مزاحمة قوية ، فاقتصرت على أن تكون لغة الدين ، ولسان التفاهم بين جهاز الإدارة فى الولاية وأصحاب السلطان فى دار الخلافة ، وأداء التخاطب بين رجال الحكم من العرب والمتعربين ، وتركت وراء ذلك مجالا فسيحاً للغات القومية ، يتفاهم بها الوطنيون الأصلاء فى معاملتهم اليومية ، وفى كل ما يحتاجون إليه من شئون الحياة والمؤرخون يذكرون أن الرشيد كان يصطحب التراجمة إذا خرج لتفقد أحوال الرعية فى خراسان وماوراءها ، لأن اللسان العربى كان لا يعرف هناك .

أما الأقطار القريبة من مواطن العرب الأولى ، والتى بادر بها الفتح ، كالعراق ، والشام ، ومصر ، فقد كثر النازحون إليها من العرب ، وطابت

لهم الإقامة فيها ، واستطاعوا لكثرتهم ، ولما لهم من جاه ناشر الدين وصاحب السلطان ، أن يمكنوا للغتهم فى تلك البلاد فحلت محل لغاتها القديمة ، وجرت سليمة على ألسنة أصحابها من العرب ، وعلى ألسنة من تشبهوا بهم من الأعاجم الذين تعربوا لأسباب تتصل بالدنيا أو الدين .

وبقى بعد هؤلاء سواد الناس وجماهيرهم من الأكرة والصناع ، الذين لا تسمو بهم همتهم إلى مساماة الغزاة فى لسانهم ، ولا تمكنهم مجهدة الحياة من تجويد لغة جديدة ، فى أساليبها مالم يألفوه فى لغاتهم الأولى ، أما هؤلاء الجماهير فما نظن أن العربية سلمت فى أفواههم يوما ما . وكل ما يعين عليه الاستنتاج ، أن ألسنتهم دارت بها من أول الأمر ملحونة محرفة مدخولة الأساليب ، وأنها ظلت تتعثر فى صور مختلفة من اللحن والتحريف والركاكة ، إلى أن استقرت على صورة ثابتة للألفاظ والتراكيب والتحلل التام من قيود الإعراب . وصارت إلى ما تواضع العلماء على تسميته اللغة العامية .

وهؤلاء الذين كانوا يصححون العربية فى لغة الخطاب لم يطل بهم الزمان ، فالقلة التى كانت بالأطراف والبلاد المستعجمة ، تضاءلت وانكمشت كثرتها تحت ضغط السياسة العباسية التى تفضل العجم على العرب ، ومن بقى منهم اندمج فى سكان البلاد ، وشاركهم فى اللغة واللسان .

أما أمثالهم من الخاصة الذين اصطنعوا العربية فى حديثهم العام والخاص ، والذين كانوا كثرة فى العراق والشام ومصر ، فلم يلبثوا أن التاثت ملكاتهم والتوت بها ألسنتهم ، وجرفهم سيل العامية الجارف ، فتابعوا الدهماء عليها ، واتخذوها أداة خطاب وتعامل ، ولكنهم حافظوا عليها ، وأبقوا لها سلطانها فى لغة الديوان . والعلم ، والأدب ، وكان ذلك قبل العهد البويهى بزمن غير قصير .

## نتائج انقسام الملك العباسى فى اللغة :

جاء انقسام الملك العباسى إلى أقسام ، وتعددت على وجه الرقعة

الإسلامية الدول ، والمجال ضيق أمام العربية الفصيحة ، فأى أثر كان لهذا الانقسام فى اللغة ؟ .

١ — إن هذا الانقسام لم ينتقص العربية شيئاً من القدر الذى وجدها عليه فقد حفظ لها البقاء فى نطاقها الذى وقفت عنده ، فبقيت كما كانت لسان العمل الحكومى فى الدواوين ولغة الدرس والتأليف فى العلم ، وميدان التنافس والتسابق فى الأدب .

بل لقد عمل هذا الانقسام على انتشار الفصحى أكثر من ذى قبل ، حيث انفتح لنشاطها آفاق جديدة ، واتجهت إليها الرعاية والمنافسة فى تلك الدواوين التى نشأت ، وتلك المراكز العلمية ، والندوات الأدبية التى تعددت وضارعت أو فاقت بغداد .

٢ — غير أن هذا الانقسام قد عرض لغة العلم والأدب فى مواطنها الجديد لهجات من الأعجمى والعامى ؛ وأكثر ما يظهر ذلك فى شعر الظرف والمجون ، وشعر المناسبات الطارئة فى مجالس اللهو ، حيث يدفع الشعراء إلى الارتجال ، ويعجلون عن التصفية والتمحيص .

وكذلك فى لغة المؤلفين الذين صرفهم تخصصهم فى غير العلوم اللسانية عن مراعاة معايير اللغة ومقاييسها ، ولذلك تعقب النقاد واللغويون أولئك وهؤلاء ، وألفوا الكتب لتصحيح مايقعون فيه من أخطاء .

فالحريرى المتوفى سنة ٥١٦ هـ يؤلف «درة الغواص فى أوهام الخواص» والجواليقى المتوفى سنة ٥٣٩ هـ يخرج كتاب «التكملة» ويجعله كالذيل لكتاب الحريرى .

وابن برى المتوفى سنة ٥٨٢ هـ يضع كتاب «أغلاط الضعفاء من أهل الفقه من أقطار مختلفة ، إلى غير ذلك مما أخرجه العلماء مثل هذا الموضوع .

٣ — على أن بعض هذه البقاع الجديدة التى انفتحت أمام الفصحى ، ولم تدم لها طويلا ، وانقسام الدولة الذى أغراها هذه البلاد ، كانت له يد فى

ضياعها منها . وبخاصة تلك الأقطار النائية ، التى لم تتمكن العربيه من لسان أهلها ، ولم تغلبهم على لغاتهم الأصلية ، فقد تعرضت هناك لمنافس خطير ، لم يلبث أن صرعها بطول الأيام .

ذلك لأن الذين غلبوا على تلك الأصقاع : كانوا يرجعون فى النسب إلى أصول فارسية أو تركية ، وكانت صلتهم بالعربية ضعيفة أو مقطوعة ، فحملهم جهلهم باللسان العربى أو عراقتهم فيه ، وبالاتهم لأهل البلاد فى الشعور القومى ، حملهم ذلك كله أو بعضه على إحياء اللغات القومية وإنعاشها ؛ فأدى ذلك مع طول الزمن إلى حلولها محل اللغة العربية فى ميادينها العلمية والأدبية والديوانية .

وكانت بوادر ذلك ونذره منذ أول العهد بتلك الدول الناشئة ، فقد أخذ بعض ملوكها الموغلين فى أعجميتهم يشجعون على نقل العلم من كتبه العربية إلى الفارسية ، كالذى صنعه منصور بن نوح السامانى ( ٣٥٠-٣٦٦هـ) حين كلف وزيره البلعمى بترجمة تاريخ الطبرى إلى اللسان الفارسى .

وأنعشوا الآداب الفارسية بمختلف الوسائل ، فكثرت فى بلاد الغزنويين والسامانيين مدائح الشعر الفارسى إلى جانب المدائح العربية ، وحملوا الشعراء على وضع الملاحم الفارسية ، فيوجه نوح بن منصور ( ٣٦٦ - ٣٨٧ هـ ) شاعره الدقيقى إلى نظم الشهنامة ، ويقتل الدقيقى قبل فراغه منها ، فيكلف السلطان محمود الغزنوى ( ٣٨٨ - ٤٢١ هـ ) شاعره الفردوسى بإتمامها .

ويحاول بعضهم إحلال الفارسية محل العربية فى عمل الديوان ، والعتبى يذكر أن أحد وزراء السلطان محمود فى غزنة : كان قليل البضاعة فى الصناعة فانتقلت المخاطبات الرسمية مدة أيامه من العربية إلى الفارسية ، حتى كسدت سوق البيان ، وبارت بضاعة الإجادة والإحسان ، إلى أن وزر بعده أبو القاسم أحمد بن حسن الميمندى ، فرفع ألوية الكتاب ، وعمر أفنية

الأداب ، وأمر بتحاشي الفارسية إلا عن ضرورة ، من جهل من يكتب إليه ، وعجزه عن فهم مايتعرب عليه ، كما يقول العتبي .

وما أقل من كان يفهم العربية آنذاك هناك ، فقد صارت الحال على ما يصفها بها المتنبي ، وهو العجمة الشاملة التي صادقته في طريقه إلى عضد الدولة البويهي ببلاد فارس ، وسجلها في قوله :

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها غريب الفكر ، واليد ، واللسان

وهذه النذر التي لاحت على عهد البويهيين ، في المنافسة بين العربية والفارسية ، أخذت تتجمع وتتكاثر حتى بلغت شدتها في زمن السلجوقيين فقد استمدوا نظمهم من نظم السامانيين ، وتشبهوا بهم في كل أمورهم ، ومنها العناية بالفارسية ، فاتخذوها لغة للقصور ، والسياسة والأدب ، وألف لهم بها الكتب ومنها كتاب « سياسة نامه » الذي ألفه الوزير نظام الملك للسلطان ملك شاه ، وكتاب « التبر المسبوك » ومؤلفه الإمام الغزالي للسلطان محمود ، الذي خلف على دولة ملك شاه .

وبذلك لم يبق للعربية من سلطان في البلاد التي هاجرت إليها ، إلا ذلك الذي تمكنت منه ، وحافظت عليه إلى الآن في مصر والعراق والشام ، وإذا كانت قد بقي فيها ذماء فيما وراء ذلك من أقطار ، فقد ضاع كما ضاع ملك السلجوقيين بغارة التتار ، وسبحان من له الدوام .

حالة اللغة في الجزيرة العربية :

هذا حديث اللغة في المواطن الذي نزحت إليها خارج الجزيرة ، أما حديثها في موطنها الأصيل وهو البوادي ، فقد كانت طوال أيام الأمويين معهد الفصاحة ولذلك كانوا يرسلون إليها أبناءهم ، يبتغون لهم تكوين الملكات وسلامة اللسان وبقيت كذلك مدة طويلة من عهد العباسيين ، فكانت مستمد

الرواة واللغويين والنحاة، وموئلهم في جميع أخبار العرب وأدبها، وتحصيل شوارد اللغة ومفرداتها واستنباط قواعدها وأحكامها، ينتقلون إلى الإعراب في مضاربهم، أو ينتقل الإعراب إليهم في حواضرهم، إلى أواخر القرن الرابع الهجري، حيث السلامة غالبة، فجمع منهم شوارد اللغة، الأزهري أبو منصور محمد بن أحمد بن أبي الأزهر المتوفى سنة ٣٧٠ ه‍، وضمنها كتبه، وأخصها كتاب «التهذيب» الذي يعتبر من أهم مراجع بن منظور في كتابة «لسان العرب». وأخذ عنهم أبو الفتح عثمان بن جني المتوفى سنة ٣٩٢ ه‍ ما وعته كتبه النحوية، وإسماعيل بن حماد الجوهري المتوفى سنة ٣٩٨ ه‍ مواد كتابه تاج اللغة وصحاح العربية، فقد ارتحل إلى الحجاز، وطوف في بلاد ربيعة ومضر، يأخذ اللغة عن أهلها بالمشافهة والسماع قبل أن يخرج كتابه للناس.

وقد تحدث عن الجزيرة العربية المقدسي صاحب كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» وهو من رحالة القرن الرابع، ووصف الجزيرة، كما وصف غيرها عن عيان ومشاهدة، فقال عن لغتها: «أهل هذا الإقليم، لغتهم العربية، إلا بصحار، فإن نداءهم وكلامهم بالفارسية، وأكثر أهل عدن وجدة فرس، إلا أن اللسان عربي، وأهل عدن يقولون لرجليه ويديه: رجلينه ويدينه، وقس عليه... وجميع لغات العرب موجودة بوادى هذه الجزيرة، إلا أن أصح لغة بها لغة هذيل، ثم النجدين، ثم بقية الحجاز. إلا الأحقاف. فإن لسانهم وحش».

ولولا ما منيت به البوادى العربيه من فتن متلاحقة، لكانت خليقة أن تحفظ على اللغة صفاءها وخلوصها من شوائب العجمة. ولكن المحن تواترت عليها في ثورات كثيرة متنوعة. تحدث من العلويين الذين كانوا يخرجون على الدولة من حين لحين، ويؤلبون عليها من ينتصر لهم في استخلاص حقهم المسلوب فيما يعتقدون: كخروج النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بالمدينة على المنصور، وخروج الحسين بن علي

ابن الحسن بن الحسن بن على إلى أن أوقعت به جيوش الهادى ، وقتلته فى « فخ » بين مكة والمدينة ، وكثورة إسماعيل بن يوسف العلوى ، وتغلبه على مكة والمدينة وجدة أيام المستعين .

أو تحدث من بعض القبائل العربية المقيمة فى الجزيرة كالذى كان من بنى هلال وسليم وبنى كلاب وفزارة ، مما دعا الواثق أن يرسل إليهم جيشاً جراراً بقيادة بغا الكبير ، أقام فى الجزيرة سنتين حتى أخمد الثورة .

أو تكون من بعض الأعاجم الذين يقصدون إليها استعداداً لنشر مذهب اجتماعى ، أو تهيؤا للخروج والعصيان ، مثل ثورة الزط وهم من الهنود ، نشروا الرعب فى بادية البصرة ، منذ فتنة الأمين والمأمون ، إلى أن جرد لهم المعتصم جيشاً قضى عليهم ، وأسر منهم سبعة وعشرين ألفاً ؛ ومثل فتنة الزنج ، الذين أثارهم بالبحرين رجل من الفرس ، دعاهم إلى التحرر من الرق ، ومناهم تملك سادتهم ، وتوجه بهم إلى البصرة وشواطىء الفرات وهدد بغداد واستمرت هذه الفتنة نحو عشرين عاما انتهت بتغلب الدولة عليها سنة ٢٧٠ ، ومثل ثورة القرامطة فى سواد الكوفة ، بقيادة رجل خوزى قام بالدعوة لآل البيت ، فقطع طريق الحج ، وأغار على مكة ، ونزع الحجر الأسود ، ونقله إلى الأحساء ، وظل فى عبثه طول الثلث الأخير من القرن الثالث الهجرى .

وكل هذه الثورات بما فيها من أخلاط الأعاجم ، كانت تقتضى للدولة أن تجرد الجيوش لإخمادها والقضاء عليها ، وأكثر جند الخلافة كانوا من الأعاجم أيضا ، بل لعلهم لم يبق بينهم من العرب أحد حين احتدام هذه الثورات فى القرن الثالث ، فكان الموالى من ثوار وجند يجوسون خلال البوادى ، ويخالطون العرب منذ حلولهم إلى أن يتمكنوا من غايتهم فى إعادة الأمن إلى نصابه وإرجاع العاصى إلى لزوم الطاعة أو القضاء عليه .

وانضم إلى ذلك أمر آخر ، وهو انطلاق الألوف كل عام ، من مختلف الأقطار الإسلامية ، إلى مكة والمدينة ، حاجين وزائرين ، ومن الناس من كان

يحج في عام ويزور في آخر ، ومنهم من كان ينقطع لمجاورة بيت الله أو قبر الرسول والعرب تتخذ من الحج موسما للتجارة منذ قديم فكانوا يحضرونه مبكرين ولا يبرحونه إلا حيث ينتهى الحجيج ، بعد أن يخالطوهم ويعاملوهم مدة طويلة من العام ، وبذلك تسرب الوهن إلى السلائق التي كانت مستعصمة بالبوادى ، وانتقل اللحن إلى ألسنة الأعراب ، وتدرج بهم إلى أن صارت لغتهم عامية ، كما صارت لغة الخطاب في كل الأقطار .

« إلا أن بعض المواطن لحصانة موقعه وبعده ، ولعادات أهله في معاملة الغريب ظل بمنأى عن هذا الفساد . فيقول ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ في كتابه « معجم البلدان » جبلا عكاد فوق مدينة الزرائب ، وأهلهما باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم ، لم تتغير لغتهم ، بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة في مناكحهم ، وهم أهل قرار ، لا يظعنون عنه ، ولا يخرجون منه ، ويقول الفيروزابادى المتوفى سنة ٨١٧ هـ في مادة ( ع ك د ) من معجم القاموس المحيط : « وكسحاب جبل قرب زبيد ، أهله باقية على اللغة الفصيحة ويزيد على ذلك مرتضى الزبيدى المتوفى في سنة ١٢٠٥ هـ في شرح القاموس قوله « إلى الآن ، ولا يقيم الغريب عندهم أكثر من ثلاث ليال ، خوفا على ألسنتهم ، ولا ندرى كيف حال اللغة بهذا الموطن الآن » ، وقد تجرم على قول الزبيدى أكثر من قرن ونصف قرن من الزمان .

# حظ الأدب فى العصر العباسى الثانى

الأدب ـ والشعر أسمى فنونه ـ محتاج فى تذوقه إلى ملكة راسخة فى بلاغته، وتمرس بأساليبه العالية، وذوق مصقول قادر على إدراك مراميه، وما لم يوجد ذلك، فلا تقدير له، ولا مكافأة عليه، وإن وجد فهناك العطاء الوافر، والجزاء الحافز، ومن ثم تكون الرغبة فى اصطناعه، والإقبال على تجويده ولا تسقط الطير إلا حيث ينتثر الحب ولا تغرد البلابل إلا فى الروض المزهر، وقديما قال بعض الشعراء فى سر نبوغ المتنبى :

لئن جاد شعر ابن الحسين فإنما لأجل العطايا، واللها تفتح اللها

وإذن فالحديث عن حال الأدب والأدباء فى تلك الأزمان، لا ينساق على وتيرة واحدة، ولذلك نخص كل واحد من العهدين بحديث.

## حظ الأدب والأدباء فى العهد البويهى :

ففى عهد البويهيين سعد الأدب بعهد خصيب، وفر له أسباب النهوض فأزهر وأثمر، وآتى أكله ضعفين فى رحاب القصور، وبخاصة قصور البويهيين، والحمدانيين، والفاطميين، ثم الأيوبيين.

١ — والبويهيون فرس، ولكنهم متعربون هم إلى العربية أقرب، وأكسبتهم ثقافتهم العربية الواسعة ذوقا عربياً، يستروح لمجالس الأدب، وسماع الشعر، كان لبعضهم مشاركة فيه، وفى يتيمة الدهر أشعار لبعضهم، مثل عضد الدولة، وأبيه تاج الدولة بن معز الدولة،

لذلك قربوا الشعراء، وأجزلوا لهم العطاء، فتقاطر إليهم الفحول، وكثر الشعراء ببغداد والرى وأصبهان وشيراز، حيث يقيمون هم، أو يقيم وزراؤهم.

وساروا فى اختيار من يولونهم الأعمال سنة حميدة، كان لها أجل الأثر

فى إحياء الأدب وإنهاضه، تلك أنهم كانوا لا يستوزرون، ولا يستكتبون، ولا يستقضون إلا فحول الأدباء، ولذلك كان أبرع كتاب هـذا العهد وأئمتهم فى دواوين البويهيين، ومنهم ابن العميد والصاحب بن عباد، وعبد العزيز بن يوسف، والوزير المهلبى وأبو إسحاق الصابى، وسابور ابن أردشير، وابن سعدان، والقاضى الجرجانى، والقاضى التنوخى، وغيرهم من الأفذاذ والأعلام.

وجرى وزراؤهم على سنتهم فى اصطناع أهل الأدب واجتذابهم، والإغداق عليهم، حتى صارت قصورهم ومجالسهم منتديات أدبية، يغشاها أفاضل العصر، وأعلام الشعر والنثر، ولذلك صور رائعة فى أخبارهم، وبخاصة أخبار الوزيرين ابن العميد، وابن عباد وفى هذا الأخير يقول الثعالبى فى اليتيمة: «احتف به من نجوم الأرض، وأفراد العصر، وأبناء الفضل، وفرسان الشعر، من يربى عددهم على شعراء الرشيد، ولا يقصرون عنهم فى الأخذ برقاب القوافى، وملك رق المعانى».

فإذا كان هذا شأن الآداب عند البويهيين، وهم من أصل فارسى، وذوقهم العربى، وحبهم للعربية، مكتسبان بالثقافة والتربية، فكيف تكون حاله عنـد من ضم إلى صفات المربى والمنشأ، ميراث الآباء والجنس، كالفاطميين وبنى حمدان؟

٢ — والحمدانيون عرب من تغلب، والعرب تهزهم الأريحية عندما ينشدون الشعر، ويطربون لسماعه، وتحلق بهم النشوة.

ومن أظهر طباعهم الرغبة فى بعد الصيت وذيوع الذكر، وهم لا يعرفون لذلك وسيلة أنجح ولا أسير من أبيات الشعر تنطلق من أفواه المادحين فيتلقفها الرواة وتسير بالثناء عليهم كل مسار.

وكانت لهم دولة ينافسها غيرها من الدول، وهذه المنافسة تقتضى صاحب الدولة أن يدعو لها بكل سبيل، والشعر كان أجدى وسائل الدعوة آنذاك، ويقوم للملوك والدول مقام الصحف السيارة الآن.

ثم إنهم كانوا هم ومن حولهم من أمراء الشام كبنى ورقاء ، وبنى كيغلغ ، يساجلون الشعراء فى صناعتهم ، ويعانون قرض الشعر ، وفى يتيمة الدهر نماذج قيمة مما قرضوا ، وحسبهم أن يكون من بينهم أبو فراس ، فهو ـ وإن عد من أمراء بنى حمدان ـ صاحب ديوان يتقدم به إلى الصفوف الأولى إذا عد الشعراء .

لذلك كله أفسحوا فى رحابهم للشعراء ، يتفيئون ظلالهم ، ويتقلبون فى نعمائهم . وهذا سيف الدولة زعيمهم . يضرب للصلات دنانير خاصة ، عليها اسمه وصورته وزن الواحد منها عشرة مثاقيل ، ويتسامع الشعراء بكرمه وسنى عطائه فيكثرون ببابه ، حتى ليكون طباخه شاعراً وقيما دار كتبه شاعرين ، ويحيط به من نجوم الشعر أمثال أبى الطيب المتنبى ، وأبى العباس النامى ، وابن نباته السعدى ، وأبى فراس الحمدانى ، وأبى الفرج الببغاء والوأواء الدمشقى ، والخليع الشامى والسرى الرفاء الموصلى ، والأخوين الخالديين قيمى دار كتبه ، وكشاجم طباخه ، غير من كانوا يفدون ويرحلون ، وغيرهم ممن كان يقيم بحضرته ، أو يمر بها من شيوخ الأدب وأفاضل علمائه ، فزها قصره بهؤلاء وأولئك على قصور زمانه ، ولقوا بفنائه أكرم لقاء ، وأجزل عطاء .

وقد تذكر الخوارزمى أياما قضاها بجوار سيف الدولة ، تذكرها بعد أن طوف فى الآفاق ، وألقى عصاه بحضرة أبى محمد العلوى باصبهان ، فقال فى إحدى رسائله : « وقد رأيت فى هذه الحضرة أقواما كنت شاهدتهم على باب سيف الدولة ، ومنهل الصفاء عذب ، وعود الشباب رطب ، وذكرت بهم مآرب هنالك وياما سلبتها سلبا ، ونزعت من يدى غصبا ، ودهراً كنت أقطعه وثباً » .

وفى سيف الدولة ، وبره بالأدب والأدباء ، وكثرة من طاف ببابه من الشعراء يقول الثعالبى : « حضرته مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقبلة الآمال وحط الرحال ، وموسم الأدباء ، وحلبة الشعراء ، ويقال : إنه لم يجتمع قط بباب

أحد من الملوك — بعد الخلفاء — مااجتمع ببابه من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر ، وإنما السلطان سوق ، يجلب إليها ،ماينفق لديها ».

٣ — والفاطميون عرب مثل الحمدانين ؛ ورثوا حب الشعر ، وعرفوا بلاءه فى إذاعة المحامد ونشر الثناء ، ولهم حس مرهف ، وشعور نفاذ يقدر الشعر ويحسن تذوقه ، ومنهم ذو الطبع الشاعر القادر على مساماة الفحول ، كالأمير تميم بن المعز لدين الله ، فهو صاحب ديوان يؤهله لمكان مرموق بين الشعراء .

وقد كانت الدولة الفاطمية من أشد الدول عناية بالدعاية ، وتنويع وسائلها ، وتدبير القائمين على أمرها ، وكان مما توسلت به فى هـــذا الباب منذ نشأتها بالقيروان ، الاحتفال بالشعر والشعراء ، يشيعون محامدهم ، وينشرون تعاليم مذهبهم بين الناس ، وقصتهم مع ابن هانىء ، وما أغدقوه عليه من سابغ النعم مشهورة للناس ؛ وكانوا قد أعدوه ليكون شاعرهم بمصر بعد الفتح ، لولا أن سبقت منيته أمنيتهم ، فمات قبيل الرحيل ، وأسف المعز لدين الله حين بلغه نعيه بمصر ، وقال : لاحول ولا قوة إلا بالله ، هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق ، فلم يقدر لنا ذلك » .

وهى عبارة تدل مع إيجازها على تقدير المعز للشعر ، وعرفانه بقوة أثره فى النفوس فهل كان له ، وقد فاته مدح ابن هانىء ، أن يقعد عن اجتذاب غيره من الشعراء ، لينال من قربه ما يريد ؟ .

إنه هو ومن خلفوا بعده ، ومن وزروا له ولهم ، لم يتقاعدوا عن إغراء الشعراء وفتح لهواتهم بالتغريد لهم ، والثناء عليهم ، والدعاء لدولتهم ، وبذلوا لهذه الغاية كل مرتخص وغال .

فقد كان فى ديوانهم نائب يختص بالشعراء ، يقدمهم فى نظام على حسب أقدارهم ومنازلهم للإرشاد بين يدى الخلفاء فى أحفال المواسم والأعياد .

وما أكثر ما كان لهم من مواسم . نثروها فى مواعيد متقاربة متتابعة . وعاش الناس من روعتها فى أعياد تتلاحق طول العام ، مثل موسم رأس السنة وأول العام ، ويوم عاشوراء ، ومولد النبى عليه الصلاة والسلام ، ومولد على ، والحسن ، والحسين ، وفاطمة ، والخليفة الحاضر ، وليالى الوقود الأربع وليلة أول رجب ، وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه ، وليلة أول رمضان ، وغرة رمضان ، وسماط رمضان ، وختم رمضان ، وعيد الفطر ، وعيد النحر ، وعيد الغدير ، وفتح الخليج ، ويوم النوروز ، ويوم الغطاس ، ويوم الميلاد ، وعيد النصر ، وسوى ذلك .

ولعمارة اليمنى قصيدة يرثى فيها الدولة الفاطمية ، ويتحسر على أيامها ، ويضمنها ذكر شىء من هذه الأعياد ، وما كان لها من رونق وبهاء ؛

وبين هذه المناسبات على كثرتها ، عنوان متى فهم معناه . صارت له أضعافا مضاعفة ، ذلك هو أيام الركوبات ، ولا ننظر من هذه الأيام إلى تلك التى يخرج فيها الخليفة بمواكبه الفخمة لصلاة الجمعة بالناس ، فى الجامع الأزهر مرة والجامع الحاكمى أخرى ، وجامع عمرو بن العاص الثالثة ، فهى ثلاثة مواكب على أى حال ، ولكننا ننظر إلى خروجه يوم السبت والثلاثاء من كل أسبوع ، قاصداً أحد منتزهاتهم فى ضواحى القاهرة مثل الروضة ، والمشتهى ، ودار الملك والتاج ، ومنازل العز ، وبستان البعل الكبيرة ، وقبة الهواء ، والوجوه الخمس .

ومن أعجب ما كان لهم فى باب البر بالشعراء ، ما يرويه المقريزى عن الخليفة الآمر بأحكام الله ، فإنه بنى منظرة فيها طاقات تطل على بركة الحبش صور فيها الشعراء كل شاعر واسمه وبلده ، وعند رأسه قطعة من شعره ، وإلى جانب كل صورة رف لطيف مذهب ، ثم يدخل الآمر بعد الفراغ من ذلك فيقرأ الأشعار ويأمر أن يحط على كل رف صرة مختومة ، فيها خمسون ديناراً ، وأن يدخل كل شاعر ، ويأخذ صرته ، كما يقول المقريزى .

وإذا كان هذا حظ الشعر عند الخلفاء الفاطميين فما قصرت عنه همم وزرائهم ومن بعدهم من الولاة والقضاة .

فهذا يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله ، يرتب فى داره أماكن للعلماء والأدباء والشعراء ، فتكون لهم بمثابة المنتديات ، ويجلس كل جمعة فيقرأ مصنفاته على الناس ، وبعد الفراغ ينشد الشعراء ما صنعوه فى مدحه ووصف مجالسه ، فلما مات رثاه على قبره مائة شاعر ، أجيزوا جميعهم من بيت المال .

وهذا قاضيهم مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد ، المعروف بابن حديد كان قاضيهم على الإسكندرية ، وكان ـ على ما يذكر المقريزى ـ يحتذى أفعال البرامكة ، فتجمع حوله الشعراء ومنهم ظافر بن الحداد وأمية ابن عبد العزيز بن أبى الصلت ، ولهما ولغيرهما فيه مدح كثير .

وماذا نقول ؟ : يكتفى أن نثبت فى هذا المعنى أبياتاً ، صنعها عمارة اليمنى وهو شاعر استشعر فى رحابهم مس النعيم ، ولا تقولوا : إنها غلو شاعر فما صنعها إلا بعد مصرع دولتهم ، وقيام الأيوبيين على أنقاضهم ، وكان الأولى ـ لو طاول الطبع الذميم ـ أن يتنكر لعهد باد ، وأن يتقرب بثلبه والطعن فيه إلى حاضره الجديد ، ولكنها حقائق أنطقته فما جمجم ، ووفاء كافه حياته فما أحجم :

| | |
|---|---|
| لهفى ، ولهف بنى الآمال قاطبة | على فجيعتها فى أكرم الدول |
| قدمت مصر ، فأولتنى خلائفها | من المكارم ما أربى على الأمل |
| قوم عرفت بهم الألوف ومن | كما لها ، أنها جاءت ، ولم أسل |
| وكنت من وزراء الدست حيث سما | رأس الحصان بهاديه على الكفل |
| ونلت من عظماء الجيش مكرمة | وخلة حرست من عارض الخلل |

وما كان الإكرام مما يختص به الشعر والشعراء دون سائر فنون الأدب والأدباء ، فقد كان للكتاب فى دولتهم شأن أى شأن ، وهذا ما يقوله المقريزى عن ديوان الإنشاء والمكاتبات ، وما كان لصاحبه من قدر لا يصل

إليه سواه من أصحاب الدواوين ، وما كان يجرى عليه من رواتب وأرزاق

وكان لا يتولاه إلا أجل كتاب البلاغة ، ويخاطب بالشيخ الأجل ، ويقال له كاتب الدست الشريف ، ويسلم المكاتبات الواردة مختومة ، فيعرضها على الخليفة من بعده، وهو الذى يأمر بتنزيلها والإجابة عنها للكتاب والخليفة يستشيره فى أكثر أموره ، ولا يحجب عنه متى قصد المتولى بين يديه وهذا الأمر لا يصل إليه غيره ، وربما بات عند الخليفة ليالى ، وكان جاريه مائة وعشرين ديناراً فى الشهر وهى أول أرباب الإقطاع ، وأرباب الكسوة والرسوم ، والملاطفات ، ولا سبيل أن يدخل إلى ديوانه بالقصر ، ولا يجتمع بكتابه إلا الخواص ، وله حاجب من الأمراء الشيوخ ، وفراشون ، وله المرتبة الهائلة ، والمخاد والمسند ، والدواة ، ولكنها بغير كرسى . وهى من أخلص الدواوين ويحملها أستاذ من أستاذى الخليفة » .

٤ — وما ذكرناه عن تلك الدول العربية والمتعربة ، وما كان من عناية رجالها بالأدب والأدباء ، لا يمنع أن يكون لغيرها من الدول الأعجمية المعاصرة نصيب من هذه العناية ، وغاية ما فى الأمر أنها تجىء بعدها عند التقويم والحساب لأن احتفال المرء بالشىء . لا تدفعه إليه إلا المنافسة والتقليد ، لا يصل إلى درجته إذا كان منبعثاً قبل المنافسة عن حب وتذوق وتقدير وعرفان .

ومع ذلك كان لكل من تلك الدول المستعجمة دلو بين الدلاء ، فنى الدولة الزيارية يظهر أمير من أمرائها ينزع فى الأدب ويكلف بالأدباء ، فيجتمع الشعراء على بابه كل نيروز ومهرجان ، فيرسل إليهم جوائزهم مع واحد من أصحابه ، ويقول له : « وزع عليهم الهدايا بحسب رتبهم ، ولكنى لا أستطيع سماع أكاذيبهم التى أعرف من نفسى خلافها » ذلك هو الأمير قابوس بن وشمكير ، المعدود بين الأمراء الزياريين ، وفى طبقة المجيدين من الكتاب .

وكذلك كان الشأن عند ملوك السامانيين والغزنويين ، يلقون بالإكرام الشعراء المقيمين بأفنيتهم ، أو الطارئين عليهم ، مجاراة الملوك المعاصرين لهم ، ورغبة فى أن تزداد قصورهم ومجالسهم ، بما تزدان به غيرها من المجالس والقصور .

وإذا كانت أذواقهم الأعجمية ، ونأى مزارهم عن قلب المواطن الإسلامية ، قد جعلاهم دون البويهيين مثلا فى الاحتفال بالشعر ، واجتذاب كثير من الشعراء إليهم ، فقد جهدوا أنفسهم أن يساموهم فيما استنوه لمنصب الوزارة ، إذ كانوا لا يوسدونه إلا الصفوة المختارة من نوابغ الكتاب ، وقد حاول نوح بن منصور السامانى أن يجتذب الصاحب بن عباد ويستأثر به دون البويهيين ، فراسله يعرض عليه ، ما يغريه بالرحلة إليه ، والوزارة له ، ولولا اعتذار الصاحب بما يشق عليه من نقل متاعه ، ومن بينه كتبه التى تحتاج وحدها فى النقل إلى أربعمائة جمل كما قال .

ولعل بلاطهم يذكر فى احتضان الكتاب ، فقد ظهر فى بلادهم بعدها من يقاربون ابن العميد ، وابن عباد ، فى الدرجة البلاغية ، وإحياء الحركة الأدبية ، مثل الوزير البلعمى والوزير الجيهانى ، فى دولة السامانيين ، ومن حولهم من آل ميكال الأمراء الكتاب الشعراء . ومثل أبى القاسم الميمندى وأبى الفتح البستى ، وأبى نصر العبى ، فى بلاط الغزنويين .

٥ — وغاية القول أن نجم الأدب كان فى صعود، طوال ما سيطر البويهيون على بغداد ، فقد تعدد بتعدد الدول موارد الأدباء ، وتبارى الملوك من العرب والمتعربين ومن ساماهم من الأعاجم فى تقريبهم ، والاحتفال بهم ، فسعد العصر من الشعراء والكتاب بعدد وفر لم يكن مثله من قبل ، ومن نتائج القرائح ، وبدائع البداية ، بما لم يضارعه مثله من بعد ، وفى يتيمة الدهر للثعالبى صورة للمشرق الإسلامى حينذاك ، فى كل ركن منه ندوة أدبية والأدباء يطوفون فى أرجائه تطواف البلابل فى الروض الأغن ، لها منه الزهر والندى ، والجنى الشهى ، وله منها التطريب والتغريد باللحن الفريد .

حظ الأدب والأدباء فى العهد السلجوقى :

١ — بعد أن زالت دولة البويهيين سنة ٤٤٧ هـ ، غلب السلاجقة على بغداد ، وبسطوا نفوذهم على أغلب بلاد المشرق الإسلامى ، واكتسحوا ما كان به من دول ، فلم يبق منها معهم إلا الفاطميون ، ثم الأيوبيون .

والسلاجقة - كما عرفنا - من بداة الترك ، لا إدراك لهم فى الأدب ، ولا ذوق عندهم للشعر ، وصلتهم باللغة العربية وثقافتها - بله أدبها - مقطوعة ، وعمادهم فى المنافسة على الملك والسلطان هو السيف وحده ، ولا شىء سواه ، وهم جشعون يستهويهم المال ويندفعون فى جمعه ، وهم مشغولون فيما بينهم بالفتن والحروب والختل والغيلة والوزارة فى عهدهم مكسبة ومستغل يضحى فى سبيلها المستوزرون بألوف الدنانير ؛ لأنها سبيلهم إلى السلب والنهب ، واكتناز الفضة والذهب ، على الرغم مما كان يتعجل أكثرهم من العزل وسوء المصير .

واليد التى تمتد للأخذ ، قلما تنبسط بالعطاء ؛ ولذلك ندر من ينتصر للأدب فى هذه الرقاع الفساح من الشرق ، وعدم الشعر ذلك الخصب الممرع الذى عاش فيه زمانا ، ولم يبق له من عوامل الإثارة إلا اندفاع الشعراء فى أعقاب النهضة السابقة ، وإلا ما يعتلج فى نفوسهم من آثار هذا الجدب ، فانعكست صورته فى دواوينهم أنينا من الحرمان ، وصراخا بشكوى الزمان ، أما ما حظى به أسلافهم من ضروب المكافأة والتشجيع ، وأما الثواب الكريم الذى يحفظ على الوجوه ماء الحياة فقد انمحى أو كاد ؛

والفقر ساق عنيف ، وما كان أعنفه بشعراء تلك الأصقاع !! إنه ليشتد عليهم فى قسوته ، حتى تدفعهم الحاجة إلى الاستجداء والمصارحة فى السؤال فإذا أعيتهم الحيل ، وصمت دونهم الآذان ، انتقموا للكرامة المهدرة بسوط الهجاء يلهبون به ظهور الأشحاء .

ونضرب لذلك المثل بابن التعاويذى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ ، وقد اخترناه

لأنه كان شاعر وقته فى العراق . ويرى ابن خلكان أنه لم يكن قبله بمائتى سنة من يضاهيه ، وكان منقطعاً كما يقول الفخرى لمدح آل بيت قديم يعرف ببيت الرفيل ، وأنفق جل عمره معهم . وقد وزر منهم فى أيام المستضىء العباسى عضد الدين أبو الفرج محمدا بن رئيس الرؤساء ، ولاحقه ابن التعاويذى بقصائد لم تتفرج لهايده . فأراق شيئا من ماء وجهه ، ليلينه بمثل قوله :

وما زلت فى آل الرفيل بمعزل ... عن الجور مبذولا لى الأمن والخصب
فإن أقترف ذنبا بمدح سواهم ... فإن خماص الطير يقنصها الحب

ولكن ذلك لم يلين جاهد كفه ، فعاتبه عتاباً مراً ، تعرى فيه مما يستره وكشف عن ضره بقوله :

فيا مولاى هل حدثت عنى ... بأنى من ملائكة السماء ؟
وأن وظائف التسبيح قوتى ... وما أحيا عليه من الدعاء
وأنى قد غنيت عن الطعام الـ ... ذى هو من ضرورات البقاء
وهل فى الناس لو أنصفت خلق ... يعيش كما أعيش من الهواء ؟
فلا فى جملة الأحرار أدعى ... ولا بين العبيد ولا الإماء

وإذا كان الشعر قد فقد أهم روافده فى تلك الأصقاع فلا غرابة فى أن يقل اصطناعه هناك ، وما أصدق ما عبر به عن ذلك أبو إسحاق الغزى وهو من شعراء القرن السادس فى خراسان : حيث قال :

قالوا : تركت الشعر ، قلت ضرورة ... باب الدواعى والبواعث مغلق
لم يبق فى الدنيا كريم يرتجى ... منه النوال ، ولا مليح يعشق
ومن العجائب أنه لا يشترى ... ويخان فيه مع الكساد ويسرق

٢ — تلك هى حال الأدب فى عهد السلجوقيين فى بلاد العراق وما وراءها من أقاليم الإسلام ، ثقلت فيها وطأة الحكام ، وجمدت أيديهم ، فضاقت أنفاس الشعر ، وفترت قوته ، وبارت سوقه ، وانصرف كثير من ذوى المواهب عن اصطناعه ، وشغل المفتونون له عن تجويده بمطالب الحياة ،

فجاء نتاجهم منه ضعيفاً :

غير أنه كان يجد الروح والريحان فى مصر والشام ، وذلك لأن الفاطميين كانوا هناك ، واستمر ملكهم إلى سنة ٥٦٧ ﻫ وقد عرفنا كيف كانوا يحتفلون بالأدب والشعر ، ويسخون على الأدباء والشعراء ، ولم يغب عنا ما شهد به عمارة اليمنى شاعرهم ، فيما رثى به دولتهم التى علمته كسب الألوف ولا حديث ديوان الإنشاء وما يختص به صاحبه من راتب ومقام .

وذلك أيضاً لأن الأيوبيين هم الذين جاءوا على أعقاب الفاطميين بمصر والشام ، والأيوبيون أكراد ، ولكنهم تعربوا كما تعرب البويهيون بالعراق ، ونبغ منهم جماعة فى الأدب والشعر ، نذكر منهم بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك ، فهو من أمرائهم وملوكهم ، وهو مع ذلك شاعر وأديب .

ثم إنهم جاءوا بعد الفاطميين ، وللشعر فى دولتهم صولة وللبلاغة الكتابية عند جناب مرعى ، فتقفوا آثارهم فى رعاية الأدب رعاية تذوق وتقدير ، واحتضنوا الشعراء عرفانا بأقدارهم ، ورغبة فى نشر مناقبهم على ألسنتهم ، وإذاعة محامدهم فى أشعارهم ، فكثر عددهم حولهم ، وسواء فى برهم من بقى من شعراء الفاطميين ومن نشأ بعد ذلك فى أكنافهم .

وحسب مصر فى عهد الفاطميين والأيوبيين ، أنها تلقفت زعامة الكتابة الإنشائية من العراق وما والاها من البلدان واتجهت أنظار الكتاب إلى ديوانها يقلدون أساليبه ، ويأتمون بصاحبه وينسبون إليه الطريقة التى يحتذونها فى كتاباتهم وهى الطريقة الفاضلية . نسبة إلى القاضى الفاضل ، آخر رؤساء ديوان الإنشاء فى دولة الفاطميين ، وأولهم ديوان الفاطميين .

# نشأة الآداب الاقليمية فى الدول الناشئة

- ١ -

عرفنا من أحاديثنا التى أسلفنا، أن انقسام الملك العباسى، وتعدد الدول الناشئة فيه، قد أفاد الأقاليم بما فتح لها من فصول تقصر أو تطول فى تاريخ الأدب؛ فأصبح لكل منها ثروته الأدبية، بعد أن كان يحرمها ذلك استئثار العراق وبغداد، باحتضان الأدب، واجتذاب الأدباء.

ومعنى ذلك أن الأقاليم استطاعت أن تحجز أدباءها الذين كانوا يتجهون من قبل إلى دار الخلافة، بجوار قوى من الرعاية والعناية، واستطاعت كذلك أن تجتذب إليها غيرهم من ذوى الطموح إلى الشهرة والرغبة فى نيل الثروة والجاه فهل استطاعت هذه الأقاليم مع هذا أن تؤثر فى هؤلاء الأدباء تأثيرا قويا يظهر فى أدب كل إقليم خصائص ينفرد بها ومشخصات تميزه عن آداب غيره من الأقاليم؟.

مما لا شك فيه أن شيئاً من التمايز قد كان بين آداب الأقاليم، وإذا كان للآثار الأدبية الفردية أن تتفاوت فيما بينها، وإن كانت لأدباء متكافئين فى فرص البيئة والمعاصرة، فيبدو فى نتاج كل أديب منهم ما يناسب استعداده الذاتى ومنزعه الخاص به، إذا كان ذلك فأولى بهذه الآداب الإقليمية أن تسير على هذه السنة، فيلتئر على وجوهها نثار من المزايا، تبعاً لما يمتاز به كل إقليم فى تكوينه الطبيعى، أو وضعه الجغرافى أو التاريخى.

غير أن هذه الامتيازات الطبيعية والجغرافية والتاريخية، لم تنطلق إلى آماد بعيدة فى التفريق بين آداب الأقاليم، لأن أكثرها عند التمحيص لم يكن خاصاً بإقليمه، وإنما كان ظهوره أقوى منه فى غيره، فبدت آثاره فى أدبه أظهر منها فى سواه.

لجمال الطبيعة - مثلا - لكل إقليم فيه حظ قليل أو كثير ، ويتبعه فى المقدار نصيب أدبائه من قوة الخيال أو ضعفه ، واتساع أفقه أو ضيقه ، ولذلك امتاز أدباء الشام بسمو الخيال ، لغنى بلادهم بالجمال وامتلائها من مجاليه ؛

والنضج العلمى ، والاتصال بالثقافات الأجنبية ، قدر مشترك بين جميع الأقطار ، إلا أن تأصلهما فى العراق ، جعل آثارهما أشد نضجا فى أدبه ، وتجلى ذلك فى معانيه ؛

ولكل بلد قسطه من التحضر ، ومن ميراث الفصاحة طبيعة أو صناعة ، ولكن موقع بلاد الشام الذى وصلها بالعراق منبت الحضارة وموطنها بالجزيرة العربية معين الفصاحة ومعدنها ، هذا الموقع جعل أدباءها يأخذون من كلتا الناحيتين بأوفى نصيب ، لجمعو إلى حضرية المعنى وغزارته ودقته ، جزالة فى الأداء ، وقوة فى التعبير .

وما أكثر ما شهدت الأقاليم المختلفة من انقلابات تلتحم فيها الجيوش ، وتسيل الدماء ، غير أن تعرض الشام المستمر لهجمات الروم على الثغور أيام العباسيين والحمدانيين ، ثم بعد ذلك لغارات الصليبيين ، مكن لأدبائها من البراعة فى وصف المعارك والحروب .

والظلم الاجتماعى حائق بجميع الشعوب ، ولكن عراقته ببلاد فارس والعراق وتعاقبه على الأجيال من عهد الأكاسرة ، عود الناس الخداع والمكر والتفنن فى الاحتيال والغش . وبذلك وجد الأدباء هناك صوراً مختلفة من الحياة أعانتهم فسبقوا إلى اختراع فن المقامات ، والاحتفاظ بمقام الإمامة على كل من تابعهم فيه .

— ٢ —

وهكذا يمكننا القول فى غير ذلك من أسباب تشترك فيها الأقاليم ، وتتفاوت أنصباؤها فى هذا الاشتراك ، لم تستطع هذه الأسباب

أن تخلق لكل أدب خصائص ينفرد بها ، وتتسع لها الفروق بينه وبين سائر الآداب .

حتى الأسباب الانفرادية — على فرض وجودها فى بعض الأقاليم — ما كان لها أن تباعد بين الآداب ، فقد كانت هناك عوامل أقوى منها ، تعمل على التقريب ، وتقوى المشابه بين هذه الآداب ، فى مختلف الأقاليم :

١ — فالأدب القديم كان أهم مصدر لجميع هذه الآداب الناشئة ، وقد استبحرت الرواية فى ذلك العهد ، وأحاطت بكل ما أثر من أدب جاهلى وإسلامى ومولد ، ووضعته بين أيدى الأدباء ، يستمدون منه فى صناعتهم كما يستمد كل خالف من تراث سلفه .

٢ — والاتصال الأدبى والثقافى ، وتبادل الأفكار والمذاهب : كان فى تلك الأوقات على أقوى ما يكون ، وإذا كان تعدد الدول قد وضع بين الأقطار حدوداً سياسية ، فإنه لم يستطع أن يضع بينها حواجز أدبية أو علمية :

(ا) فالرحلة دائبة ، والحدود مفتوحة وأبواب القصر مشروعة لكل أديب جوال . وما أكثر من كان يطوف فى الآفاق من الأدباء ، ولذلك نجد التاريخ الأدبى لكل إقليم ، يعقد فصلا للأدباء الطارئين عليه إلى جانب فصل المقيمين به ونجد الرحلة تذهب ببعضهم إلى أبعد الآماد ، فلا يطول به استقرار فى بلد ، ومن أمثلة ذلك رحلات الخوارزمى ، والمتنبى وبديع الزمان ، وما حديثنا عن أولهم ببعيد .

(ب) والآثار الأدبية تجوب الارجاء ، ودواوين الشعراء والكتاب تتبادلها الأقطار ، وإن أقام أصحابها فى مواطنهم لا يريمون — وقد ذكر الثعالبى فى « يتيمة الدهر » أن الصاحب بن عباد — حين إقامته ببلاد فارس — كان يعجب بأدب أهل الشام ، ويحرص على تحصيل الجديد من أشعارهم ، ويستملى الطارئين عليه من تلك البلاد ما يحفظونه من بدائعهم وطرائفهم ،

وجمع له من ذلك دفتراً ضخم الحجم لا يفارقه ، ولا يمل مطالعته ، وكان لذلك آثار واضحة فى محاضراته ، وفى أدبه شعره ونثره ،

وينقل ياقوت فى « معجم الادباء » أن الصاحب بن عباد سأل رجلا طرأ عليه من الشام ، عن الرسائل التى يتدارسها الناس فى بلاده ، فأجابه إنها رسائل ابن عبد كان ، ورسائل الصابى ، والاول من كتاب ديوان القاهرة ، والثانى من كتاب الديوان ببغداد ، ولكن نثرهما يدرس فى الشام ، ويتأدب به الادباء هناك .

ويروى ياقوت أيضاً أن ابن خيران - وهو من كتاب مصر فى زمن الفاطميين - أرسل بمجموع رسائله إلى بغداد ، ليعرض على الشريف المرتضى كى يودعه فى دار العلم هناك لمن يريد مطالعته من الادباء .

والامثلة من ذلك كثيرة ، وكلها تفيد أن تبادل الآثار والافكار لم يدع لاستقلال الاقاليم مجالا فى المباعدة بين الآداب ،

٣ — وقد كان إلى جانب هذا وذاك من عوامل التقريب بين آداب الاقاليم تشابهها كافة فى الخضوع لمؤثرين قويين ، تشابهت أحوالهما فى جميع الإقاليم ، فتشابهت لذلك آثارهما فى جميع الآداب . وذانكم المؤثران هما الحياة الاجتماعية والحركة العلمية ، وقد تناولهما كل واحد منها بحديث يكشف عنه ، ويبين آثاره فى الادب .

# الكتابة أو النثر الفني في العصر العباسي الثاني

## الكتاب من الناحيتين الاجتماعية والثقافية :

اتجه العرب إلى استخدام الكتابة منذ عرفوا التواطن والاستقرار ، وصارت لهم حضارة وملك يحتاج إلى التعليم والترتيب ، فاستعانوا بها في كل ما تحتاج إليه الدولة أو الأفراد من شأن عام أو خاص .

غير أن عصر الراشدين انقضى كله ، دون أن ينقطع للكتابة من يختص بها ويتفرغ لها ، وتجرى عليه . الأرزاق بسببها ، اللهم إلا ما يكون من تفرغ العدد القليل من الحاسبين ، الذين يقومون بتسجيل أسماء الجند وأعطياتهم في ديوان الجيش أو العطاء ، منذ أنشأه عمر بن الخطاب .

أما إنشاء الرسائل ، والمنشورات ، والعهود ، وما أشبه ذلك ، مما يحتاج إلى تغيير وبيان ، فقد كان يقوم به الخليفة أو الوالي نفسه ، يكتبه بخطه ، أو يمليه على من يرسمه بالقلم ، ويخطه في الورق بين يديه .

## كتاب الإنشاء في جهاز الدولة :

وما وافت الدولة الأموية ، حتى كانت الرقعة الإسلامية قد اتسعت ، وكاد الفتح لأطراف المملكة يتم ، وزادت أعباء الملك والإدارة عن أن يهتم بها الخلفاء ، فاتجهوا إلى الاستكثار من الأعوان ، وأخذوا يزيدون في عدد الدواوين وأنواعها ، بقدر ما يجد من مطالب الحضارة والعمران ، وما يحتاج إليه تنظيم هذا الملك الواسع العريض .

وكان مما زادوه من هذه الدواوين ديوان الرسائل ، أو ديوان الإنشاء يقوم على تدبيره رجل يحظى بثقة الخليفة ، ويكون له من الكفاية نصيب كبير فينوب عن ولي الأمر في تحرير الرسائل والمنشورات ، وكل ما يحتاج إليه تصريف شئون الحكم من مكاتبات ، ويوجهها إلى الولاة والعمال في مختلف الأقاليم والولايات .

ولم تكن أقدار كتاب الدواوين فى أول العهد بهم تزيد على أقدار الناس ، بل لعل النظر إليهم كان جارياً على عادة العرب فى النظر إلى أصحاب المهن والصناعات ؛ ولذلك يقول يزيد بن معاوية ، فى امتنانه على زياد بن أبيه: « لقد نقلناك من ولاء ثقيف إلى عز قريش ، ومن عبيد إلى أبى سفيان ، ومن القلم إلى المنابر » .

ويقول سليط بن جرير بن عتبة النمرى ، فى عتاب من لم يوله حقه من التقريب :

أتحقرنى ولست لذاك أهلا  وتدنى الأحقرين من الخوان
جهابذة ، وكتابا ، وليسوا  بفرسان الكريهة والطعان

فصناعة القلم مهانة، والانتشال منها مكرمة يمتن بها يزيد على زياد ، والكتاب من الأحقرين فى رأى سليط ، لأنهم لا يكفون مهما عند الكريهة ولا يدفعون ملما يوم الطعان .

إلا أن هذا النظر ما لبث أن تبدل شيئاً فشيئاً ، وأخذت حظوظ الكتاب وأخطارهم تزداد يوما بعد يوم ، وذلك بفضل ديوان الرسائل ، وما كان يتكفل به للدولة من أعباء ، فقد اطرد نموه ، وتشعبت أعماله ، بمقدار ما اتسع الملك ، واحتاج إلى التنظيم وحسن التدبير ، ومن ثم عظمت أقدار العاملين فيه ، والقوام عليه ، وسما وضعهم الاجتماعى وتميزت منزلتهم لدى الحكام .

وقد قاربوا الغاية من ذلك فى أخريات العهد الأموى حيث كان يترأس الديوان عبد الحميد بن يحيى الكاتب صاحب الفضل الأول على طائفة الكتاب ، ويمكننا أن نتبين مكانتهم بين رجال الحكم من رسالته التى وجهها بالنصح إليهم حيث يقول : « بكم ينتظم الملك ، وتستقيم للملوك أمورهم ، وبتدبيركم وسياستكم يصلح الله سلطانهم ، ويجمع فيهم أمرهم ، وتعمر بلادهم يحتاج إليكم الملك فى عظيم ملكه ، والوالى فى القدر السنى والدنى من ولايته ، ولا يستغنى منهم أحد عنكم ، ولا يوجد كاف إلا منكم ، فموقعكم منهم موقع

أسماعهم التى بها يسمعون ، وأبصارهم التى بها يبصرون ، وألسنتهم التى بها ينطقون ، وأيديهم التى بها يبطشون » .

## الكتابة سلم إلى الوزارة :

وإذا كان العهد الأموى قد تدرج بالكتاب إلى أن بلغوا هذا الشأن الذى يوضحه عبد الحميد ، فإن عهد العباسيين قد ظفر بهم ، ورفعهم إلى ما هو أسمى منه وأجل خطراً ، وكان أعظم السر فى ذلك أنهم أنشئوا منصب الوزارة وجعلوا فى قائمة الأسباب التى توصل إليه ؛ سعة المعرفة وقوة البيان والاقتدار على التأثير بجمال التعبير ، ولذلك اشترط المأمون فيما اشترطه من صفات الوزير ، أن يكون بحيث « يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه » :

وقد تؤثر خلابة اللسان فى الحضرة ، وتغنى فى لقاء العدد المحدود ، ولكنها لا يمكن أن تغنى أو تؤثر فى النائين والمقيمين فى الأطراف ؛ ولذلك كان لابد معها — بل لا بد قبلها — من مقدرة كتابية ، ونبوغ فى الإنشاء البيانى ، ليتمكن الوزير من تدبير هذا الملك المترامى الأطراف ، والذى ثبت ورسخ ، وانتهى إلى ما ينتهى إليه الامر فى كل دولة ذات حضارة مستقرة ، من تسخير القلم واستخدام الكتابة فى تصريف شئون الحكم وتنظيم أعماله .

وليس من المصادفة البحتة أن يتخير الخلفاء العباسيون وزراءهم ممن برعوا فى الكتابة ، ولكنه العمد والقصد ، واعتبار النبوغ الكتابى فى أول النظر عند اختيار الوزير ، ولذلك كانوا يستبشرون لكل من ظهرت مواهبه بين الكتاب بالوصول إلى هذا المنصب الخطير ، كما صنع جعفر بن يحيى البرمكى مع عمرو بن مسعدة وقد أعجبه توقيعه بين يديه ، على رقعة رفعت إليه ، فإنه ضرب على ظهره بيده وقال له : « أى وزير فى جلدك !! » يقول ذلك إعجاباً به وتوسماً للخير فيه .

والغاية أن ديوان الإنشاء أصبح مدرسة يتخرج فيها الوزراء ، وأن باب الوزارة صار سهلا مشرعا أمام الكتاب ، يدخله كل من تسامت همته ؛ وفاقت كفايته . ولمع نبوغه ، فيلج منه إلى أعلى مراتب الحكم بعد مرتبة الخلافة ، وينال من سعة الجاه ، ونفوذ الكلمة ، وقوة السلطان وبسطة الغنى ، وسبوغ النعمة ، ونعومة العيش ، وترف الحياة ، مالا يفوقه إلا نصيب الخلفاء ، والقياس فى ذلك ما عرفناه من أحوال البرامكة أيام الرشيد ، أو بنى سهل على عهد المأمون أو بنى ثوابة وبنى وهب فى زمن استبداد الأتراك .

اتساع آفاق الأمل أمام الكتاب فى ظلال الدول الناشئة :

لقد أحيا الأمويون الكتابة ، وصيروها صناعة ، لأنهم أنشئوا ديوان الرسائل وتخيروا له الكتاب ، وأجروا لهم العطاء الراتب .

وحولها العباسيون إلى صناعة سامية القدر ؛ جليلة الخطر ، حين طرقوا الطريق من باب ديوانها إلى منصب الوزارة ، فأحالوا هذا الديوان إلى معهد يتخرج فيه الوزراء .

ولكن العهد الأموى كله ، والصدر الأول من عهد العباسيين ، كل منهما قد غبر ، وليس هناك إلا ديوان واحد للرسائل ، يتدافع على بابه الكتاب .

أما بعد أن انفرط عقد الملك العباسى ، وتفلق صولجان السلطان ، وتقاسم فلقه ملوك الدول الناشئة ، فقد تعددت دواوين الإنشاء بتعدد الدول ، وتزايدت أمام الكتاب فرص السمو إلى المناصب العالية ، ولاقى كثير منهم فى رحاب هذه الدول . من الجاه ، والسلطان ، والثروة مثل ما كان يلقاه أسلافهم أو يزيد :

فالوزير المهلبى ينشأ فى حال من الضعف والقلة ، ويقاسى لها من قذى العين وشجى الصدر . ما يدفعه إلى تمنى الموت ، فيقول أبياته :

ألا موت يباع فأشتريه فهذا العيش مالا خير فيه
ألا موت لذيذ الطعم يأتى يخلصنى من العيش الكريه
إذا أبصرت قبراً من بعيد وددت لو أننى مما يليه
ألا رحم المهيمن نفس حر تصدق بالوفاة على أخيه

ولكنه يصل بنبوغه الكتابى إلى الوزارة ، وينال فيها من النعيم والرفه ما أشرنا إلى شيء منه فى حديث الحياة الاجتماعية .

وابن العميد تسمو منزلته ، ويبلغ من نباهة الصيت ، وجلال القدر ، مايجمع حوله العلماء والأدباء ، ويجذب إليه المتنبي ، ويطلق لسانه بقصائد المدح ، وهو الذى آلى على نفسه - بعد فراق سيف الدولة - ألا يمدح إلا الملوك والأمراء .

والصاحب بن عباد يتجاذبه الملوك لاشتهار نبوغه ، فيرسله نوح بن منصور السامانى يستوزره ، ولكنه يؤثر البويهيين ، فينبسط فى وزارتهم جاهه ويحتف به - كما يقول الثعالبى - من نجوم الأرض ، وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من يربى عددهم على شعراء الرشيد .

وصاحب ديوان الإنشاء عند الفاطميين ، يرتفع قدره على جميع الأقدار وهو مستشار الخليفة ونجيه ، ولا يحجبه عنه حجاب من المراتب والإنعامات والأعوان ماليس لغيره من رجال الدولة ، وفيما نقلناه عن المقريزى آنفاً توضيح مانقول :

وهذا خبر آخر ننقله عنه لأنه يشير إلى الثروة التى كان يجنيها بعض الكتاب من عملهم فى ديوان الفاطميين ، فهو يذكر عن ابن خيران ، أستاذ القاضى الفاضل رئيس ديوان الإنشاء قبله ، يذكر أنه لما قبض عليه ، وصودرت أملاكه وجد عنده من نقد الذهب وحده ستمائة ألف دينار .

ومثل ذلك يقال عن حظ الكتاب فى دولة الأيوبيين ، وإن صحت الأخبار كان حديثهم فى ذلك مضرب الأمثال ، ولا بشير فى ذلك إلى حال

القاضى الفاضل وإن كانت فى عهدهم أسمى منها فى عهد الفاطميين ، ولكننا نشير إلى مايذكره المقريزى أيضا من خـــبر الصاحب صفى الدين بن على المشهور بابن شكر ، فقد كان رئيس ديوان الإنشاء للملك العادل الأيوبى ، وكان إقطاعه بسبب هـذه الرياسة يغل عليه مائة وعشرين ألف دينار فى العام ، وهو مقدار إما أن يكون راويه مسرفا فى الخيال ، أولا فـانه معرق فى الخيال .

صناعة الكتابة :

وندع الحديث عن حال الكتاب الاجتماعية ، وحياتهم الموسرة الناعمة وما كانوا يظفرون به من رفع المناصب ، ونبحث عن موقعهم من دولاب الحكم ومقدار غنائهم فيه ، لنبحث بعده عما كانوا يتأهبون به لعملهم من ألوان الثقافة والمعرفة :

وقد أجمل عبدالحميد الكاتب مهمتهم بقوله السابق ، فى أنهم عصب الملك ونظامة ، وآذان الملوك ، وعيونهم وألسنتهم وأيديهم . وموضع سرهم ونجواهم وذلك إجمال يفصله الثعلبى فى مقدمة كتابه « نثر النظم » حيث يقول :

« إن الكتاب ـ وهم ألسنة الملوك ـ إنما يتراسلون فى جباية خراج ، أوسداد ثغر ، أو عمارة بلاد ، أو إصلاح فساد ، أو تحريض على جهاد ؛ أو احتجاج على فئة ؛ أو دعاء إلى ألفة ، أو نهى عن فرقة ، أو تهنئة بعطية أو تعزية فى رزية ؛ أو ماشا كلها من جلائل الخطوب . ومعاظم الشئون ، التى يحتاجون فيها إلى أن يكونوا ذوى آداب كثيرة ، ومعارف مفتنة » .

وهو تفصيل يقتضى العود إلى الإجمال . لمـــا يبدوا فيه من أنهم كانوا يقومون بكل الأعمال التى تتنوع لهـا الآن إدارات متعددة ، فى وزارات مختلفه ، وتؤازرها على القيام بهـا الصحف المؤيدة للحزب الحاكم ، وذلك مجهود يحتاج إلى استعداد ثقافى واسع ، وإلى آداب كثيرة ، ومعارف مفتنة كما يقول الثعالبى .

وأيسر ما يكون من الاستعداد ، التمكن من علوم العربية وآدابها ، والإلمام بأحكام الدين وتعاليمه ، لأنهم يعملون فى دواوين عربية اللسان ، دينية النظام ، أو هكذا كانوا يدعون .

وهذا القدر الذى أشرنا إليه كان مما أوصى به عبد الحميد فى رسالته إلى الكتاب وقد يكون فيه كفاية لمن تواضعت همته ، ووقف طموحه عند غاية قريبة ، ورضى من حياته بالخلود إلى الراحة والدعة فى عمل الديوان ، ولكن منصب الرياسة ، وما كان يحف به من جلال وفخامة ، كان يتراءى لهم من باب الوزارة ، والأمل فى الوصول إليه يداعب ناشئتهم كما يداعب شيوخهم ، ولذلك اندفعوا فى التأهب له إلى أبعد مما أوصاهم به عبدالحميد ، فلم يدعوا نبعاً من منابع المعرفة إلا اتجهوا إليه ، ونهلوا منه ، وجاوزوا المنابع العربية والإسلامية إلى ما سهلته الترجمة لهم ، ووضعه النقل بين أيديهم ، من علوم الأمم الأخرى ومعارفها .

وكتاب العهد البويهى ـ وبخاصة كتاب القرن الرابع ـ كانوا فى جملتهم أشد كتاب العربية بلاء فى هذا الباب فقد جروا فى ميادين الثقافة إلى غايات بعيدة وسلكوا لها كل سبيل ، وطرقوا كل باب . فشاركوا كل طائفة من الطوائف العلمية المختلفة بشىء مما تتخصص له ، وانفردوا بسحر البيان وحسن رصف الكلام ، إن شئت قلت : إنهم كانوا أدباء بأوسع ما عرفته كلمة الأدب من معنى ، وهو الأخذ من كل فن بطرف ، كما عرفه ابن خلدون .

وقد يتأذى تاريخ بعضهم إذا اقتصرنا فى حديث ثقافته على المشاركة فى هذا الوصف العام ، وإن كان فى ذاته وصفا جميلا ، لأن فيهم من الأفذاذ من كان يشارك بتفوقه ونبوغه الإخصائيين المتفرغين لبعض العلوم .

فالصابى كان على صابئيته حافظا للقرآن ، عارفاً بأحكام الإسلام ، واسع العلم بالهندسة ، والهيئة والرياضيات .

والصاحب بن عباد كان من المحدثين ، والمتكلمين على مذهب الاعتزال، متبحراً فى علوم اللغة ، بصيراً بالنقد ، مشاركا فى الطب ، وله فى كل ذلك مؤلفات .

وابن العميد الذى لقبه أهل زمانه بالجاحظ الأخير ، والأستاذ ، والرئيس ، كان غاية فى علوم الدين ، واللغة ، ورواية الأشعار والأخبار ، متفوقاً فى فنون كثيرة ، منها الإلهيات ، والفلسفة ، والمنطق ، والهندسة ، والطبيعة ، والحيل ( الميكانيكا ) ، والتصوير . وقد تحدث عنه قيم دار كتبه ، وهو ابن مسكوية ، قال : « كان أكتب أهل عصره ، وأجمعهم لآلات الكتابة ، حافظا للغة والغريب ، وتوسع فى النحو والعروض ، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات ، وحافظا للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام . فأما تأويل القرآن ، وحفظ مشكله ومتشابهه ، والمعرفة باختلاف فقهاء الأنصار ، فكان منه أرفع درجة ، وأعلى رتبة . ثم إذا ترك هذه العلوم ، وأخذ فى الهندسة والتعاليم : لم يكن يدانيه فيها أحد . فأما المنطق . وعلوم الفلسفة ، والإلهيات منها خاصة . فما جسر أحد فى زمانه أن يدعيها بحضرته ، ثم كان يختص بغرائب من العلوم الغامضة ، كعلوم الحيل ( الميكانيكا ) التى يحتاج إليها فى أواخر علوم الهندسة والطبيعة ، والحركات الغريبه ، وجر الأثقال ، وعمل آلات غريبة لفتح القلاع ، والحيل على الحصون . ثم معرفته بدقائق علم التصاوير ، ولقد رأيته يتناول من مجلسه الذى يخلو فيه بثقاته وأهل آنسه ـ التفاحة وما يجرى مجراها ، فيعبث بها ساعة ، ثم يدحرجها وعليها صورة وجه قد خطها بظفره لو تعمد لها بالآلات المعدة ، وفى الأيام الكثيرة ، ما استوفى دقائقها ، ولا تأتى مثلها .

والذى ذكره ابن مسكوية من أوصاف كانت فى ابن العميد : هو الذى سوغ للمتنبي أن يمدحه بمثل قوله :

من مبلغ الأعراب أنى بعدها شاهدت رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكا ، متبدياً ، متحضراً

ولقيت كل الفاضلين ، كأنما رد الإله نفوسهم والأعصرا
نسقوا لنا نسق الحساب مقدما وأتى ، فذلك إذ أتيت مؤخرا

وحسبه فى صنعة الكتابة أن يكون صاحب طريقة تعرف باسمه ، ويجرى الكتاب فيها على رسمه ، وأن النقاد قالوا فيه : بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد .

أما كتاب العهد السلجوقى فما ندعى أنهم كانوا فى مثل هذه الدرجة من سعة الأفق ، وقد نعد فى المجازفين إذا قلنا إنهم قاربوها ، وأسلم طريق فى التقدير أن نقول : إنهم - على عادة الكتاب فى كل زمان - كانو أملأ الطبقات المستنيرة فى عهدهم من المعرفة ؛ وسواء بعد ذلك كانوا فى القياس على غير جيلهم أصفاراً خواء أو حافلين ملاء .

هكذا كانت منزلة الكتابة والكتاب .

ونجترىء بهذا القدر من الحديث عن الحالتين الاجتماعية والثقافية فيه للكتاب ، ونوجزه فى أنهم كانوا فى وضع اجتماعى ممتاز ، بحكم موقعهم من دولاب الحكم . وأن أخلاف الرزق كانت تدر الخير عليهم بسبب صنعة الكتابة ، حتى لتصل ببعضهم إلى الغنى المفرط ، والنعيم المسرف .

وأن ديوان الرسائل كان لهم سلما ، يرقى النابغ منهم فيه إلى أعلى مراتب الدولة حيث لا يعلوه إلا خليفة أو ملك

وأنهم لذلك تنافسوا فيما بينهم ، وتسابقوا فى الاستعداد بضروب من التثقيف والتهـــذيب ، فكانوا من أوسع الطبقات فى زمانهم معرفة ، وأرقاها ثقافة .

هذا شأن الكتاب الحكوميين ، أو كتاب الدواوين ، وقد كان إلى جانبهم من إخوانهم فى الصناعة ، من لم يتسع لهم عمل الديوان ، فمن هؤلاء من شاركهم خفض العيش ولينه كالخوارزمى وبديع الزمان الهمدانى ؛ ومنهم من كابد قسوة الحياة ومرارتها كأبى حيان التوحيدى ، ومنهم كان بين ذلك قواماً .

غير أنهم لم ينزلوا عنهم فى درجة الثقافة ، بل إن منهم من فاق كثيراً من الديوانيين ، مثل أبى حيان ، فقد كان ينهج نهج الجاحظ ، ويأتم به ؟ ويخلف فى كثرة العلم وسعة الاطلاع ، حتى لقبه معاصروه بالجاحظ الثانى ، كما لقبوا ابن العميد .

ومثل الخوارزمى ، فقد كان كثير الحفظ ، غزير الرواية ، وقد ذكر ابن خلكان أنه استأذن على الصاحب بن عباد بأرجان ـ قبل أن يعرفه ـ فبعث إليه حاجبه يقول : إنى قد ألزمت نفسى ألا يدخل على أحد من الأدباء إلا من يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب ، فراجعه الخوارزمى يسأل عن هذا القدر . من شعر الرجال هو أم شعر النساء .

## خصائص الكتابة فى العهد البويهى

أطوار الكتابة قبل هذا العهد :

١ ــ مرت الكتابة العربية فى المرحلة الأولى من حياتها زمن الراشدين وهى فى جملة أوصافها فطرية ساذجة ، لا تنوق فيها ولا تعمل ، فمضت والشبه بينها وبين لغة التخاطب قريب من قريب .

ذلك لأنها قطعت تلك المرحلة ، دون أن يتفرغ لها من يتخذها مكسبة وحرفة ، ولأنها كأى مرفق من مرافق الحياة أول ما يهتدى إليه الإنسان ، لا بد له من طور يعبره ، وهو فى أيسر صوره وعلى الوجه الذى يؤدى فيه الغرض المقصود منه فحسب ، لأنه حين ذاك يكون أداة ضرورة وحاجة ، لا أداة زينة وكمال .

٢ ـ فلما أنشىء ديوان الرسائل على عهد الأمويين ، كان ذلك إيذاناً بدخول خصائص الفن على النثر الكتابى . لأن بعض الناس انقطع للعمل بهذا الديوان ، واتخذ منه مرتزقا وأداة كسب ، فأصبحت الكتابة صناعة يتنافس فيها بالتجويد والتجميل ، كما يتنافس غيرهم من أرباب الحرف

والصناعات ، وبذلك أخذت تبتعد عن الفطرة والسذاجة . ويدخل عليها التأنق شيئاً فشيئاً ، حتى انتهت إلى صورة تكاملت معالمها ، واتضحت سماتها فى طريقة عبدالحميد بن يحيى الكاتب ، التى اعتبرها النقاد منذ قديم بدء الحياة الكتابية الفنية ، فقالوا : بدئت الكتابة بعبد الحميد .

وقد درسنا هذه الطريقة فيما سبق ، وعرفنا أوضاعها وخصائصها ؛ ولعل صورتها تقترب منا إذا تذكرنا ما عرفناه عنها .

إنها تحتفل بموضوع الرسالة ، وتتحرى له ماينا سبه من فاتحة وختام ، وما يضاهيه من إيجاز أو إطناب ، فاذا طال الكتاب استروح كاتبه بين أجزائه بالتحميدات .

وأنها تدقق فى المعانى الموفية بهذا الغرض ، فتستوفيها ، وتوليها ماتستحق من ترتيب وتنسيق .

وانها تؤثر الفحولة والجزالة فيما تختار لهذه المعانى من ألفاظ :
وأنها تميل إلى تقطيع العبارة وتقسيمها إلى فقر قصار ، وتحاول أن تعادل بين قرائن هذه الفقر بالمزاوجة والتسوية فى الميزان .

٣ — ثم دالت الدولة للعباسيين وجد فى عهدهم من الظواهر الفكرية والاجتماعية مالم يكن من قبل ، وما كان الظن بهذه الظواهر أن تتخلف لو استمر الحكم فى أيدى الأمويين ، ولكن العباسيين تعجلوا ظهورها ، بالطريقة التى أسسوا بها الملك ، والسياسة التى اتبعها الخلفاء :

وقد عرفنا حديث ذلك مفصلا من دراسة الأدب والادباء فى العصر العباسى الأول ، عصر اجتماع شمل الدولة ، وتركز السلطان فى بغداد ، وعرفنا من قصة الكتاب فيه ، ماقصاراه أنهم ورثوا طريقة عبد الحميد ، وانهم لم يقفوا عندحدودها — وما كان لهم أن يقفوا — جامدين وأنها تطورت على أيديهم رويداً رويداً ودخل عليها فى التحوير والتعديل ، ماغير من ملامحها ووصل بها فى نهاية القرن الثالث الهجرى إلى شكل جديد ، لا يماثل القديم ، وإن كانت له مشابه فيه .

وأهم ما كان من التعديل - كما عرفنا من دراستنا السابقة - يرجع إلى المعرض الذي يجلى فيه الموضوع وتلبسه المعانى ، أو بعبارة أخرى أنه يرجع - فى الغالب - إلى الصياغة والتعبير ؛ فذلك هو موضع التغيير والتحوير ، ومجال التنافس الواضح بين الأدباء على اختلاف العصور .

فالألفاظ تفننوا فى انتخابها واختيارها ، ولكنه اختيار يختلف مثله الأعلى عن اختيار عبد الحميد فهو كان يتحرى الجزاله والفحولة ويؤثرها فى إنشائه ويوصى بها الكتاب ، وهم يتحرون الصفاء والعذوبه ، وسهولة المخرج ، وانكشاف المعنى عند سماع الألفاظ ، وقد تقرر لديهم فى قواعد البيان ، أن المدار على الفهم والإفهام ، وأن الكلام لا يستحق إسم البلاغة ، حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، فلا يكون اللفظ أسبق إلى الأسماع من المعنى إلى القلوب ، وأن أهدى سبل الأداء ، أن يكون اللفظ رشيقاً عذباً . وفخما وسهلا ، والمعنى ظاهراً مكشوفا ، وقريبا معروفا ، وأن من أفهم العامة معانى الخاصة ، بألفاظ لا تلطف على الدهماء ولا تجفو عن الأكفاء ، فهو البليغ التام .

أما العبارة فقد أصبح تقصير الفقر قاعدة فيها وأساساً ، والموازنة بين قرائن الفقر كادت تكون عامة شاملة ، لما يحدث عنهما من تعادل فى النطق يحسن وقعه على السمع ، وترتاح له النفس .

وقد جرهم هذا التعادل الصوتى الذى تحدثه المزاوجة فتطمئن له الأسماع وتهدأ النفوس ، إلى الإقبال على ظاهرة أخرى لها وقع لطيف وتطريب ، تلك هى السجع فهو قد يؤدى ما تؤديه المزاوجة إن روعى فيه تساوى الفواصل ثم ينفرد بما يحدثه اتحاد القافية من رنة وتوافق موسيقى جميل .

وقد كان السجع مما تتجمل به طريقة عبد الحميد حيناً بعد حين ، ولكنه كان يجىء بقدر ، ولا يستحق أن يكون له حساب فى تقدير الخصائص المذهبية ؛ ثم بدأت طلائعه تتوالى فى كتابة العباسيين ، والاتجاه إليه يزداد مع توالى الأيام ، حتى لفت فشوه أنظار النقاد ، وجهد بعضهم أن

ينقصه ويزرى به لولا أن انتصر له الجاحظ بما أثبته فى « البيان والتبيين »
ومن ذلك الحين أخذ الإقبال عليه يشتد شيئاً فشيئاً إلى أن عيب على الصناعة
فى عهـــد استبداد الأتراك بالخلفاء ؛ ولم يواف القرن الرابع حتى كان
الكتاب والوزراء قد أغرموا بالسجع ، والزموه فى كل ما ينشئون ،
وبخاصة مايصدر عن الديوان ، وبذلك أصبح قاعدة مقررة ، وخصيصة
واضحة فى كتابة الديوانيين .

حالة الكتابة فى العهد البويهى :

لعلنا نذكر أن إنشاء ديوان الرسائل فى عهد الأمويين . ثم تدرجه بالكتاب
فى مراقيه إلى مرتبة الوزارة أيام العباسيين ، كان من أقوى العوامل فى تنافس
الكتاب وتدرجهم بالكتابة من طور إلى طور ، حتى وصلت إلى ماعرفناه من
صورتها فى مطالع القرن الرابع الهجرى :

فإذا كان التنافس وما نتج عنه ، وليس هناك إلا ديوان واحد يتسابق
فيه الكتاب ، وهو ديوان الخلافة بدمشق ، ثم ببغداد : فما بالنابه ، وقد
كثرت لهم الميادين ، حيث تعددت الدواوين ؟ .

لقد تفرق ملك العباسيين إلى دول وإمارات ، وأصبح لكل واحدة منها
ديوان لإنشاء ، يرقى فى مدارجه صاحب النبوغ والكفاية .

وتبارى الملوك والأمراء فى تكريم أهل الفضل فى العلم والأدب ، وبخاصة
الكتاب فاتخذوهم وزراء ، واعتمدوا عليهم فى حياطة الملك .

وصار فى كل إمارة من هذه الإمارات المتعددة كاتب أو جماعه من الكتاب
يتعاقبون على ولاية شئونها ، وتصريف الأمور فيها ، فإذا لمع نجم أحدهم تجاذبه
الملوك . رغبه فى الاستئثار به ، كالذى عرفناه من محاولة نوح بن منصور السامانى
مع الصاحب بن عباد .

بل لقد بلغ من مغالاتهم بالكتابة ، تقويراً لما تقوم به للملك من أعباء ،
وماتقدمه له من خدمات ، أن أخذ بعضهم نفسه بتجويدها والبراعة فيها كما صنع

شمس المعالى قابوس بن وشمكير ، فقد كان من مشاهير الكتاب ، وهو واحد من ملوك الدولة الزيارية بجرجان وطبرستان .

بذلك زادت آفاق الأمل اتساعا وتساميا أمام الكتاب فازدادوا فى صناعتهم تنافساً ، ولفنهم تجويداً .

ولكن فيم يتنافسون ؟

لقد كان تنافسهم فى كل نواحى الكتابة ، وكانوا فيه خاضعين لعوامل أحاطت بهم ، وقوى تأثيرها فيهم :

١ — فقد وصلت الحضارة العباسية فى عهدهم إلى القمة من الترف والتأنق وصارت حياة المترفين كلها تنميقاً ووشياً وزخارف .

٢ — وكانت الكتابة قد سلخت من عمرها فى الديوان قريباً من ثلاثة قرون ودخلت فى عنفوان الشباب ، وهو طور الجرى وراء الزينة والأخذ بأسباب الجمال .

٣ — وكانت وسائل الزينة فى الإنشاء قد تكشفت لهم بما سبق إليه شعراء العهد السابق ، وهو ما سموه بديعا ، ولامهم عليه النقاد اللغويون ، وعابوهم به ولكن الشعراء استوسلوا وتمادوا فيه .

وقد احتدمت معركة الجدل بين الطائفتين ، حتى انجلت عن نصر حققه ابن المعتز للشعراء ، حيث ألف للدفاع عنهم كتاب «البديع» يحتج فيه لما عابهم به اللغويون ، ويعرف به ، ويضرب له الأمثال ، ثم زاد عليه قدامة بن جعفر ما زاد من أنواع البديع فى كتابيه « نقد الشعر » و « نقد النثر » .

٤ — وفى هذا العهد كان لأكثر الكتاب بصر بالشعر وبراعة فيه ، وكان إلى جانبهم جماعة من نوابغ الشعر تصدوا للكتابة وعانوها ، وخلفوا فيها آثاراً ، فاشتغل هؤلاء وأولئك بصناعتى الشعر والنثر ، وتمكنوا من التأثير بالأولى فى الثانية ، ومن أشهر الأمثال للطائفة الأولى ابن العميد ، والصاحب ابن عباد ، والخوارزمى ، وبديع الزمان . وأبو إسحاق الصابى ،

وأبو الفرج الببغاء ، وأبو الفتح البستي ، ومن الفريق الثاني أبو العلاء المعري وله في النثر آثار كثيرة ؛ منها « الغفران » و « الفصول والغايات » . ومنهم الشريف الرضي ، وقد ذهب بعض النقاد إلى أن كثيراً مما في كتاب « نهج البلاغة » إنما هو من إنشائه ، ويرون أنه صنعه لغرض مذهبي ، ودسه فيما جمع من خطب الإمام علي ، ومنهم كذلك المتنبي ، على رأي من يدعون أنه تنبأ وعارض القرآن .

٥ — وفي هذا العهد أيضاً انفجرت دائرة المعرفة أمام الكتاب ، واتسع محيطها بما توفرت لإنضاجه همم الباحثين والمؤلفين في العلوم الإسلامية والدخيلة وبما تضافرت على جمعه جهود الرواة من قديم الأدب ومحدثه ، وبذلك لم يبق من شيء لا تطوله أيدي الكتاب ، ولا يملئون منه الصدور .

كل ذلك كان في هذا العهد ، وكله مما تأثر به الكتاب في صناعتهم فانتقلوا بالنثر إلى طور جديد ، تطالعنا من طلعته ملامح ظاهرة ، وقسمات تنادي على نفسها ، وتعلن عن موطنها ، بعد أن كان أكثرها خطوطاً مستترة مستخفية في آثار السابقين ، وما على الباحث عسر في وجدانها هناك ، فقد كانت بذورها الكامنة تتراءى في غضون الأساليب ، من حين إلى حين .

## ابن العميد وزعامة الكتاب :

احتفظت دواوين البويهيين في ذلك العهد بزعامة الكتاب ، ذاك لأن البويهيين سيطروا فيما سيطروا على العراق ، والعراق مهد الثقافة الإسلامية ، وصنعة الكتابة إنما تأصلت وتأثلت في حاضرة بغداد ، ولذلك لمعت دواوينهم بأعلام من الكتاب ، اتخذت منهم الدواوين الأخرى أسوة وقدوة ومثلا تحتذي صناعة الإنشاء .

وابن العميد أستاذ كتاب البويهيين ، يجمع على أستاذيته النقاد ، ويعقد له لواءها كل من اتصلوا به ، أو كتبوا عنه في عصره ، وفيم بعد عصره ، حتى الذين كانوا يشنأونه ويبغضونه ، ويوسمونه ذماً في عنجهيته وكبريائه ولا يسعهم

عند تقدير فنه وكتابته ، إلا التسليم بفضله وكفايته ، والفضل ماشهدت به الأعداء كما قيل منذ قديم .

وأبو حيان التوحيدى كان من أشد الكارهين لابن العميد ولتلميذه الصاحب ابن عباد ، وكان يغيظه منهما أن لم يجد لنفسه فى قلب أحدهما مكاناً ، فاستشفى منهما بكتاب ألفه للقدح فيهما ، وسماه «مثالب الوزيرين» وقد أوسعهما فيه ثلباً وتعييباً ، ولكنه — وهو الكاتب الخبير — ولم يجانف الاعتدال فى الحكم إلى آخر الشوط ، بل سلم لهما قصب السبق فى صنعة الكتابة ، وقال : « ولو أردت مع هذا أن تجد لهما ثالثاً ، فى جميع من كتب للجيل والديلم ، إلى وقتك هذا المؤرخ فى الكتاب لم تجد » .

وما يهمنا تحديد أبى حيان للزمان والمكان ، فلعله كان يستبق من الحق فضلة يصانع بها من يعاشرهم ، ومن سيعاشرهم فى بغداد ، ولا علينا إن أشرك معه فى حكمه الصاحب بن عباد ، فهو تلميذ ابن العميد وصنيعته ، والمعترف بسبقه عليه وتقدمه ، والقائل له ، وقد ورد عليه من بغداد ، فسأله عنها . فقال : «بغداد فى البلاد ، كالأستاذ فى العباد» وما أدرك ما بغداد فى تلك الأيام ، لقد كانت منبت الحضارة العباسية ، ورمز درعها التى رسخت فيه أصولها ، وتفننت فنونها ، فدوحتها بها آنذاك مزهرة مثمرة ، والمدن الناشئة تحاول وتجاهد فى استنبات ماتنقله من وسائلها وأشطانها .

وفيما ورثه ابن العميد وتلقاه عن أبيه فى صناعته ، وبذكائه اللماح ، وبخياله الشاعر المصور ، وبذهنه الهندسى المرتب ، وباتزانه الراجح ، وبثقافته الواسعة واطلاعه المستمر ، بذلك وغير ذلك من المؤثرات العامة فى عصره ، تأهب ابن العميد لعمادة الكتاب واهتدى إلى طريقته التى ائتموا بها واتخذوها قدوة .

فما هذه الطريقة ؟ وأين تقع منها أساليب غيره من معاصريه ؟ .

حياة ابن العميد ومواهبه فى الكتابة :

وابن العميد هو الفضل محمد بن الحسين ، وأصله فارسى من مدينة قم ، إحدى مدن القسم الجنوبى من بلاد فارس ، ولد فى أخريات القرن الثالث الهجرى

وارتقت به كفايته إلى أن استقر فى الذروة العليا من وزارة ركن الدولة البويهى وابنه عضد الدولة، واستمر بها منذ تولاها سنة ٣٢٨ هـ إلى أن مات عنها سنة ٣٦٠ هـ

وقد أهله لإمامة الكتاب فى زمانه، مؤهلات من: وراثته وبيئته، ومن استعداده الذاتى ومزاجه، ومن ثقافته الواسعة، واطلاعه الدائب الغزير.

١ — فهو لم يرث الكتابة عن كلالة كما يقول الثعالبى. بل انتقلت إليه عن أبيه ميراثا موروثا مع الدم، وتلقاها عنه بالثقافة والتمرين، فقد كان أبوه من قبله كاتباً بإحدى الولايات التى قام على أنقاضها ملك السامانيين. ثم تقلبت به الأحوال فى ديوانهم بخراسان، إلى أن صار رئيسه فى عهد نوح بن نصر ولقب بالشيخ وبالعميد، وكان لرسائله مكانة عند الخراسانيين، فجمعوها وتداولوها وكانت فى فنها وبلاغتها لا تقصر عن رسائل ابنه أبى الفضل كما ينقل الثعالبى عن أبى إسحاق الصابى.

من صلب هذا الكاتب الديوانى تحدر ابن العميد، وفى بيئته نشأ وترعرع وهو الذى تعهده ورباه وراشه وبراه، ولقنه كل ما تواضع عليه الكتاب من أصول الكتابة فى الدواوين.

٢ — وهو معتد بنفسه، لماح فى ذكائه، راجح فى عقله، متزن فى كل تصرفه، ويتبين ذلك فى طموحه منذ نشأته، فهو لم يعتمد فى بناء مستقبله على جاه أبيه، ولم يتوكأ عليه كما يتوكأ غيره من وكلة الأبناء، حيث يغفلون عجزهم وبلادتهم بغلاف من سلطان آبائهم، ويثبون إلى المناصب العالية بمعراج من شهرتهم، وإنما أراد أن يكون ابن نفسه، فترك أباه ينعم بالرياسة فى ديوان السامانيين، وشق طريقه بجهده وكده فى أكناف البويهيين، حتى وصل إلى غاية ما يتمناه ذوو الطموح والنفوس الكبار.

ويظهر كذلك مما ينسبه إلى مؤرخوه، فهو كما يذكرون أخرج كثيرا مما امتنع على القدماء من القوة إلى الفعل، واستنبط آلات غريبة لفتح القلاع والحصون وأسلحة عجيبة، وسهاماً تنفذ أمداً بعيداً، وتؤثر آثاراً عظيمة ومرائى تحرق على مسافة بعيدة غاية البعد.

ويتضح كذلك من سياسته ، فقد بناها على بعد النظر ، واستشفاف ماوراء الظواهر . وبذلك تمكن من حياطة الملك لركن الدولة وابنه ، وحفظه من التبدد والانتشار ، مع كثرة الطامعين وفساد الأعوان .

ثم يتجلى فى سيرته مع الناس ، فقد كان شديد الحذر ، يمهد لرجله موضعها قبل الخطو ، ولا يندفع فى إظهار عواطفه لأول لقاء ، بل يتأنى ويتريث حتى ينكشف له الخليط ، ثم يكون منه ما يكون من انبساط واقبال ، أو انقباض وإعراض ، ويظهر أنه كان يغالى فى هذه العادة ، فيضيق به من لا صبر له ، ويرميه بالتعالى والكبرياء ،

٣ — وهو غزير العلم ، بعيد آفاق المعرفة ، واسعة اطلاعه لقبه معاصروه بالجاحظ الأخير ، ونادوه بالشيخ والرئيس ، وقد مر بنا شيء من وصف ابن مسكويه له ، ومنه يتضح أنه لم يدع نبعا من منابع العرفان إلا نهل منه وعل ، فقد كان كما يقول، أجمع أهل زمانه لآلات الكتابة ، حفظا للغة والغريب ، وتوسعاً فى النحو والعروض ، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات ، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام . وكان على أرفع درجة فى تأويل القرآن وحفظ مشكلة ومتشابهه ، والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار ، ولا يدانيه أحد فى الهندسة ، والتعاليم والمنطق ، وعلوم الفلسفة ، والإلهيات منها خاصة ، ويختص بغرائب من العلوم الغامضة التى يحتاج فيها إلى أواخر علوم الهندسة والطبيعة ، كعلم الحيل ( الميكانيكا ) ويمتاز بلطف كف لم يسمح بمثله ، ومعرفة بدقائق التصوير وتعاط له بديع .

٤ — وهو على ثقل ما يحمل من شئون الحكم وشدة مايشغله فى حياطة الملك ، لا يكتفى بما اختزن فى صدره ، ولا يطلع روافد علمه ، بل كان دائم الإمداد له ، فلا يفتر عن شحذ ذهنه وصقله بمثاقفة جلسائه ومشافهتهم ، ولا ينى عن توسيع مداركه بالقراءة والاطلاع ، ولذلك اجتهد فى أن تزدهر حضرته دائماً بالأعلام فى مختلف الفنون ، وأن تزخرف خزانة كتبه بكل

جليل ونفيس وكانت الكتب أعز عليه من كل ما يملك .

خرج الخراسانيون عليه فى ثورة ونهبوا داره ، واصطبلاته ، وخزانته الموفرة الجامعة ، ولم يدعوا بها ما يرتفق به ، اللهم إلا خزانة الكتب فإنها سلمت من النهب فلما عاد كانت أول ما سأل عنه ، وكانت سلامتها عنده فوق ما فقد من مال ومتاع وفى ذلك يقول ابن مسكويه : « . . . فلما انصرف إلى منزله ليلا لم يجد ما يجلس عليه ولا كوزاً واحداً يشرب فيه ماء ، فأنفذ إليه ابن حمزة العلوى فرشاً وآلة ، واشتغل قلبه بدفاتره ، ولم يكن شىء أعز عليه منها ، وكانت كثيرة ، فيها كل علم وكل نوع من أنواع الحكم والآداب يحمل على مائة وقر وزيادة ، فلما رآنى سألنى عنها فقلت : هى بحالها لم تمسها يد ، فسرى عنه وقال : أشهد أنك ميمون النقيبة ، أما سائر الخزائن فيوجد منها عوض وهذه الخزائن هى التى لا عوض منها ورأيه قد أسفر وجهه . وقال : باكر بها فى غد إلى الموضوع الفلانى ، ففعلت ؛ بأجمعها من بين جميع ماله » .

## طريقة ابن العميد فى الكتابة :

أما الطريقة فهى كما قلنا تطور لطريقة العصر السالف ، وصل إليها ابن العميد بعد أن عبرت فى معابر من كتابة الجاحظ ، وكتابة الديوانيين ؛ وابن العميد من أشد الناس تعلقاً بالجاحظ ، وقد كان يميته من معاصريه أن يلقبوه بقلبه ، وهو كذلك كاتب تقلب فى الديوان ، بعد أن نسله كاتب ديوانى جرى فى عروقه دمه وشب فى كنفه ، وتفتح ذهنه على رسائله وفنه

ولكنه ـ ككل أديب ـ متأثر بعصره ، وما يحيط به من مظاهر الحياة واتجاهاتها ، ثم هو مع ذلك كله طموح ، صاحب شخصية متكاملة لا تكتفى فى الأخذ بمجرد التقليد والحكاية ، ولا ترضى عن عمل تصدره ، إلا إذا كانت ماثلة فيه .

لذلك جاءت طريقته ـ زلها ـ ببعض عناصره من كتابة الجاحظ ، وبعضها

من كتابة الديوانيين ، وبعضها عما وجه إليه عصره واستمداده الذاتى ، وفى هذا المزاج المختلط ظهرت شخصيته ظهوراً غير قليل .

١ — فهو يولى الموضوع من جهده مايضاهيه ، فيقسمه ويرتب أقسامه ويستوفى لكل قسم مايجليه من معان جزيئة ، ويتناول هذه المعانى بالتدقيق والتشقيق ، ويتعهد بالتفريع والتنويع ، ويولد بعضها من بعض ، ويقرن بعيدها بما يسوغه فى الأذهان من برهان ودليل ، أو شبيه ونظير ، وقد أعانه على ذلك ذهنه الدقيق وثقافته الفلسفية ، وتأسيه بالجاحظ تأسياً تحاشى فيه استطراده وانقياده لذهنه الجواب ، فجاءت معانيه مترابطة متماسكة ، محكمة النسق والترتيب .

ورسالته إلى بلكابن ونداد تشهد بما تقول ، وهى رسالة كتبها إليه ليستعيده إلى طاعة ركن الدولة بعد أن شق العصا وأعلن الخروج ، فلم يدع له بعدها منفذا ينفذ منه ، أو متحملا يستمرىء معه اللجاج فى العصيان ، وبهذا قوم من زيغة ، وفى ذلك يقول بلكا : « والله لقد أغنى كتابه عن الكتائب فى عرك أديمى ، واستصلاحى ، وردى إلى طاعة صاحبى » .

٢ — وهو يميل إلى معاودة المعنى ومرادفة المفردات والحل عليه ، وقد سبق الجاحظ إلى ذلك مدفوعا بطبع المعلم الذى يبدىء فيما يقرر ويعيد فاقتدى به تلميذه رغبة فى تثبيت معانيه وتأكيدها ، وإشباعا للنفس بعد الصوت واستراوحا لها بين المعانى المتزاحمة ، وتأتيا لما ييسره التكرار من تحقيق حلية صوتية بالسجع أو نحوه .

وانظر إليه حين يذكر بلكا بن ونداد بحاليه فيقول :

« وزعمت أنك فى طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها ، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حاليها ، وحلبت شطريها ، فنشدتك الله لما صدقت عما سألتك ، كيف وجدت مازلت عنه ؟ وكيف تجد ما صرت إليه ؟ ألم تكن من الأول

فى ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بليل ، وهواء ندى ، وماء روى ، ومهاد وطى ، وركن ركين، ومكان مكين ، وحصن حصين ، يقيك المتالف، ويؤمنك المخاوف ، ويكنفك من نوائب الزمان ، ويحفظك من طوارق الحدثان، عززت بعد الذلة ، وكثرت بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة . وأيسرت بعد العسرة ، واستغنيت بعد المتربة ، واتسعت بعد الضيقة . . . »

انظر فى هذه القطعة ، وتأمل قوله : « عرفت حاليها ، وحلبت شطريها » وقوله : « ركن ركين ، ومكان مكين ، وحصن حصين » . وقوله : « ويكنفك من نوائب الزمان ، ويحفظك من طوارق الحدثان » :

فهى جمل مترادفة ليس بينها فرق كبير ، ولكنها تفنن فى التعبير ، التماساً لما قلناه من زيادة التقرير للمعنى والترويح عن النفس ، وتحقيق ما حققه من ازدواج وجناس وسجع .

٣ — وعبارته تتألف من الفقر القصار ، وكان كذلك الجاحظ ، ولكنه زاد عليه بما يحاوله من المعادلة فى الوزن ، بين المفردات المتقابلة فى الجمل المتعاقبة فجاءت هذه الجمل متوازنة كما تتوازن أشطار الشعر لولا أنها ليست من بحوره، بل إنها تزيد على الأشطار بتوافق المفردات فى الميزان ، وقد يكون فى الروى فيأتى له الترصيع :

واقرأ لتعرف قوله : « فقد يغرب العقل ثم يثرب ، ويعزب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح . » أو قوله : « يكنفك من نوائب الزمان ، ويحفظك من طوارق الحدثان ، عززت بعد الذلة ، وكثرت بعد القلة . . . »

٤ — وعنايته بزينة البديع واضحة ، فقد نشأ نشأة ديوانية كما قلنا ، وشب بعــــد أن انتصرت البديعيات فى المعركة التى قامت بين اللغويين والشعراء ، وبعد أن اهتدى أنصاره إلى أوضاحه وشياته ، فأقبل عليه

إقبال متمكن ، يتحكم فى أنواعه ولا يستأسر لها ، فينثرها على جنبات أسلوبه مقترا حينا وسخيا حينا آخر ، فلا تحس فى حاليه تكلفا ، ولا قسرا ولا حيفا على المعنى ، وإنما هو تمكن واقتدار وطبع مطاوع ، ووفاء بحق المعنى قبل سواه .

وقد اصطنع جملة من ألوان البديع ، تجد أكثرها وقد دار فى كل رسائله ولا تكاد تخلو منه رسالة ، وذلك مثل الازدواج ، والسجع والترصيع ، والجناس والطباق ، والعناية بتصوير المعنى ، وتقريبه إلى الحس ، والاستعانة على ذلك بكثير من التشبيهات والاستعارات :

وبعض الألوان البديعية ـ وهو أقلها ـ يتراءى من حين إلى حين ، ويظهر فى بعض الرسائل دون بعض ، وذلك مثل الاقتباس وتضمين العبارة ما يناسب المعنى من أبيات الشعر وأشطاره ، ومن أظهر كتبه فى ذلك كتابه إلى أبى العلاء السروى يشكو من شهر رمضان .

ومثل الاشارة إلى بعض الكتب العلمية ، وأحداث التاريخ وأعلامه ، وذلك واضح فى رسالته السابقة أيضا ، وفى رسالة أخرى كتبها إلى أبى عبد الله الطبرى يعلن قطيعته ، بعد أن استحال ما بينهما من مودة ووئام ، إلى جفوة وخصام .

وهذه الرسالة تؤكد ماذهبنا إليه من تأثير ابن العميد بالجاحظ واحتذائه فهى تذكرنا برسالة التربيع والتدوير ، وأسلوبها المتهكم الساخر ، وماحوت من إشارات علمية وتاريخية ، حشدها الجاحظ هزءا وسخرية بأحمد بن عبد الوهاب ، ولكنها تثبت من ناحية أخرى اقتصاد ابن العميد ، وبعده عن إسراف الجاحظ المسرف فى تلك الإشارات .

ولاستعداد كل من الرجلين وطبيعته يد فيما ذهب إليه ، فابن العميد ـ وإن اتسعت آفاق معرفته ـ ولا يبلغ مبلغ الجاحظ ، ولا يدرك مداه فى محيطه الخضم وابن العميد يتروى فى إنشائه ، ويستعد له بالتحضير والتحبير ، والجاحظ صاحب

طبع حاضر ، وذهن حاضر ، يسعفه بماشاء من الأشباه والنظائر ، ويعينه على ما يريد من استقصاء واستقراء ، حتى لينذفع في بعض الأحيان إلى ما لا يحب من الاسترسال والاستطراد .

صور من نثر ابن العميد :

وما بقي من رسائل ابن العميد موزع على الكتب ، وقد فرق الحصرى بعضا منها على أماكنها المناسبة من كتابه « زهر الآداب » ، وأورد الثعالبي بعضا آخر مع تعريفه بابن العميد في « يتيمة الدهر » ، وسنورد هنا شيئا منها ، فارجع إلى غيره هناك :

١ — فصول من رسالته إلى بلكا بن ونداد :

( ا ) مطلع الرسالة :

كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ، فإنك تمدل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة ، وأدنى ذلك يحبط أعمالك ، ويمحق كل ما يرعى لك .

لا جرم أنى وقفت بين ميل إليك ، وميل عليك ، أقدم رجلا لصدك ، وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يدا لإصلاحك واجتياحك ، وأثنى ثانية لاستبقائك واصطلاحك ، وأتوقف عن امتثال بعض الأمور فيك ، ضنا بالنعمة عندك ، ومنافسه في الصنيعة لديك ، وتأميلا لفيئتك وانصرافك ، ورجاء لمراجعتك وانعطافك ، فقد يعزب العقل ثم يثوب ، ويعزب اللب ثم يثوب ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضاع الرأى ثم يستدرك ؟ ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو ، وكل ضيقة فإلى رخاء ، وكل غمرة فإلى انجلاء .

وكما أنك أتيت من إساءتك بما لم يحتسبه أولياؤك ، فلا بدع أن تأتى من إحسانك بما لا يرتقبه أعداؤك . وكلما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت

واخترت ما اخترت ، فلا عجب أن تلتبه انقباهة تبصر فيها قبح ما صنعت بسوء ما آثرت .

وسأقيم على رسمى فى الإبقاء والمماطلة ماصلح ، وعلى الاستيناء والمطاولة ما أمكن طمعاً فى إنابتك وتحكيما لحسن الظن بك ، فلست أعـــدم فيما أظاهره من إعذار ، وأرادفه من إنذار ، احتجاجاً عليك ، واستدراجاً لك ، فإن يشأ الله يرشدك ، ويأخذ بك إلى حظك ويسددك ، فإنه على كل شىء قدير ، وبالإجابة جدير .

(ب) فصل آخر منها :

وزعمت أنك فى طرف من الطاعة ، بعد أن كنت متوسطاً ، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حاليها ، وحلبت شطريها ، فنشدتك الله لما صدقت عما سألتك كيف وجدت مازلت عنه ، وكيف تجد ماصرت إليه ؟

ألم تكن من الأول فى ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بليل ، وهواء غذى ، وماء روى ، ومهاد وطى ، وركن ركين ، ومكان مكين ، وحصن حصين يقيك المتالف ، ويؤمنك المخاوف ، ويكنفك من نوائب الزمان ، ويحفظك من طوارق الحدثان ؟

عززت بعد الذلة ، وكثرت بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة ، وأيسرت بعد العسرة ، وأثريت بعد المتربة ، واتسعت بعد الضيقة . وظفرت بالولايات ، وخفقت فوقك الرايات ، ووطىء عقبك الرجال ، وتعلقت بك الآمال ، وصرت تكاثر ويكاثر بك وتشير ويشار إليك ، ويذكر على المنابر اسمك ، وفى المحاضر ذكرك .

ففيم الآن أنت من أمر ؟ . وما العوض عما عددت ، والخلف مما وصفت ؟ وما استفدت حين أخرجت من الطاعة نفسك ، ونفضت منها كفك ، وغمست فى خلافها يدك ؟ . وما الذى أظلك بعد انحسار ظلها عنك ؟ أظل ذو ثلاث شعب ، لا ظليل لا يغنى من اللهب ؟

قل : نعم كذلك ، فهو والله أكثف ظلالك فى العاجلة ، وأروحها فى الآجلة إن أقمت على المحايدة والعنود ، ووقفت على المشاقة والجحود .

( ح ) الفصل الأخير :

تأمل حالك ، وقد بلغت هذا الفصل من كتابى، فستنكرها والمس جسدك وانظر هل يحس ؟ . واجسس عرقك هل ينبض ؟ . وفتش ما حنا عليك هل تجد فى عرضها قلبك ؟ . وهل حلى بصدرك أن تظفر بفوت سريح ، أو موت مريح ؟ ثم قس غائب أمرك بشاهده ، وآخره بأوله .

٢ — فصل من رسالته إلى أبى عبدالله الطبرى : وقد ناب الجفاء بينهما مناب الصفاء ، وهو فى هذا الفصل يستمد دعوى الطبرى العلم مادة التقريع له والسخرية منه : « وهبك أفلاطون نفسه ، فأين ما سننته من السياسة ؟ فقد قرأناه فلم نجد فيه إرشاداً إلى قطيعة صديق .

فأحسبك أرسطاطاليس بعينه ، فأين ما رسمته من الأخلاق ؟ فقد رأيناه فلم تر فيه هداية إلى شىء من العقوق .

وأما الهندسة فإنها باحثة عن المقادير : ولن يعرفها من يجهل مقدار نفسه وقد ألحق عليه وله .

بل لك فى رؤساء العربية منا ريح مضطرب ، ولسنا نشاحك ، ولكن أتحب أن تتحقق بالغريب من القول ، دون الغريب من الفعل ؟ وقد اغتربت فى الذهاب بنفسك إلى حيث لا يهتدى للرجوع عنه ؛

وأما النحو فلن ترفع عن حذق فيه ، وبصر به ، وقد اختصرته أوجز اختصار ، وسهلت سبيل تعلمه على من يجهلك قدرة ، ويرضى بك أسوة ، فقلت : الغدر ، والباطل ، وما جرى مجراهما مرفوع ، والصدق ، والوفاء ، وما صاحبهما مخفوض ، وقد نصب الصديق عندك ، ولكن عرضا يرشق بسهام الغيبة ، وعلما يقصد بالوقيعة .

ولست بالعروضى ذى اللهجة فأعرف قدر حقك فيه . ألا أنى لا أراك تتعرض لكامل ولا وافر . وليتك سبحت فى بحر المجتث حتى تخرج منه إلى شط المتقارب » .

## أثر ابن العميد فى كتاب عصره

لقد عرفنا طريقة ابن العميد ، واستوضحنا خصائصها وسماتها ، وتبينا العوامل التى تأدت به إلى تكوين بنائها ، وقد عاصر ابن العميد ; وجاء بعده كتاب مشهورون يقع بعضهم قريباً منه فى المنزلة الكتابية إن لم يسامتوه ، ومن هؤلاء الصاحب بن عباد ، وأبو إسحاق الصابى ، وأبو بكر الخوارزمى ; وبديع الزمان الهمذانى ، وأبو الفضل الميكالى ، وعبد العزيز بن يوسف ، وأبو العباس الضبى ، وعلى بن محمد الإسكافى ، وأبو الفتح البستى ، وأبو منصور الثعالبى ، وأبو نصر العتبى ، وأبو هلال العسكرى ، وأبو العلاء المعرى ، وقابوس بن وشمكير ، وغيرهم كثير ،

ولكل من هؤلاء آثار كتابية باقية . ولرسائل بعضهم دواوين يتداولها الناس ، فأين تقع كتابة ابن العميد من أساليب هؤلاء الكتاب ؟

لتكون على بينة من جواب هذا السؤال يجب أن تتنبه لأمرين :

أحدهما : تلك المؤثرات العامة التى تحدثنا عنها آنفاً ، وقلنا إن كتاب العصر البويهى كانوا خاضعين لها فى صناعتهم ، فهذه المؤثرات كان لها دخل كبير فى توجيه ابن العميد إلى طريقته ، ولا شك أنها أثرت فى غيره من الكتاب كما أثرت فيه ، وأقل ما يفترض لها من تأثير أنها تجعل غير ابن العميد على استعداد لتلقى طريقة ابن العميد ، وأنها تهيء كتاب العصر لاصطفائها ومحاذاتها ، وإن اختلفت مظاهر المحاذاة باختلاف المزاج والطبع والاستعداد الذاتى لكل أديب .

والأمر الآخر : ما ذكرناه أيضاً عن منزلة ابن العميد بين الكتاب ،

فقد كان له من جاهه السياسى ، ومكانه الاجتماعى واقتداره الكتابى ، مادفع الكتاب إلى أن يلقبوه بالأستاذ والرئيس ، وأن يتخذوه إماماً وقدوة ، ومضاهاة رسائل كثير منهم برسائله التى اتحدت معها فى الموضوع ، ترينا أن تأسيهم به كان يذهب إلى حد بعيد .

ونورد من آيات هذا الكتاب الذى بعثه بديع الزمان إلى بعض أهل همذان :

« كتابى - أطال الله بقاءك - عن شهر رمضان ، عرفنا الله بركته ، ويمن خاتمته ، وخصك بتقصير أيامه ، وإتمام صيامك وقيامه ، فهو وإن عظمت بركته ، ثقيل حركته ، وإن جل قدره ، بعيد غوره ، فإن حسن وجهه ، فليس يقبح قفاه ، وما أحسنه فى القذال ، وأشبه إدباره بالإقبال .

جعل الله قدومه سبب ترحاله ، وبدره فداء هلاله ، وأمد فلكه تحريكا ، يقضى مدته وشيكا ، وأظهر هلاله نحيفاً ، ليزف إلى اللذات رقيقاً ، وعفا الله عن مزح يكرهه ، ومجون يسخطه » .

وهو كما نرى يعول كثيراً على كتاب ابن العميد السابق إلى أبى العلاء السروى ، وقد أشار إلى ذلك من قديم صاحب زهر الآداب :

وهـــذه أمارة أخرى من آثار ابن العميد فى الكتاب ، وهى رسالة أخرى لبديع الزمان أيضاً كتبها إلى أخيه ،

« كتابى - أطال الله بقاءك - ونحن - وإن بعدت الدار - فرعا نبعة ، فلا تخيين بعدى على قربك ، ولا تمحون ذكرى من قلبك ، فالإخوان — وإن كان أحدهما بخراسان ، والآخر بالحجاز - مجتمعان على الحقيقة ، مفترقان على المجاز ، والاثنان فى المعنى واحد ، وفى اللفظ اثنان ، وما بينى وبينك إلا ستر ، طول فتر ، وإن صاحبى رفيق ، اسمه توفيق ، لنلتقين سريعاً ، ولنسعدن جميعاً ، والله ولى المأمول » .

فهى فى جملتها وتفصيلها تنظر إلى رسالة ابن العميد إلى بعض إخوانه :

« قد قرب - أيدك الله - محلك على تراخيه ، وتعاقب مستقرك على تنائيه . لأن الشوق يمثلك ، والذكر يخيلك ، فنحن فى الظاهر على افتراق وفى الباطن على تلاق ، وفى التسمية متباينون ، وفى المعنى متواصلون ، ولئن تفارقت الأشباح ، لقد تعانقت الأرواح » .

ولا نسترسل إلى أبعد من هذا ، ويكفينا رعاية ما نبهنا له من الأمرين السابقين إجمالا من غير تفصيل ، ليسهل علينا الجواب عن ذاك السؤال .

وأظنه قريب التناول الآن ، فلهذين الأمرين كانت كتابة ابن العميد بين أساليب معاصريه والآتين على عقبه ، كالأم بين بناتها ، تتشابه القسمات والملامح ، وتنزع كل منهن إليها بعرق ، وتأخذ منها بشبه غير قليل ، بعبارة أخرى ، كانت هى « اللوحة » يتجلى فيها الفن من عبقرى فذ ، ثم يتوارد عليها تلاميذه المخلصون بالمحاكاة والتقليد ، فيحسنون الأخذ ، ويحافظون على المعالم الأصلية فى الصورة ، وإن عنوا بإبراز الخطوط وإظهار الألوان .

والألوان والخطوط هنا هى البديعيات ، فهم لا يقلون عنه عناية بموضوع الرسالة ومعانيها ، ولا يقصرون فى تقطيع العبارة إلى فقر قصيرة متساوية ، ولا فى تنغيمها تنغيما لا يقتصر عن نهايات الجمل ، بل ينظر معها إلى الداخل ، فينفذ إليه بالمعادلة بين المفردات فى الميزان ، وينال العبارة من ذلك ما ينال من وقع موسيقى جميل .

وهو كما بينا كان يدخل صنعته البديع فى حسابه ولا ينساها ، وهم كذلك معنيون بها ، وقد يسبقه بعضهم ، حتى ليكاد يخيل إليك أنه يختص البديع بكل حساب ، ولكنهم فى الجملة يلتقون معه فى طريقه ، ويقعون قريباً منه ، فهو وهم فى طريق منزلة بين المنزلتين ، هو قريب من الاعتدال والاقتصاد ، وهم قريب من الغلو والإسراف .

ألوان من صنعة ابن العميد وتأثر الكتاب بها :

١ — كان السجع مما يصطنع ابن العميد ، وقد يعنى به فيشمل بعض

رسائله القصار ، وقد يراعيه فى قطع رسائله الطوال ، تقصر أو تطول . ولكنه لم يلتزمه التزام غير مقارن ، كما كان يصنع سواه ، بل يهمله فى بعض من الأحيان ، ويستعيض عنه بالازدواج .

وليس فى كتاب هذا العصر من كان يراوح نثره بين السجع والمزاوجة كابن العميد ، إلا أبو حيان التوحيدى ، وأبو هلال العسكرى ، أما سائر الكتاب فقد كانوا يلتزمون السجع التزاماً ، ويتخذونه لإنشائهم طابعاً ، حتى لقد تعدوا به الرسائل الأدبية إلى الموضوعات العلمية ، وقد كتب كل من الخوارزمى ، وابن عباد رسالة فى الطب لم يخلها من السجع ، بل نقلوه إلى لغة التأليف ، والتزموه فى الكتب الطوال ، فقدم به الثعلبى لفصول اليتيمة ، وجرى عليه الصحابى فى كتابه « الناجى » وهو كتاب أرخ فيـــه لبنى بويه ، وكذلك العتبى فى كتابه « اليمينى » الذى كتبـــه فى بعض تاريخ الغزنويين .

وقد يبلغ بعضهم فى غرامه بالسجع مبلغاً يلفت إليه الأنظار ، ويجعله حديث الناس ، والصاحب ابن عباد واحد من هؤلاء . يصل من ولعه به إلى الحد الذى يصوره أبو حيان التوحيدى فى قوله عنه :

كان كلفه بالسجع فى الكتابة والقول ، عند الجد والهزل ، يزيد على كلف كل ما رأيناه فى هذه البلاد .

قلت لابن المسيبى : أين يبلغ ابن عباد فى عشقه للسجع ؟ ،

قال : يبلغ به فى ذلك لو أنه رأى سجعة تنحل بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ، ويحتاج من أجلها إلى غرم ثقيل ، وكلفة صعبة ، وتجشم أمور ، وركوب أهوال ، لما كان يخف عليه أن يفرج عنها ويخليها ، بل يأتى بها ، ويستعملها ، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها » .

ويظهر أنهم كانوا يختلقون الروايات ليتندروا عليه بهذا الغرام كما كان يصنع أسلافهم بالوزير الخاقانى ، وليس إلا من باب التندر - فى نظرنا -

ما ينسبونه إلى الصاحب ، من أنه عزل أحد قضاته بسجعة ، إذ قال يوماً كما يدعون « أيها القاضى بقم » فلما أعيته القرينة الثانية للسجع قال : « قد عزلناك فقم » ومثله فى الفكاهة ما يسندونه إلى أستاذه ابن العميد أنه قال : « خرج ابن عباد من عندنا من الرى ، متوجهاً إلى أصفهان ، وطريقه رامين ، فجاوزها إلى قرية غامرة وماء ملح ، لا لشيء ، إلا ليكتب إلينا : « كتابى هذا من النوبهار ، يوم السبت فى نصف النهار ».

وأشد من الصاحب قابوس بن وشمكير ، فقد أقبل على السجع أيما إقبال ، وفننه إلى فنون ، استخرجها عبد الرحمن بن على اليزدادى فى كتابه « كمال البلاغة » فكانت أربعة عشر نوعاً من السجع .

وأغرب من الصاحب وقابوس أبو العلاء المعرى ، فقد ألزم نفسه ما لا يلزم فى السجع ، ولم يقنعه توافق القرينتين فى روى واحد ، فالتزمه فى حرفين وأكثر من حرفين ، وشق على نفسه فى ذلك ، وفى مداخلة بعض السجع فى بعض ، حتى اندفع إلى الاغراب والوحشية ، وتعقدت رسائله وكتبه ، ومنها رسالة الغفران الفصول والغايات .

والغاية أنهم أحلوا السجع من اهتمامهم محلا رفيعاً فتفننوا فيه ، وتسابقوا فى تفننهم إلى أبعد غاية ، ولذا تركنا اعتساف أبى العلاء وإغرابه ، وتحولنا عن تعصب قابوس وتشدده ، وجدنا لغيرهما فى السجع كثيراً من الحسنات وناهيك فى اللطف والخفة والرشاقة بسجع بديع الزمان .

٢ — وشأنهم فى الطباق شأن ابن العميد ، وقد يكون ذلك لأن المعنى يتحكم فيه ، فما يقتضيه المقام فلا سبيل إليه ، اللهم إلا أن يكون العمد والاقتسار ، وهذا مالم يقعوا فيه .

٣ — أما الجناس فقد أربوا على ابن العميد فى تناوله ، فتنوعت لديهم أنواعه وفنونه ، واشتد إقبال بعضهم عليه حتى عرف به ، ومنهم أبو الفتح البستى الذى يورد الثعالبى كثيراً من تجنيسه ، ويقول فيه : « وهو صاحب الطريقة الأنيقة ، فى التجنيس الأنيس ، البديع المأنوس ، وكان يسميه المتشابه ، ويأتى فيه بكل طريقة لطيفة ».

٤ — وكذلك التضمين ؛ فقد اتسع لهم فيه مالم يتسع لابن العميد ، وبخاصة أولئك الذين امتلأت صدورهم بالحفظ والرواية ، أمثال الخوارزمى وبديع الزمان ، فرسائلهما تموج بما تضمنت من أبيات تناسبها .

وقد تطغى الأبيات وأشطارها فى بعض الرسائل ، وتزيد ما استعاره صاحبها من شعر ، على ما أنشأته قريحته من نثر . ولكنه يتلطف فى التنسيق والملاءمة فنذكره بالإحسان .

ومن أبرع من عرف بذلك بديع الزمان ، فقد كان طويل الباع دقيق الصنع ، يحسن الاختيار ، ويتأنق فى التأليف ، ويحكم النسج والربط ، حتى ليخيل إليك — إن لم تكن عارفاً — أنه صاحب ما استعار ، وتكاد — إن كنت راوية — تنسى أصحاب تلك الأبيات والأشطار .

ويكفينا من شواهد براعته فى ذلك كتابه هذا الذى بعث به — أول ما بعث — إلى أبى بكر الخوارزمى ، ليستعد للقائه بنيسابور :

أنا لقرب الأستاذ أطال الله بقاءه :

« كما طرب النشوان مالت به الخمر »

ومن الارتياح للقائه :

« كما انتفض العصفور بلله القطر »

ومن الامتزاج بولائه :

« كما التقت الصهباء والبارد العذب »

ومن الابتهاج بمزاره :

« كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب »

فكيف ارتياح الأستاذ لصديق طوى إليه ما بين قصبتى العراق وخراسان ، بل عتبتى نيسابور وجرجان ؟ وكيف اهتزازه لضيف فى بردة جمال ، وجلدة جمال ؟

وقد كان معاصروه يحاولون مجاراته فى ذلك ، ولكنهم لا يصلون ـ على إجادتهم ـ شأوه ، ولا يبلغون مداه فى الإحكام ودقة الصنعة ، ويقرب هذا الحكم بمقابلة كتابه السابق ، على هذا الفصل من رسالة لأبى الفضل عبيد الله ابن أحمد الميكالى :

أنا فى مقاساة حر الشوق إليك :

« كما اعتاد محموماً بخيبر صالب »

وفى تذكر الاجتماع بك :

« كما اهتز من صرف المدامة شارب »

وفى تكلف الصبر عنك :

« كطالب جدوى خلة لا تواصل »

وفى القلق لفراقك :

« كطائر جو أعلقته الحبائل »

فبديع الزمان كما يبدو ، أصنع من الميكالى ، بما حققه من مزاوجة بين الارتياح وامتزاج ، وابتهاج ، ثم بين بقائه ، ولقائه ، وولائه ، ومزاره وبما حققه من سجع داخلى بين البقاء ، واللقاء والولاء .

٥ — وكذلك إيراد الأعلام والإشارة إلى حوادث التاريخ وحقائق العلوم ، فتح لهم بابها الجاحظ برسالة التربيع والتدوير كما أشرنا من قبل ، وتبعه بن العميد فى رسالته إلى أبى عبد الله الطبرى . فكان متخففاً غير مثقل ، ولكن غيره أحيا ذكرى الجاحظ فى الإكثار والاستقصاء ، والمثل فى ذلك الخوارزمى وأبو العلاء :

فالخوارزمى يكثر من حشد الأعلام والإحالة على التاريخ ، ورسائله تزخر بهذا النوع ، ومن أحفلها به رسالة طويلة يعبث فيها بأبى الحسن البديهى الشاعر ويتناوله بالسخرية والتهكم ، كما تناول الجاحظ أحمد ابن عبد الوهاب الثقفى ، ويحذو حذوه فى التربيع والتدوير . وأبو العلاء

يوغل فى تناول حقوق العلوم ومصطلحاتها فى بعض رسائله ، فتبدو متوعرة ثقيلة ، وتجهد الذهن بكثرة ما فيها من عقد علمية ، إن ساغت فى ذوق العارف بها على جفافها ، مجها ذوق غيره لما فى محاوله فهمها من إعنات وإرهاق ، وجرب حظك فى تفهم رسالته التى سبقت فى غير هذا المكان .

٦ — ولنستكمل صورة الكتابة فى العهد البويهى نشير إلى ظاهرة كانت متجلية فى كتابتهم عامة ، وهى شيوع الخيال الشعرى فيها ، وكثرة أدوات التصوير البيانى ، من تشبيه واستعارة ، وتمثيل .

وقد عرفنا مما سلف أن أكثرهم كانوا مع اصطناعهم الكتابة شعراء ، وأن صدورهم كانت تفيض برواية الشعر الغزير ، وأنهم يميلون إلى توشيح الرسائل بالأبيات والأشطار مما يحفظون أو بما ينشئون ، وهذه كلها أمور يسهل معها على أقلامهم أن توشى الصحائف ، وأن تملأها بالشعر لولا أنه منثور .

وهذه قطعة من رسالة لبديع الزمان ، يشكو صاحب فضل ونعمة ، فاقرأها وتمل بما فيها من خيال بديع :

« فيما يقول الناس من حكاياتهم ، أن أعرابيا نام ليلا عن جمله ففقده فلما طلع القمر وجده ، فرفع إلى الله يده ، فقال : أشهد لقد أعليته ، وجعلت السماء بيته . ثم نظر إلى القمر ، فقال : إن الله صورك ، ونورك ، وعلى البروج دورك ، وإذا شاء كورك ، فلا أعلم مزيداً أسأله لك ، ولئن أهديت إلى قلبي سروراً ، لقد أهدى إليك الله نوراً .

والشيخ ذلك القمر المنير ، فقد أعلى الله قدره ، وأنفذ بين الجلود واللحوم إليه أمره ، ونظر إلى الذين يحسدونه ، فجعله فوقهم وجعلهم دونه ... » .

إجمال وتلخيص :

هذه أظهر الخصائص الكتابية فى عهد البويهيين ، رأينا كيف تناولها

ابن العميد ومشايعوه ، وقد ظهر إلى جانبها أمور أخرى . لا يقصد بها إلى تحقيق زينة فى اللفظ ، أو مزيد عناية بالمعنى ، بل يكون القصد كله إظهار البراعة والمهارة وسعة الحيلة والتباهى بعمل ليس وراءه إلا الجناية على اللفظ والمعنى والإسفاف فيهما .

تلك هى الأمور التى عاب بها بديع الزمان أبا بكر الخوارزمى وتحداه أن يأتى بمثلها كإنشاء كتاب يقرأ منه جوابه ، أو كتاب يقرأ من آخره إلى أوله ، أو كتاب إذا قرىء معرجا وسرد معوجا كان شعرا ، أو كتاب لا يوجد فى أى كلمة منه حرف ينفصل كالدال والراء ونحوهما ، أو آخره يخلو من الحروف العوامل ، إلى غير ذلك مما سماه الخوارزمى ـ وحق له أن يسميه ـ شعبذة .

غير أنها ـ لحسن الحظ ـ لم تجد من رجال هذا العهد إقبالا ، بل لعلها لم يحتفل بها منهم غير بديع الزمان ، فهو الذى تولى كبرها ، وهو الذى فتح بها لكتاب العهد التالى أبوابا من الاعتساف ، دخل منها على صناعتهم الضعف والهزال .

## الكتابة بعد العهد البويهى

### حالة الكتابة والكتاب بعد العصر البويهى :

عرفنا فيما سلف أن حظ الكتاب بعد العهد البويهى . لم يكن من الناحية الاجتماعية أقل ولا أدنى من حظ إخوانهم السابقين ، فقد نالوا مثلهم الحظوة والمقام الرفيع ، وظل النبوغ الكتابى يصل بهم إلى منصب الوزارة ، ويدر عليهم الرزق الوفير ، ويهيىء لهم حياة الترف والعيش الرغيد .

ولكنهم ـ على ما يظهر ـ كانوا دون أسلافهم فى الاستعداد المهنى ، وبذلك لم يكن لهم مثل كفايتهم الكتابية ، ولا مثل مقدرتهم فى الإنشاء ، بل يبدو أن محصل جمرتهم من علوم اللغة ـ وهى أساس عملهم ـ كان أدنى

بكثير من أن يخرج كفاة يستقلون بهذا العمل ، دون أن يراجع عاملهم فيه خبير بأصول العربية وقواعدها ، ومن هنا دلف علماء اللغة والنحو إلى دواوين الإنشاء ، حيث يتوسدون فيه منصب التصفيح ومراجعة الرسائل ، فلا يخرج عن الديوان كتاب دون أن يمر على أحدهم ، فيتأمله ويفليه ، ويتناوله بالتصحيح والتقويم .

صحيح أن بعض دواوين العصر البويهى ، كان قد اضطر إزاء ضعف كتابه عن الوفاء بحق اللغة ، إلى استخدام المصححين من اللغويين ، أمثال : إبراهيم بن على الفارسى ، ومحمد بن موسى الرامى ، وهما نحويان كانا يتوليان تصفح الرسائل وتنقيحها وراء كتاب الدولة السامانية فى بخارى ولكن ذلك — على قدر ما وصل إليه علمنا — لم يكن إلا فى الأقطار النائية ، حيث دبت الحياة من جديد فى لغات سكانها الأصليين ، فانكمشت اللغة العربية وتضاءلت ، وسادت اللغات الأعجمية بين الأهلين ؛ وكادت تصرعها وتمحقها فى عمل الدواوين . أما فى هذا العهد فقد احتاج إلى الاستعانة بالمتصفحين المصححين ، فى والدواوين العربية القائمة فى قلب الرقعة الإسلامية ، وفى المواطن التى قضت العربية فيها على لغاتها الأصلية ، وحلت محلها فى الدواوين ، وفى التأليف ، وفيما تدور به ألسنة الناس عند التخاطب . احتاجت هذه الدواوين إلى خبرة العلماء ، فكان طاهر بن بابشاذ المتوفى سنة ٤٦٩ هـ ، وعبد الله بن برى المتوفى سنة ٥٨٢ هـ ؛ وهما نحويان — كانا ممن ولوا تصفح المكاتبات وتصحيحها بدواوين مصر أيام الفاطميين والأيوبيين .

ومع ذلك لم يكن يعدم الكتاب فى ذلك الزمان ، أن ينبغ من بينهم بالقياس إليهم من يرفعهم نبوغهم هذا إلى أسنى المناصب كما كان يرتفع السابقون .

ونقول بالقياس إليهم ، لأنه كان لا يقاس بحظ أسلافهم من النبوغ ، وأعدل شاهد على ذلك مقابلة الأثر بالأثر ، فهى تنطق بالفرق الكبير بين أقدار أولئك وأقدار هؤلاء :

وهم على أي حال كانوا يستعدون لصناعتهم ، ويبذلون فى التأهب لها جهدهم ولكنه جهد المقل إذا قيس بما كان السابقين عليهم فى هذا الباب ، ولعلنا نذكر شيئاً مما عرفنا بعضه عن ثقافة ابن العميد الواسعة وعلمه الغزير ، أو ما أشرنا به إلى امتلاء الخوارزمى من الرواية لعيون الأدب ، وبخاصة الشعر ، فهل وصل واحد من هؤلاء إلى قليل مما كان لأحدهما ، أو لواحد ممن كانوا يقرنون بهما فى كمال الاستعداد ، أمثال أبى حيان التوحيدى ، والصاحب بن عباد ، والصابى ، وبديع الزمان ؟ . ليكن لنا من القاضى الفاضل قياس ، فهو أمثل من خرجهم هذا الزمان : ما كان مقدار استعداده لصنعة الكتابة ؟ وبم أعد نفسه للعمل فى الديوان ؟ :

لقد سأله الموفق بن الخلال كبير كتاب الفاطميين عن ذلك حين أراد الالتحاق بالديوان ، فاسمع منه الجواب :

قال القاضى : « لما مثلت بين يديه ، وعرفته من أنا ، وما طلبتى ، رحب بى وسهل ، ثم قال لى : ما أعددت لفن الكتابة من الآلات ؟ فقلت : ليس عندى شىء سوى أنى أحفظ القرآن الكريم ، وكتاب الحماسة ، فقال : فى هذا بلاغ ، ثم أمرنى بملازمته ، فلما ترددت إليه ، وتدربت بين يديه ، أمرنى بعد ذلك أن أحل شعر الحماسة ، فحللته من أوله إلى آخره ، ثم أمرنى أن أحله مرة ثانية فحللته » .

وحفظ القرآن لا ينفرد به القاضى الفاضل دون أقرانه ، فتحفيظ القرآن كان أول ما يؤخذ به الناشئون ، ويستفتح به التعليم فى تلك الأيام ، حتى غير المسلمين كانوا يستظهرونه ، ويستعينون به على التأديب ، وأبو إسحاق الصابى ، من كتاب العهد البويهى ، كان على صابئيته حافظاً للقرآن كله ، عارفاً بعلومه وأحكامه ومشكله وغريبه ، وكان يستمد منه فى كتابته ويحسن الأخذ والاقتباس .

فأى شىء يبقى للقاضى الفاضل إذا أخرجنا حفظ القرآن من الحساب ؟ .

إنه ديوان الحماسة ، فأين يقع شعر هذا الديوان من ذخيرة الخوارزمى الذى راجع الصاحب بن عباد ، ليسأله عن شرطه فى لقاء الوارد عليه أن يكون حافظاً عشرين ألف بيت من الشعر ، راجعه ليسأل عن هذا : من شعر الرجال هو أم من شعر النساء ؟ .

سمات الكتابة فى هذا العصر :

وأياً ما كانت أقدار الكتاب واستعدادهم الفنى فى هذا العصر ، فقد ورثوا الكتابة عن العهد البويهى ، وهى على النحو الذى وصفناه من قبل ، فتقيلوا كتابه وترسموا خطاهم ، لا فيما كان لهم من قوة الأداء ، واستمساك العبارة ، فما كانت كفايتهم تمدهم بشىء من ذلك ؛ ولكن غرهم البهرج ، وخدعتهم الزخارف ، وأخذهم بريق البديع ، فطاروا وراءه ، يحتالون على اقتناصه ، ويستكثرون من حلاه ، وكأنهم يتعوضون بذلك الصنع عما يتغطى به ، ويستتر تحته من تقصير وضعف فى التعبير .

القاضى الفاضل وطريقته :

وألمع الكتاب نجماً فى هذه الفترة هو القاضى الفاضل ، فقد اعتبره النقاد بين كتابها بمثابة ابن العميد بين كتاب العهد السابق ، ونسبوا إليه الطريقة الكتابية الشائعة فى زمانه ، وسموها الطريقة الفاضلية ، وذاك لأنه كان أرسخ فى الكتابة قدماً ، وأقوى أسلوباً ، إذا قيس على كتاب العهد السلجوقى عامة ولأنه من ناحية أخرى بلغ من المنزلة الاجتماعية ، ونال من الجاه السياسى قريباً مما بلغ ونال ابن العميد .

والقاضى الفاضل هو عبد الرحيم بن على البيسانى ، ولد فى عسقلان من بلاد الشام سنة ٥٢٩ هـ . ثم قضى طفولته وترعرع فى بلد آخر من بلاد الشام ، وهو بيسان ، حيث كان يتولى أبوه فيها خطة القضاء ، ثم عزل أبوه فارتحل به إلى مصر وهناك وجهه إلى العمل فى ديوان الإنشاء .

والرواة لا يحددون السنة التى دخل فيها القاضى الفاضل مصر ، ويختلفون

فى تعيين الخليفة الذى جاءها فى عهده ، بين الحافظ ( ٥٢٤ — ٥٤٤ هـ ) والفائز ( ٥٤٤ — ٥٤٩ هـ ) فإذا جاز لنا أن نستفيد من هذا الخلاف ، رجحنا أنه جاء فى سنة ٥٤٤ هـ ، وأن اللبس فى تعيين أى الخليفتين ، إنما دخل على الرواة من هذه السنة بالذات ، لأنها اشتركت بين العهدين وكان لها فى كل واحد منهما نصيب .

وأيا ما كانت السنة فقد دخل القاضى الفاضل مصر ، وقد درج فى طور الشباب واتجه من فوره يطلب العمل فى ديوان الإنشاء ، وليس معه من أهبة الكتابة إلا حفظ القرآن وكتاب الحماسة ، كما ذكر فى جوابه على سؤال الموفق ابن الخلال ، وبدأ تدريبه بحل أشعار الحماسة مرة بعد مرة . وتلقى نصائح الكتاب المجربين من أمثال الموفق بن الخلال ، والأسعد بن قادوس .

ويظهر أن طموحه كان يتعجله عن أن يطيل فترة التدريب ، فلم يتلبث فى ديوان القاهرة الزاخر بأماثل الكتاب ، لأنه أوسع من أن يسرع نجمه باللمعان فيه ، ولذلك عند ما آنس فى نفسه شيئاً من الكفاية والقدرة على الاستقلال ، سافر إلى الإسكندرية ، وتولى الكتابة لمكين الدولة أحمد بن عبد المجيد المعروف بالقاضى ابن حديد .

ولا شك أنه أفاد فى صناعته وفنه من هذه البيئة الجديدة ، أفاد من التجارب التى دفعه فى مضايقها انفراده بالعمل واستقلاله ، وأفاد من الروضة الأدبية المزهرة التى كان فيها ابن حديد ، فقد كان - كما يقول المقريزى - يحتذى أفعال البرامكة فى احتضان الأدباء . فاختص به جماعة من نابغى الشعراء ، منهم أمية ابن عبد العزيز بن أبى الصلت ، وظافر بن الحداد :

وقد كانت صلته بابن حديد سبباً فى اتصاله مرة أخرى بديوان الخلافة ، ذلك لأن براعته فيما كان يكتب عن قاضى الإسكندرية ، لفتت إليه أنظار القاهرة فاستقدمه الخليفة الظافر فيما يقال ، واستخدمه فى الديوان ، فكان ذلك الاستقدام فاتحة الخير عليه .

كان فاتحة الخير ، لأنه تم استعداده المهنى ، واستكمل دربته الفنية ، بطول ما لازم الموفق بن الخلال رئيس الديوان ، فقد اختاره للكتابة بين يديه ، وحباه بخبرته وإرشاده إلى أن مات الموفق سنة ٥٦٦ ﻫ .

وكان فاتحة الخير لأن وجوده فى ديوان القاهرة كان سبب اتصاله بالأيوبيين فنال فى دولتهم فوق ما كان يشتهى من الغنى والجاه والسلطان ، ولعله لو بقى فى الإسكندرية ولم يعد إلى القاهرة ما تهيأ له هذا الاتصال .

وأول اتصال القاضى الفاضل بالأيوبيين ، كان مع أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين ، فإنه اتخذه كاتباً له مدة وزارته للعاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، ثم استمر هذا الاتصال مع صلاح الدين ، فاستبقاه كاتباً له وهو وزير بعد عمه أسد الدين ، ثم صيره وزير الدولة الأيوبية ومشيرها ، ورئيس ديوانها ، فكان له ذلك كله مدة ملك صلاح الدين ، والعزيز ، والمنصور ، إلى أن توفى فجأة فى أول أيام العادل سنة ٥٩٦ ﻫ .

وكأنما استبقاه صلاح الدين فى الكتابة له وهو وزير ، ليظهر القدر لكل من الرجلين ما اختبأ من سعده فى ضمير الغيب ، أما القاضى الفاضل فقد رأينا ما آل إليه أمره من جاه وسلطان فى دولة بنى أيوب ، وأما صلاح الدين فإنه استفاد من كفاية القاضى ، واستعان به وبتدبيره ، فى تحويل مصر والشام إلى ملك خالص له ولأهل بيته من بعده ، فكان له منه ما أراد وكان من أبلغ ما شكر به نعمة القاضى عليه ، قوله لأنصاره : « والله ما ملكت البلاد بسيوفكم ، ولا برماحكم ، ولكن بقلم القاضى الفاضل » .

## طريقته وما وجهه إليها :

فقلم القاضى — إذن — عمل فى تأسيس الدولة الأيوبية مالم تعمله السيوف والرماح ، وهو — مع ذلك — القلم الذى استوجب الثناء البالغ من كل من كتبوا عنه ، فجعلوه إمام الأقلام ، واتخذوا من طريقته المثل الأعلى فى زمانه ، والقياس الذى تقاس به كتابة الكتاب ، فأى طريقة كانت طريقة هذا القلم ؟ .

أما الطريقة فهى العناية المسرفة فى اقتناص حلى البديع ، والترصد لزخارفه ومراكمة الصور البيانية والإفراط فيها ، فهو يقبل كل الإقبال على السجع والجناس والاقتباس ، ويتكثر كثيراً من الاستعارات والتشبيهات ، ولا ينسى مع ذلك الطباق ، والتورية ، والتضمين ، وغيرها من أصباغ البديع التى تنوعت حينذاك .

وفى سبيل تلك الزخارف وتحقيقها تتسع عليه العبارة ، فيردف الجملة بأخريات فى معناها ، وتكثر فى أسلوبه الجمل الفرعية لا يدفعه إلى ذلك مقتض من المعنى ، وإنما يدفعه الرغبة فى تحقيق حلية لفظية ، أو إعطاء صورة من صور البيان .

## طبقات الكتاب فى عصر القاضى الفاضل :

أما بقية الكتاب فما كانوا يقلون عن القاضى الفاضل فى التماس البديع ، بل لعلهم كانوا أشد منه إسرافاً فيه ، وتكلفاً له ، حتى صارت الرسائل ، بل الكتب العلمية ، وكأنها وسائل لتحقيق تلك الزخارف اللفظية ، فهى القصد والغاية عند الإنشاء ، وإن كتمت أنفاس المعانى وكدت الذهن فى استخلاص المراد .

وهذا الإمام عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ هـ ، يهوله ما رأى من ترصد الأدباء لزخرف البديع ، وإقبالهم عليه ، وتصنعهم له ، فيقول فى كتابه « أسرار البلاغة » :

« قد تجد فى كلام المتأخرين الآن كلاما حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم فى البديع ، إلى أنه ينسى أنه يتكلم ليفهم ، ويقول ليبين ، ويخيل إليه أنه إذا جمع بين أقسام البديع فى بيت ، فلا ضير أن يقع ماعناه فى عمياء ، وأن يوقع السامع من طلبه فى خبط عشواء ، وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده ، كمن يثقل على العروس بأصناف الحلى ، حتى ينالها من ذلك مكروه فى نفسها .. »

وعبد القاهر يقول ذلك وهو فى مطالع العهد ، وموج التصنع لبهارج الزينة لم يشتد أتيه ، ولا ندرى ماكان يقوله لو امتد به العمر فرأى ما آل إليه الأمر من بعده ؛ فقد اندفع الأدباء فى ملاحقة البديعيات ، ومطاردتها بغية اقتناصها ، فسلكوا لذلك طرقا ملتوية ، وركبوا المراكب الصعبة ، من خيال سقيم ، واستعارات ممقوتة ، وتشبيهات مبتذلة ، وكلمات جاسية مقتسرة ، وضرورات سخيفة وعبارات مهلهلة فضفاضة ، ليس لها من غاية إلا التمهيد لحلية من حلى البديع ، فتجىء مضطربة قلقة لا يطمئن بها المكان .

وقد شغف جماعة من كتاب هذا العصر بضروب من العنت ضموها إلى هذه الكلف البديعية ، فأشقوا نفوسهم بعبث لا طائل تحته ، كالتزام حرف هجاء بعينه فى كل كلمة من كلمات الرسالة ، أو مداولة مفرداتها ، أو حروف تلك المفردات بين الإعجام والإهمال على التوالى ، أو تأليف جمل تقرأ طرداً وردّاً فلا تستحيل بالانعكاس ، إلى غير ذلك مما شق الحريرى به على نفسه فى رسائله السينية والشينية والخيفاء والرقطاء وأشباهها ، وحق فيه قول ابن الأثير :

« قد سلك قوم فى منثور الكلام ، ومنظومه ، طرقا خارجة عن موضوع علم البيان ، وهى بنجوة عنه ، لأنها فى واد ، وعلم البيان فى واد ، فممن فعل ذلك الحريرى صاحب المقامات ، فإنه ذكر تلك الرسالة التى هى كلمة معجمة وكلمة مهملة ، والرسالة التى حرف من حروف ألفاظها معجم والآخر غير معجم ، ونظم غيره شعراً آخر كل بيت منه أول للبيت الذى يليه ، وكل هذا وإن تضمن مشقة من الصناعة ، فإنه خارج عن أسباب الفصاحة والبلاغة » .

« وهذا الكلام المصوغ بما أتى به الحريرى فى رسائله ، وأورده ذلك الشاعر فى شعره ، لا يتضمن فصاحة ولا بلاغة ، وإنما يأتى ومعانيه غثة باردة ، وسبب ذلك أنها تستكره استكراهاً ، وتوضع فى غير مواضعها ،

وكذلك ألفاظه ، فانها تجى مكرهة أيضاً غير ملائمة لإخواتها .

وعدد الكتاب فى هذا العصر غير قليل ، ومن أشهرهم الحريرى القاسم ابن على المتوفى سنة ٥١٦ ﻫ ، وجار الله الزمخشرى محمود بن عمر المتوفى سنه ٥٣٨ ﻫ ورشيد الدين الوطواط محمد بن محمد بن عبد الجليل المتوفى سنة ٥٧٣ ﻫ ، والقاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى المتوفى سنة ٥٩٦ ﻫ ، وعماد الدين الأصفهانى محمـــد بن صفى الدين المتوفى سنة ٥٩٧ ﻫ ، وأبو الفرج الجوزى عبد الرحمن بن على المتوفى سنة ٥٩٧ ﻫ ، وضياء الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ ﻫ .

## المقامات

التعريف بها :

المقامات جمع مقامة ، وهى كالمقام اسم مكان من قام بالمكان بمعنى أقام فيه وعلى هذا المعنى قول المسيب بن علس :

وكالمسك ترب مقاماتهم　　وترب قبورهم أطيب

ثم توسع فى استعمال اللفظ ، فانتقل إلى الدلالة على الجماعة المقيمة بالمكان ، وبهذا المعنى جاءت فى قول زهير بن أبى سلمى :

وفيهم مقامات حسان وجوههم　　وأندية ينتابها القول والفعل

ثم انتقل مرة أخرى ليدل على الكلام الذى يلقى فى مجلس من المجالس ، كما استعملت كلمة مجلس فى هذا المعنى أيضاً ، وسمى بها الشريف المرتضى دروسه التى كان يلقيها على تلاميذه ، ودونها فى أماليه فصولا سمى كل واحد منها مجلسا على هذا الاستعمال الأخير ، وعقد ابن قتيبة فى كتابه عيون الأخبار فصلا لكلام الزهاد بين أيدى الملوك ، وجعل عنوانه : « مقامات الزهاد عنـد الخلفاء والملوك ، وأصرح منه فى الاستعمال بهـذا المعنى قول بديع

الزمان فى واعظ سئل عنه : « رجل لا أعرفه فاصبر عليه إلى آخر مقامته لعله يذيء بعلامته » .

ثم جاء العرف الأدبى نخصها بفن من الإنشاء المنمق ، يروى على لسان امرىء خيالى ، يحكى قصة وقعت لإنسان، أو أكثر ، يتخيلهم الكاتب، ويضع على ألسنتهم عبارات يتفصح فيها ما قدر . فيلتزم فيها السجع غالبا ، ويزنها بما استطاع من حلى البديع ، ويودعها ماشاء من طرفة أدبية ، أو مسألة علمية أو ملحة غرامية ، أو تصوير لحالة اجتماعية ، مع ما يتبع ذلك من وصف الأماكن والأشخاص والأخلاق .

## نشأتها وأطوارها :

والمقامات بهذا التخصيص الفنى الأخير ، لم يعرفها الأدب العربى إلا فى القرن الرابع الهجرى ، فما إن ظهرت ، وتعرف الأدباء على خصائصها ، حتى تواردوا على شرعتها ، وتسابقوا إلى التأليف فيها ، على اختلاف العصور والأمصار ، إلى أن كسدت سوقها منذ مطالع هذا القرن الهجرى الأخير .

## المحاولة الأولى :

وأقدم أثر أفلتته عوادى الزمن تحت عنوان المقامات ، هو ذلك المنسوب لبديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ هـ ، ولم يصلنا لأحد قبله نتاج بهـــذا العنوان ، إلا ما رواه الحصرى فى كتابه زهر الآداب ، ويفيد أن البديع لم يكن أبا عذرة هذا الفن ، وإنمـا سبقه بفضل المحاولة الأولى العالم اللغوى الكاتب الشاعر ، محمد بن الحسن بن دريد المتوفى سنة ٣٢١ هـ ، وأن محاولته هذه ـ وإن لم تعرف باسم المقامات ـ كانت أساساً صالحاً وجه البديع إلى معارضته وتعديله فيما أخرج للناس من هذا الباب .

يقول الحصرى من حديث يصف به فن بديع الزمان :

« ولما رأى ( يعنى البديع ) أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى أغرب بأربعين حديثاً ، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره واستنتجها

من معادن فكره ، وأبداها للأبصار والبصائر ، وأهداها للأفكار والضمائر في معارض أعجمية ، وألفاظ حوشية ، فجاءت مما عن قبوله الطباع . ولا ترفع لها حجبها الأسماع ، وتوسع فيها ، إذ صرف أكثر ألفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة وضروب متصرفة ، عارضها ( يقصد البديع ) بأربعمائة مقامة في الكدية تذوب ظرفا ، وتقطر حسناً » .

فأين هذه الأحاديث التي صنعها ابن دريد ، ووقعت عليها المعارضة من بديع الزمان ، فكانت سبب اتجاهه إلى تأليف المقامات ، على ما يفهم من رواية صاحب زهر الآداب ؟

يرجح بعض المعاصرين أن ما نسب إلى ابن دريد من أحاديث ، توزعت على أشتات الكتب ، وجمع أكثرها فيما رواه أبو علي القالي في أماليه .

ويمكن الاستناد في ترجيح هذا الرأي إلى أمور :

منها أن أكثر هذه الأحاديث يشتمل على قصص مسجوع ، يدور في جملته حول المعاني التي دارت حولها المقامات ؛ فحديث مصاد بن مذعور : وما جرى له مع الجواري الطوارق بالحصى يذكر بالمقامة الرصافية للبديع وما فيها من حيل اللصوص ، ومقام بعض الأعراب بالمسجد الحرام مستجدياً يشبه مقامات عيسى ابن هشام بالمساجد مكدياً ، وحديثه عما رآه في نومه ، ورواه ابن خلكان يخطر بالبال المقامة الإبليسية للبديع ، إلى مثل ذلك من وجوه تقربها من شبه المقامات .

ومنها ما يبدو على أكثرها من أثر الصنعة والإغراب ، وهو يوافق ملاحظة الحصري من أنه أخرجها « في معارض أعجمية ، وألفاظ حوشية ، فجاء أكثر ما أظهر تنبو عن قبوله الطباع ، ولا ترفع له حجبها الأسماع » .

ومنها أن أكثرها جرى لأناس مجهولين ، فهم حيناً من الأعراب ، وطوراً من أقيال اليمن الذين لا يذكر لهم اسماً ولا تاريخاً ، وتارة من النكرات التي لا يعرف لها في التاريخ وجود ، وهم في ذلك أشبه بأشخاص المقامات في التنكير

وكل ماذكرناه لا يعدو أن يكون شبهاً ولا ينهض بعضه ولا كله ، أن يكون دليلا قاطعاً فى أن هذه الأحاديث المبعثرة ومنها ما فى أمالى القالى وهى التى أشار إليها الحصرى فى حديثه عن بديع الزمان ومعارضته لابن دريد .

ومن يدرى ؟ فلعلها كانت مجموعة فى كتاب ذكره المؤرخون بين مؤلفات ابن دريد ، ولكنه ضاع ولم يبق لنا إلا اسمه . وهو كتاب « رواد العرب » فإن الظن يرجح أن يكون موضوع هذا الكتاب هو المقصود بإشارة صاحب زهر الآداب للشبه القوى بين صنيع الرائد وتجواله من مكان إلى مكان . وبين صنيع البطل فى المقامات ، وتنقله من بلد إلى بلد ، ومن مقام إلى مقام .

أما السر فى اتجاه ابن دريد إلى اختراع هذه الأحاديث ، فلا يخرج عن أحد فرضين أو هما مجتمعين :

١ — ماشاع فى العصر البويهى من محاولة الفرس إحياء لغتهم بعد أن أخملتها العربية وتجديد مجدهم بعد أن دفاه الإسلام ، فحملوا أدباءهم على التأليف باللغة الفارسية فى تاريخهم القديم ، وكان من مظاهر ذلك ما صنعه نوح بن منصور السامانى حين أغرى الشاعر الدقيقى بنظم الشاهنامة فى تاريخ أبطال الفرس .

وقد عرف من تاريخ ابن دريد أنه ارتحل إلى بلاد فارس ، ورأس الديوان لابنى ميكال : فلعله قد راعه أن يترعرع الأدب الفارسى ويشيع بين الناس ، فينال من ازدهار الأدب والإقبال عليه ، فاخترع ما اخترع من أحاديث ، ليشغل بها الناس ، وليصور الشمائل العربية كما يحب العرب أن تكون .

٢ — ويصح أن يكون — ولعله أرجح — قد رمى من وراء ذلك إلى أن يضع لتلاميذه نماذج يتعرفون بها طرائق صوغ الكلام ونظمه ، وأن يدس فى أطواء تلك النماذج ما كان يتهمه العلماء بافتعاله من مفردات ، لتشيع بين الناس على رغم متهميه ، وقد قال الأزهرى فيه : وممن ألف الكتب

فى زماننا . فرمى بافتعال العربية وتوليد الألفاظ أبو بكر بن دريد » وقال ابن خلكان فى ترجمته : « سئل عنه الدارقطنى : أثقة هو أم لا ؟ فقال : تكلموا فيه ، وقيل كان يتسامح فى الرواية فيسند إلى كل ما يخطر له » .

ومهما يكن السبب فإما نظنها كانت كما وصفها الحصرى حوشية ملأى بالغريب ، لأنها ـ ولا بد ـ تأثرت بثقافة منشئها ، وهو أحد الأئمة المتضلعين فى علوم العربية ، وبخاصة متن اللغة ، وله فيه مؤلفات منها كتاب الجمهرة ، وإذا كان القدماء لم يسلكوها فى سلك المقامات ، فلا أقل من أن نعتبرها خطوة فى سبيل الوصول إليها ، ونعدها محاولة مبتدئة ، حولها من قفوا على أثره إلى أساس صالح قام عليه بناء هذا الفن .

بعد ابن دريد :

وفيما بين ابن دريد وبديع الزمان ، لا يذكر القدماء ـ على قدر ما وصل إليه اطلاعنا ـ واحداً من الكتاب على أنه من مؤلفى المقامات ، ولكن بعض مؤرخى الأدب من المتأخرين يورد فى جملتهم الإمام اللغوى أحمد بن فارس المتوفى سنة ٣٩٠ هـ . وأقدم هؤلاء المتأخرين جورجى زيدان فى كتابه : تاريخ آداب اللغة العربية ، حيث يقول فى ترجمة ابن فارس : « وله فضل التقدم فى وضع المقامات ، لأنه كتب رسائل اقتبس منها العلماء نسقه ، وعليه اشتغل بديع الزمان » .

وابن فارس من أساتذة بديع الزمان الذين تلقى عنهم علوم اللغة والأدب فكيف لا يذكره القدماء بين من تأثر بهم تلميذه فى إنشاء المقامات ، لو صح أنه كان له فيها انتاج ؟ . إننا بالرجوع إلى المظان القديمة التى ورد فيها ذكر ابن فارس ، لا نجد مما يتصل بحديث المقامات إلا ماذكره ابن خلكان أثناء ترجمته له فى وفيات الأعيان وهو قوله : « ... له رسائل أنيقة ، ومسائل فى اللغة يعايى بها الفقهاء ، ومنه اقتبس الحريرى صاحب المقامات ذلك الأسلوب ووضع المسائل الفقهية فى المقامة الطيبية » .

وهذا النص لا يفيد أكثر من أن ابن فارس جمع طائفة من المسائل الملغزة فى الفقه، واستظهر بها على الفقهاء. وأن الحريرى اقتبس منه هذا الضرب من الألغاز. فأدخل فى مقاماته المعاياة بالمسائل الفقهية. ولو كانت هذه المسائل مقامات فى نظر ابن خلكان. لكان أولى به أن يذكر البديع وهو تلميذ ابن فارس بالتأثر بها قبل الحريرى. وكذلك كان يصنع الحصرى من قبله. فلا يلتمس لبديع الزمان القدرة فى ابن دريد، دون أستاذه ابن فارس إن صح أن له مقامات.

وإذن ليس بين أيدينا ما يفيد أن ابن فارس كان من فرسان فن المقامات ويبقى أن الفترة التى أعقبت محاولة ابن دريد فى أحاديثه ظلت خالية إلى أن جاء البديع وأظهر الناس على صورة مقبولة منها. فجرى الأدباء على أثره وكثر مؤلفو المقامات.

ومنهم فى القرن الرابع بعد بديع الزمان: ابن نباتة السعدى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ.

وفى القرن الخامس: ابن باقيا البغدادى المتوفى سنة ٤٨٥ هـ. والحريرى المتوفى سنة ٥١٦ هـ، وأبو الهيجاء الأصفهانى الذى ألف مقاماته سنة ٤٩٠ هـ. وتوفى سنة ٥٣ هـ.

وفى القرن السادس: الأشتركونى القرطبى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ، والأسوانى المصرى المتوفى سنة ٥٦٢ هـ وملك النحاة الحسن بن صافى المتوفى سنة ٥٦٨، وأحمد ابن جميل المتوفى سنة ٥٧٧ هـ وابن مارى المسيحى المتوفى سنة ٥٨٩ هـ وابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧.

وممن نوا فى أخريات العصر العباسى أو بعده إلى وقتنا هذا: الشاب الظريف وابن المعظم، وابن صيقل الجزرى، وابن الوردى، والبطوطى، والبربير، والشيخ العطار، وأحمد فارس الشدياق، وناصيف اليازجى، وعبد الله فكرى.

ومن مراجعة المقامات على اختلاف عصور أصحابها وأمصارهم ، تجد أن ظاهرة التقليد كانت طاغية عليهم غالباً ، وأنها من ناحية الموضوع كانت تافهة لا تصل إلى الحد الذي يدخلها فى باب القصة الفنية ، ومن ناحية الصياغة كانت تمثل عصر صاحبها ، وما عليه صورة الأدب من قوة أو ضعف ، وبذلك تراها تنحدر بانحدار الأدب جيلا إثر جيل ، من استمساك فى الأساليب إلى هلهلة وركاكة جرياً وراء البديع ومراكمة بعض زخارفه فوق بعض .

والذى يهمنا من أمر هؤلاء جميعاً حديث من كانت له مشاركة فى أدب العصر العباسى ، ولذلك نختار بديع الزمان لتمثيل العهد البويهى ، والحريرى لتمثيل العهد السلجوقى ، ثم نعقب على ذلك بذكر شىء عن أثر المقامات فى الأدب العربى .

بديع الزمان ومقاماته :

هو أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذانى ، ولد سنة ٣٥٣هـ وتوفى سنة ٣٩٨هـ وهو عربى النسب ، فارسى النشأة ، وقد وصفه كل من أرخوا له بالذكاء الخارق والبديهة الحاضرة ، وبالرواية ، والعلم الواسع ، ولعل أبرز حادث أثر فى حياته هو انتصاره على أبى بكر الخوارزمى شيخ الأدباء فى عهده ، فقد لمع على أثره نجمه ، وسار ذكره كل مسير .

عددها :

وقد خلف للأدب ديوانين لرسائله وشعره ، ومجموعة مقاماته التى نحن بصدد الحديث عنها ، وعدد مقاماته يختلف باختلاف النسخ الباقية منها ، فهى خمسون مقامة فى النسخة التى شرحها الإمام المغفور له الشيخ محمد عبده ، وإحدى خمسون فى نسخة مطبعة الجوائب ، وثلاث وخمسون فى غير هذا وتلك من النسخ .

وقد مر بنا فيما نقلناه عن الحصرى أنها أربعمائة مقامة ، وكذلك ذكر الثعالبى فى ترجمة البديع من يتيمة الدهر وقد صرح الهمذانى نفسه إنه أملاها

أربعمائة حيث يقول فى إحدى رسائله متفخراً على الخوارزمى ،

« ولو أنصف هذا الفاضل لراض طبعه على خمس مقامات ، أو عشر مفتريات ثم عرضها على الأسماع والضمائر ، وأهداها إلى الأبصار والبصائر ، فإن كانت تقبلها ولا تزجها ، أو تأخذها ولا تمجها ، كان يعترض علينا بالقدح ، وعلى إملائنا بالجراح ، يقصر سعيه ، ويتداركه وهنه ، فيعلم أن الذى أملى من مقامات الكدية أربعمائة مقامة لا مناسبة بين المقامتين لفظاً ولا معنى ، وهو لا يقدر منها على عشر ، حقيق يكشف عيوبه والسلام . وله مثل ذلك التصريح فى رسالة أخرى من ديوانه ، كتبها إلى المظفر بن حسن البغوى :

ولكن بعض مؤرخى الأدب فى عصرنا يرجح أنه لم يمل إلى أربعين مقامة ثم حرفت الكلمة إلى أربعمائة ، وتتابع النساخ على هذا الخطأ .

ويعتمدون فى هذا الترجيح على استبعاد أن يضيع هذا العدد العظيم منها مع شغف الناس بالمقامات ، وعلى ما ورد فى رواية الحصرى من أنه عارض بها أربعين حديثاً لابن دريد .

ونحن نقول إن ضياع جزء كبير من كتاب ليس بغريب فى تاريخ الأدب العربى ، ولا أن يضيع الكتاب كله أو مئات وألوف مثله ، وكم يرد علينا فى تراجم الرجال ، من ذكر لكتب ، بادت ولم يبق لنا إلا أسماؤها ، مع ما يظهر فى وصفها من جودتها وعلو قدرها .

ومن يدرى ؟ فقد رأى المغفور له الإمام محمد عبده عند ما شرح مقامات البديع أن يسقط منها المقامة الرصافية ، لما حوت من فحش ومجون ، فلعل ماضاع أسقطه غيره بهذه الطريقة أو بغيرها من الطرق . أما أنه عارض بها أحاديث ابن دريد الأربعين فما قال أحد إن للمعارضة حدوداً فى الكم والعدد لا تتعداها ، ومن يكون إذن صانع بقية ما وصل إلينا فوق هذا العدد ؟ .

إن كان البديع صانعها فكيف يفتخر بأربعين مقامة ، مع أنها بلغت فى بعض النسخ ثلاثاً وخمسين كما أشرنا من قبل ؟ .

على أن من جاءوا بعده لم يلتزموا عد الأربعين ، فقد صنعها الحريرى خمسين واليازجى ستين ، واكتفى الحنفى بثلاثين ، والسيوطى ببضع وعشرين بل اجتزأ بعض المؤلفين بواحدة كالشاب الظريف والشيخ العطار :

كيف أنشأها :

وما سبق من القول يفيد أن البديع أملاها على تلاميذه ، ويروى الشريشى عن بعض شيوخه أن البديع ارتجل مقالاته ، وأنه كان يقول لأصحابه فى آخر كل مجلس من مجالسه : اقترحوا غرضاً تبنى عليه مقامة ، فيقترحون ماشاءوا ، فيملى عليهم المقامة ارتجالا فى الغرض الذى اقترحوه .

وبعض الأدباء يستبعد ذلك ، لأنه حين نخر على الخوارزمى تحداه أن يأتى بمثلها ، ولم يتحده بالارتجال ، أما نحن فلا نستبعد ذلك ، بل نرجحه لأمور .

منها أنه ذكر فى رسائله ، وذكر غيره كما قدمنا ، أنه أملاها والإملاء وإن لم يكن نصاً فى الارتجال ، لجواز أن يكون عن مسودة : فإن رواية الشريشى السابقة تحمله عليه .

ومنها أن فى بعض مقاماته قطعاً من رسائله ، فجزء من المقامة النيسابورية ومعظم المقامة العلمية ، مأخوذ من رسالة كتبها إلى القاسم الكرجى ، وبعض المقامة الملوكية التى مدح فيها خلف بن أحمد ، من رسالة يمدح بها هذا الرجل نفسه ، وكثير على بديع الزمان صاحب الذهن المتوقد أن يقعد للتحبير فلا يجد فى كتابته غير اقتباسات ينقلها من رسائله .

ومنها إجماع مؤرخيه على وصفه بصفاء الذهن ، وتوقد الذكاء ، وحضور البديهة ، وقوة العارضة . تقترح عليه الرسائل أو القصيدة فيرتجلها لساعتها ، وتلقى عليه الأبيات الفارسية فيترجما فى الحال إلى أبيات عربية ، وربما اقترح عليه الكتاب ، فيبدأ من آخر كلمة فيه ، حتى ينتهى إلى أوله ، ومن

هذا حاله لا يبعد عليه ارتجال مقامة كل يوم ، يتروى فى إملائها نوعا من التروى ، بمقدار ما يفرغ التلاميذ من كتابة ما أملاه .

راويها وبطلها :

وأيا ما كان الأمر فقد أملى البديع مقاماته ، وأجرى حديثها بين رجلين : هما عيسى بن هشام راويه ، وأبو الفتح الاسكندرى مستجدياً ، ويقول الحريرى عنهما فى مقدمة مقاماته : كلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف ، ومعنى هذا أنها من مبتكرات الخيال ، ولا وجود لها إلا فى صفحات الكتاب .

أما أبو الفتح الإسكندرى فأغلب الظن أنه لا وجود له . ولذلك اختار البديع أن يكنيه دون أن يسميه ، والكنية قلما تستقل فى تعيين صاحبها ، وقد رأينا من قبل أن ابن دريد يخترع أسماء لا وجود لأعيانها ، وينسب إليها وقائع أحاديثه ؛ فلعل ذلك مما تأثر به البديع فيه .

وأما عيسى ابن هشام ، فقد ذكر أبو شجاع شيرويه بن شهر دار المتوفى سنة ٥٠٩ ﻫ فى كتابه تاريخ همذان ، أنه شيخ البديع الذى رواه الأخبار ، ونقل ذلك عن أبى شجاع ياقوت فى معجم الأدباء ، وفى ذلك الخبر غرابة ، لأن من أرخوا للبديع ممن عاصروه أو كان قريباً من عصره لم يذكروا ذلك الاسم بين أسماء شيوخه ، فلعله وهم نشأ عن قوله فى مطلع كل مقامه : حدثنا عيسى ابن هشام وإلا مافات ذلك الحريرى الذى جعله كأبى الفتح مجهولا لا يعرف ونكرة لا يتعرف :

ولو صح خبر أبى شجاع لكان اختيار البديع له أمراً آخر من آثار ابن دريد الذى كان ينسب رواية مخترعاته إلى رجال من أعيان الرواة ، إحكاما من الاختراع ، وتلبيسا على السامع والقارىء أنه حقيقة واقعة لا خيال .

الباعث على إنشائها :

ويظهر أنه قصد من إنشائها إلى أمرين :

الإدلال بماله من قوة فى صوغ الكلام والإنشاء ، وقدرة على الارتجال، وهما المحور الذى كانت تدور حوله مباة البديع ومفاخره .

والأمر الآخر هو إخراج نماذج فنية لتلاميذه يحتذونها ، وينسجون على منوالها ، وتكون لهم بمثابة التطبيق بعد الدرس .

موضوعاتها وصياغتها :

أما الموضوعات التى دارت حولها فهى صور متنوعة من حياة المكدين وحيلتهم الخادعة ، وما يثيرون به من اهتمام السامرين ، من أحاج وألغاز أو مطارحات أدبية ، أو مسائل نقدية ، أو حجاج مذهبي ، أو عظات دينية ، أو ما أشبه ذلك من شواغل الأذهان ، فى تلك الأزمان .

وقد صاغ ذلك كله على طريقته التى عرف بها . وشاعت بين رجال طبقته ، بألفاظ نقية مختارة ، يندر فيها الغريب ، وبأسلوب منمق طلى ؛ يشيع فيه السجع وتنتثر على قسماته ألوان البديع ، انتثارا صدر عن طبع مطبوع ، وسليقة نفاذة ، ويضمنها من آن لآخر ما يناسب المقام من آية قرآنية ، أو حديث نبوى . أو حكمة ومثل ، أو بيت من الشعر مشهور .

ولكن يؤخذ عليها أنها فى بعض الأحيان لا تخرج عن سرد خبر من الأخبار ومثال ذلك ما فى المقامة الغيلانية ، التى يلتقى فيها عصمة بن بدر الفزارى بعيسى بن هشام ، فيخبره بلقائه الفرزدق ، وذا الرمة ، وأن الأخير هجا الفرزدق فلم يعبأ به احتقاراً له .

وأن الانسجام بين الحوادث ينقصها أحيانا ، وذلك كما فى المقامة السابقة إذ لا يخبرنا عصمة بن بدر كيف التقى بالشاعرين على بعد العهد وتراخى الزمن ، وهل كان ذلك مع شيطانهما ، أو فى رؤى الأحلام ؟

وبالإجمال يؤخذ عليها ما يؤخذ على المقامات عامة ، وهو فقدان كثير من الخصائص التى لو روعيت فيها ، لدخلت بها فى باب القصص بمعناه

المعروف ، فحوادثها لا تتسلسل ، والحبكة القصصية فيها ضعيفة ، والحوار ينقصه التشويق والعقدة ؛ والمشكلة التى تنتهى بحلها القصة ضئيلة هزيلة أو معدومة فى بعض الأحيان .

وعذر البديع أنه رائد ، وأنه أول من خطا بالمقامة نحو الكمال ، وأنه كان يمليها ارتجالا كما أسلفناه ، وأن كثيراً مما أنشأه قد فقد فلعل أجزاء من تلك المقامات الباقية قد ضاع فيما ضاع .

## الحريرى ومقاماته :

الحريرى هو أبو محمد القاسم بن على بن عثمان البصرى ، ولد سنة ٤٤٦ هـ وتوفى سنة ٥١٦ هـ ، تأدب على علماء زمانه بالبصرة ، ومازالت همته تسمو به حتى رفعته إلى مقام الصدارة فى علوم اللغة وآدابها ، وأسندت إليه خطة الخبر بديوان البصرة « فكانت له فى حياته ، ولأعقابه بعد أن مات .

كان غزير العلم ، شديد الذكاء ميالا إلى الدعابة كما يصفه مؤرخوه ، ولكنه لم يكن فى تمام الاستعداد كبديع الزمان ، فما كانت ملكته طبعة تواتيه بالإنشاء فى كل آن ، بل كانت نواراً شموساً ، تحرن منه وتستعصى عليه ، ولو أدى ذلك إلى الخذلان فى بعض الأحيان .

وقد وصف نفسه فى مطلع مقاماته بجمود القريحة ، وخمود الفطنة ، ونضوب الروية ، وما قصد من ذلك إلا إلى حران تلك الملكة وتأبيها حين يريدها على الإسماح والانقياد ، ولولا ذلك ـ فيما نظن ـ لنال رياسة الديوان فى بغداد بدلا من خطة الخبر التى تولاها بالبصرة ، ولكنها كانت تنقطع به فى أحرج الأوقات وقد انتهى به تبلدها إلى الإجبال وأوقفه موقف التهمة ، حين أظهر بواكير مقاماته للبغداديين ، وأرادوا اختباره للتحقيق من صدق نسبتها إليه ، فرموه بالادعاء والانتحال كما فى بعض الروايات .

ولو صح ما ذكره الشريشى شارح مقاماته لقلنا إنها كانت تدفعه فى أوقاته المعتادة إلى ضروب من الرياضة حتى تسلس له وتنقاد ، فقد نقل أنه ألف مقاماته كلها على الركاب ، وذلك أن المستظهر بالله لما أمره بصنعها أخرج كالحافظ على العمال ، فكان يخرج فى الأبردين يتمشى فى ضفتى دجلة والفرات ، ويصقل خاطره بنظر الخضرة والمياه ، فلم ينقض فصل العمل إلا وقد اجتمع له مائتا مقامة ، فخلص منها خمسين ، وأتلف الباقى ، وصدر الكتاب ، ورفعه إلى السلطان .

وأيا ما كان أمر هذه الملكة فقد استعان الحريرى بها ، وأخرج كتابه القيم « درة الغواص فى أوهام الخواص » ومنظومة فى النحو سماها « ملحة الإعراب » وشرحا لهذه الملحة ، ودواوين لشعره ورسائله ، ومجموعة المقامات التى نتحدث عنها الآن .

عددها ، وحظها من الشهرة :

ولا يهمنا أن عددها فى مسوداته بلغ مائتى مقامة كما رواه الشريشى ، فالذى فى أيدى الناس خمسون . وهو العدد الذى ذكره المؤرخون . وذكره هو فيما قدم به بين يديها ، والمهم أن هذا العدد ظل كاملا تتهاداه الأيدى ، دون أن تتحيفه ـ كما تحيفت مقامات البديع ـ عوادى الزمان .

ومن أسباب ذلك عناية الحريرى بها عناية بالغة ، فقد كان يقعد لمنتسخيها مقعد المستمع المراجع ، فتصحح بالمقابلة عليه ، ويوقع بخطه على كل نسخة بما يفيد التصحيح ، حتى بلغت جملة ما قرىء عليه سبعمائة نسخة قبل مماته بعامين .

وكان من دواعى سلامة مقامات الحريرى ونجاتها من الخرم والنقصان تعلق معاصريه ومن بعدهم على أجيالهم تعلقاً شديداً بها ، وقد رأينا فى الرواية السابقة طرفا من هذا التعلق متمثلا فى ارتحال المتأدبين إليه لقراءتها عليه ، ومن بعده صارت مما يدرس على الشيوخ للتخرج فى الأدب

وتمنح على ذلك الإجازات ، ويراعى فى روايتها سلسلة السند إلى صاحبها كما يصنع المحدثون ، والشريشى لم يتقدم إلى شرحها إلا بعد أن صحت له روايتها من طرق خمسة كلها متصلة الإسناد .

ومن تلك الدواعى أيضاً إقبال العلماء على شرحها إقبالا منقطع النظير وقد عد صاحب كشف الظنون من هؤلاء الشراح أكثر من خمسة وعشرين شارحا منهم ابن ظفر الصقلى المتوفى سنة ٥٦٥ هـ . وابن الخشاب المتوفى سنة ٥٦٧ هـ . وابن الانبارى المتوفى سنة ٥٧٧هـ ، والنجديرى المتوفى سنة ٥٨٤هـ . والمطرزى المتوفى سنة ٦١٠هـ . والعكبرى المتوفى سنة ٦١٦هـ . وصدر الأفاضل المتوفى سنة ٦١٧هـ ، والشريشى المتوفى سنة ٦١٩هـ ، والواسطى المتوفى سنة ٦٢٦هـ . وعبداللطيف البغدادى المتوفى سنة ٦٣٩هـ .

وقد شرحها بعض هؤلاء جملة شروح ، فلابن ظفر منها : المطول ، والمختصر وشرح على ما فى المقامات من الغريب ، وللواسطى ثلاثة كذلك ، أحدها على ترتيب المعجم ، والثانى على ترتيب المقامات ، والثالث على ترتيب آخر كما يقول ياقوت .

وما وقف الحظ بها عند حدود اللغة العربية . فقد تخطى بها تلك الحدود ، وترجمت إلى اللغة الفارسية ، والتركية ، والعبرية ، والسريانية ، واللاتينية ، والإنجليزية .

ومجمل القول فيما حظيت به وما نالته من إقبال الناس : قول ياقوت عنها فى ترجمة الحريرى بمعجم الأدباء : « لقد وافق كتاب المقامات من السعد ما لم يوافق مثله كتاب عرفته ، فإنه جمع بين حقيقة الجودة والبلاغة ، واتسعت له الألفاظ وانقادت له نور البراعة ، حتى أخذ بأزمتها وملك ربقتها ، فاختار ألفاظها وأحسن نسقها ، حتى لو ادعى بها الإعجاز لما وجد من يدفع فى صدره ، ولا يرد قوله ، ولا يأتى بما يقاربها ، فضلا عن أن يأتى بمثلها ثم رزقت مع ذلك من الشهرة ، وبعد الصيت ، والاتفاق على استحسانها من الموافق والمخالف ما استحقت وأكثر .

دافعه إلى تأليفها :

وقد ذكر الحريرى فى تقديمه لهذه المقامات أنه يحقق بتأليفها رغبة من إشارته حكم ، وطاعته غنم ، دون أن يكشف عن حقيقة ذلك المشير ، وانبنى عن هذا الإيهام تعدد الأقوال فى تعيينه ، فهو الخليفة المستظهر بالله كما فى رواية الشريشى السابقة ، وهو شرف الدين أنوشروان بن خالد أحد وزراء المسترشد بالله على ماروى ياقوت وابن خلكان ، وابن طباطبا ، وهو ابن صدقة أحد وزراء المسترشد أيضاً كما رواه ابن خلكان على نسخة كتبها الحريرى ، وهو عامل البصرة وواليها فى بعض نقول الشريشى ، وهو جماعة من أعيان البصرة فى نقل آخر له .

وما لهذا الخلاف جدوى ؛ ولاله فى رأينا سبب ، ولو كان المشير شخصاً متعيناً ما طوى الحريرى اسمه وتركه بمجهله ، ولآثر التصريح تكريماً له ؛ وتنويهاً بفضله على الأدب ، وإيثاراً لما يعقبه ذلك التنويه من ثمرة مادية أو أدبية ، يجنيها الحريرى لو كان المشير صاحب سلطان من خليفة أو وزير .

ولو صدق الظن لقلنا إنه انبعث إلى تأليفها ببواعث نفسية نبعت من ذاته فقد يكون مستجيباً إلى النزعة الفنية الخالصة التى تدفع أصحاب الفنون إلى تخليد انفعالاتهم وتجاوبهم للأحداث ، وتسجيلها فيما ينتجون من آثار ، وفى بعض ماروى من أخبار هذه المقامات مايعين على هذا الفهم ، فقد ذكر أحد الرواة أنه سمع الحريرى يقول :

« أبو زيد السروجى كان شيخاً شحاذاً بليغاً ، ومكدياً فصيحاً ، ورد علينا البصرة ، فوقف يوماً فى مسجد بنى حرام ، فسلم ، ثم سأل الناس ، وكان بعض الولاة حاضراً ، والمسجد غاص بالفضلاء ، فأعجبتهم فصاحته ، وحسن صياغة كلامه وملاحته ، وذكر أسر الروم ولده كما ذكرناه فى المقامة الحرامية ، وهى الثامنة والأربعون ، قال : واجتمع عندى عشية ذلك اليوم جماعة من فضلاء البصرة وعلمائها ، فحكيت لهم ما شاهدت من ذلك السائل ، وسمعت من لطافة عبارته فى تحصيل مراده ، وظرافة إشارته فى تسهيل إيراده ، فحكى

كل واحد من جلسائه أنه شاهد من هذا السائل في مسجده مثل ما شهدت ؛ وأنه سمع منه في معنى آخر فصلا أحسن مما سمعت ، وكان يغير في كل مسجد زيه وشكله ، ويظهر في فنون الحياة فضله ، فتعجبوا من جريانه في ميدانه ، وتصرفه في تلونه وإحسانه . فأنشأت المقامة الحرامية، ثم بنيت عليها سائر المقامات ، وكانت أول شيء صنعته .

وقد يكون دافعه إلى تأليفها طموحه ، فهو يطلب به المثالة عند الناس ، ويمهد به لما يتمناه من صدارة الكتاب . وإلا ففيم كان إصعاده من البصرة إلى بغداد يحمل باكورة ماصنع منها ، ليعرضه هناك ، ويتعرض للامتحان كما ذكر الرواة ؟ .

وإذا كان قد أوهم في حديثه بالمقدمة أن هناك مقترحا ومشيراً ، وأنه راجعه فما أعفاه ، فما هو — في نظرنا — إلا تقليد جرى عليه المؤلفون من قبله ومن بعده ، فكل كتاب إنما صنعوه استجابة لرغبة عظيم ، ينشر اسمه حيناً ، ويطوى أحياناً ، يسجل الصادق منهم بذلك حقيقة واقعة ، ويخيل غيره أنه في فنه قبلة الأنظار ، ومتجه ذوى الحاجات ، ومن وراء ذلك شهرته ورواج الكتاب .

## الراوي والبطل :

وقد اتخذ الحريري لمقاماته رجلين كما صنع بديع الزمان ، فجعل من الحارث بن همام راوياً ، ومن أبي زيد السروجي مكدياً مستجدياً ، وللعلماء حولهما أحاديث لا تفترق في عدم جدواها عن خلافاتهم حول المشير، فيذكر ابن خلكان أنه عنى بالحارث بن همام نفسه أخذاً من الحديث : « كلكم حارث وكلكم همام » ، ومعنى الحارث الكاسب ، والهمام الكثير الاهتمام ، وينقل عن القفطي والسمعاني ، والعماد الأصفهاني ، أن أبا زيد كنية شخص حقيقي اسمه المطهر بن سلام كان بصريا نحويا ، صاحب الحريري وتخرج به ، وروى عنه وتولى صدارة المشان قرية الحريري ، من بعده إلى أن مات سنة ٥٤٠ ، ولكنه في الرواية التي أسلفناها عن الحريري أحد الساسانيين رآه الحريري بعينيه ،

وسمع منه بأذنيه ، وكان موقفه فى مسجـــد بنى حرام سبب اتجاهه إلى إنشاء المقامات .

وما نبعد عما قاله الحريرى ، ونحمله أكثر مما يحتمل لفظه ، فقد قال عن رجلى البديع . « كلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف » ، وذكر كذلك أنه يتلو فى عمله تلو البديع ، وبذلك يكون رجلاه كرجلى البديع مجهولين نكرتين ، لا وجود لهما فى غير الخيال ، وبين صفحات الكتاب .

موضوعاتها وصياغتها :

أما الموضوعات التى بنى عليها الحريرى مقاماته ، فهى كتلك التى اختارها البديع وشغل بها أبطاله ، من نقد وحوار أدبى ، وهداية وإرشاد وجدل وحجاج ومعاياة وإلغاز ، مع ما يتبع ذلك من وصف الأشخاص والمواضع ، وإخراج البطل فى صور مختلفة من صور الساسانيين ، الذين انتشروا فى تلك الأزمان واحتالوا على الكدية والاستجداء باتخاذ مظاهر الوعاظ ، والعلماء ، والمفتين والغزاة ، وأبناء السبيل ، والأعراب ، والحواة ، والقرادة ، والسحرة ، والمشعوذة ، والمتلصصة .

يضاف إلى ذلك ما أربى به على البديع ، فقد تزيد عليه فى باب الإلغاز بما اقتبسه عن ابن فارس ، وهو المعاياة بالمسائل الفقهية ، وزاد كذلك التلاعب بالصناعات اللفظية التى غالى فيها ، كإنشاء رسالة تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه . أو رسالة تقرأ رداً وطرداً فلا يحيلهـــا الانعكاس ، أو رسالة تتكون من رسالة معجمة ، فمهملة ، فمعجمة ، فمهملة على التوالى من أولها إلى آخرها ، أو رسالة يراعى فى تأليفها تتابع الإهمال والإعجام بين الحروف من غير إخلال ، إلى أشباه ذلك من ضروب العبث الذى لا يفيد ، ولا يجدى منه المعنى أو اللفظ أى جدوى ، اللهم إلا الضعف والهزال .

والمحاجاة أو الإلغاز فى عموم معناها لم تكن من مبتكراته ، فقد سبقه

بها البديع ، وإنما الذى كان له فيها من التجديد هو الالتفات إلى نوع من جنسها ، أخذه عن ابن فارس كما بينا ، وليس ذلك بأمر ذى بال ، وكذلك تلك البراعة غير المجديه ، وإعنات الذهن وإرهاقه فى إنشاء رسائل تجرى على نمط من تلك الأنماط التى أشرنا إليها . سبقه البديع بذلك فى مناظرته الخوارزمى ، وسماه خصمه - وحق له أن يسميه - شعبذة ، والجديد للحريرى أنه شرع منه أبوابا لم تكن من قبله ، ففتح بها أبوابا لدخول الضعف على الأساليب وزاد فى طنبور العبث نغمات ، ولعلنا نذكر مانقلناه من قول ابن الأثير فيه .

وفى صياغة الحريرى أثر من طبعه ، طبع الحبر المحضر الذى يعقد لما يلشىء ويستفرغ جهده فيه ، وفيها كذلك أثر من عصره الذى يستأثر للبديع ، ويتكلف لتحقيق أنواعه الكلف الصعبة ، ولذلك بدت على مقاماته مسحة من التأنق المصنوع ، وانتثرت فى كل أرجائها حلى البديع انتثاراً مسرفا لايعرف القصد ، فالسجع مثلا أساس يلتزمه بل يلتزم فيه مالا يلزم ؛ والجناس كذلك غاية يتحين لها الفرص فلا يفلتها ، ولا يدع من أنواعه نوعا دون تحقيق ، وكذلك الطباق والتورية ، وبقية المحسنات التى تنوعت وتفرعت ، وأقبل عليها أهل زمانه إقبالا لايبالى مايصيب المعنى من ضعف أو حيف .

وفى سبيل تحقيق البديعيات التى كان يترصد لها امتلأت مقاماته بغريب الألفاظ ، حتى كادت الجسوة تعمها وأعوزت فى الكشف عن معانيها إلى تقليب صفحات المعاجم . والتنقيب فى كتب الغريب .

ثم هو أكثر من بديع الزمان إيراداً للحكمة والمثل ، واقتباساً لآى القرآن وأحاديث الرسول ، ولكنه فى تضمين الشعر على خلاف البديع ، فكل ماضمنه مقاماته من شعر فهو من نظمه ، إلا أربعة أبيات أشار إليها فى مقدمته .

غير أن عنايته المغالية بالتحسين والتزيين أرهقت المعانى فى بعض الأحيان

وتركتها تنوء بثقل لا تحمل ، فكانت كسيف من خشب فى قراب من ذهب ، أو كعروس يأكلها السلال ، ويعجزها ماتراكم عليها من حلى وأصباغ ، ولا سيما تلك المقامات التى أغرب فيها بالعبث اللفظى .

وقعوده للتحبير وتأنيه فى الإنشاء أعفياه من الاقتضاب والبتر ، وعدم انسجام الوقائع وهى أمور لاحظناها عند بديع الزمان ، ولكنه لم يستعن بهما على تقريب المقامة من القصة ، فلم تزل بعض خصائصها مفقودة عنده ، وبذلك يؤخذ على مقاماته مايؤخذ على غيرها من خفوت الروح القصصى ، وضعف الحبكة ، وعدم تسلسل الحوار وقلة تشويقه ، وتهافت العقدة وهزالها فى بعض الأحيان .

## أثر المقامات فى الأدب

عرفنا فيما سبق كيف توارد الكتاب على شرعة المقامات ، وتسابقوا إلى التأليف فيها ، وكيف كانت عناية الأجيال المتعاقبة بها ، حتى صارت مما يقرأ ويروى للتخرج فى الأدب ، وكيف اعتنى العلماء بشرحها والتعليق عليها .

وعلى ضوء هذا يمكننا أن نجمل ما كان لها فى الأدب من آثار ، وهى كـكل شىء لها جهتا نفع وضرر :

### حسناتها :

فمن آثارها الحسنة أنها أضافت إلى فنون الأدب ، فنا جديداً تنافس الكتاب فى ميدانه ، وخلفوا منه ذخائرها لها خطرها ، وإن تفاوتت قيمتها بين القوة والضعف .

وأخرجت من الأدب نماذج فنية ، احتذاها الناشئون فى الأدب ، وتعلموا منها كيف يكتبون ، وكيف يستخدمون مفردات اللغة فى عبارات تفيد ، وإذا كانت محاذاتهم التامة لها قد أساءت الأساليب ، وجنت على

المعانى فإنها ساعدتهم على مقاومة اللغات العامية وتيارها الجاف ، ومن قبل قال ابن الطقطقى : « إن المقامات لا يستفاد منها سوى التمرن على الإنشاء والوقوف على مذاهب النظم والنثر » .

وأحيت وحفظت من مفردات اللغة قدراً وافراً ، لولاها لباد أو باد أكثره على أنها حفظته مستعملا فى تراكيب مفيدة ، تعين الذهن على استيعابه وحفظه ، ولا مسروداً سرداً يبدده على الوعى كما تصنع كتب اللغة ومعاجمها .

وكتب حولها من الشروح والتعليقات مجموعة قيمة . حوت كثيراً من قواعد اللغة ، وأصول النقد ، وأخبار الأدب ، وارجع إلى شئت إلى تقديم الشريشى لشرح مقامات الحريرى ، لترى مقدار مابذله الشراح وما قدموه فى خدمة اللغة والأدب .

وساعدت فى تكوين هذه النهضة الأدبية المعاصرة ، فقد كانت المقامات وشروحها من أول ما أخرجت المطبعة للناس ، وبذلك كان لها فضل كبير فى تكوين كثير من ملكات الكتاب والأدباء فى فجر النهضة ،

ووضعت نواة صالحة لاستنبات القصة فى الأدب العربى ، إلا أن الأجيال ظلت تنقلها صماء حتى أتيح لها المرحوم محمد المويلحى ، فأنبتها نباتاً حسناً فى كتابه « حديث عيسى بن هشام » .

سيئاتها :

ولكنها أساءت إلى الأدب ، بما جذبت الكتاب والشعراء إلى مسامتتها وتقليدها فى الإقبال على زخارف البديع ، وقد كان الاتجاه من قبل يميل إلى ذلك ، ولعله كان يرتد إلى الصراط المستقيم ، لولا أن جاء بديع الزمان وأملى مقاماته . فكأنما أكد بما صنع هذا الميل لمعاصريه ، ومهد له الطريق لمن قفوا على آثارهم ، فمالوا كل الميل ، وأوغلوا فى التلوين البديعى أيما إيغال . حتى لتخيل آثارهم أن لا باعث على إنشائها إلا أن تحمل ما تنوء به

من أثقال الزينة ، لا إفادة ما تحت هذه الأثقال من معنى مبهور الأنفاس ، وكم لشعراء السلاجقة والدول المتتابعة من مقطعات لم يحملهم على نظمها إلا تحقيق أنواع البديع .

ويضاف إلى تأثيرها - فيما يغلب على الظن - شيوع الأحاجى بين الأدباء فى تلك الأزمان شيوعا غريبا : فقد بلغ من غرامهم بالألغاز أن كانت البرد تنقلها من قطر إلى قطر ، فما أن تصل حتى يتلقفها الناس ، ليشغلوا أنفسهم بحلها واستخراج معمياتها ، وقد يذيلون الجواب بأحجية أخرى يعود بها البريد إلى من أبرده ، وهكذا دواليك .

والوزر فى هذا كله لا تحمله المقامات وحدها ، فما كان لها فيه سوى لفت النظر ، والإغراء بالاقتباس أو التقليد ، والهمة هى التى تضعف وتلين ، فيجذبها السراب الخادع ، أو تقوى وتستمسك حتى يصادفها العذب النمير .

وبعد فقد ظهر إلى جانب المقامات ضرب آخر من الإنشاء ، فيه شبه منها ، ولكنه لا يعد فى بابها ، وهو مقالات قصار ، تعتمد على الإيجاز . وتتألف من جمل حكيمة ، تقصد إلى العظة والعبرة ، وتتأسى بالمقامة فى تنميق العبارة وتحليتها بحلى البديع ، وتخالفها فيما وراء ذلك ، فما لها رواية ولا بطل ، وليس بها وقائع ولا حوار ، ولا تصور مظاهر الكدية والاحتيال ولا تبلغ المقالة منها قدر المقامة .

وللزمخشرى من هذا النوع كتاب « أطواق الذهب » مشى على أثره فيه عبد المؤمن الأصفهانى ، فعارضه بكتابه « أطباق الذهب » وكان لهما أثر فى المرحوم أحمد شوقى حين أخرج كتابه « أسواق الذهب » .

# الشعر فى ظلال العصر العباسى الثانى

## تقدير الشعر والشعراء وآثاره :

فى فصولنا السابقة تحدثنا عن الأدب ومالقيه بعد انقسام الملك العباسى إلى دول تستقل كل منها بمالها ورجالها ، وعرفنا أن الأدب نال من خير هذه الدول ما أنساه قلته وذلته تحت وطأة الترك الثقيلة ، وقد استجلينا أسباب ذلك ومظاهره بما يغنى عن إعادته .

وكذلك أثار تعدد هذه الدول حركة قوية فى سوق الشعر لأن هذه الدول كانت تتنافس فيما بينها تنافساً قوياً وتسابق ملوكها وأمراؤها على استغلاله فى إذاعة الصيت وكسب الشهرة ، ودفعهم ذلك إلى الإعتداد بالشعر والعناية بالشعر .

وهذه العناية ـ وإن كانت فى عمومها عظيمة ـ كانت درجاتها متفاوتة ، تفاوتاً منشؤه اختلاف أحوال هذه الدول ، وأحوال القائمين على شئونها ، وتباين أذواقهم وثقافاتهم ، واستعدادهم لفهم الشعر وإدراك مراميه .

وقد بلغت هذه العناية مداها وغاياتها فى أكناف دول عربية المحتد والثقافة كدولة الحمدانيين ، والفاطميين ، وأخرى أعجمية الأصل ولكنها عربية التثقيف والنشأة ، كدولة البويهيين والسامانيين والأيوبيين ، وذلك لأن أصحاب هذه الدول وأعوانهم من الوزراء انبعثوا فى الاحتفال بالشعر وتقريب رجاله ، بباعث المنافسة السياسية الحادة ، وبباعث آخر نفسى ، هو ما كان لأكثرهم من طبع موروث أو مكتسب ، يتذوق الشعر ويستروح له ، وقد يقوى عند بعضهم فينظمه ويجود فيه .

وكانت حال الشعر والشعراء ـ تبعاً لذلك الذى ذكرناه ـ على جملتها فى عهد البويهيين ، خير منها فى عهد السلجوقيين ، لأن كثرة الدول المتذوقة للشعر المغالية به قد تلاقت فى العهد البويهى ؛ فنبهت منافسة أصحابها كل

راغب فى الظهور ، وجذبت إليهم عوامل الإغراء والتشجيع كل من تطلعت نفوسهم إلى الغنى والجاه ، وماجت قصورهم بالشعراء ، وتجمع منهم للعهد عدد وافر لم يتجمع مثله من قبل أو بعد لعصر من العصور وقد محى هذا التنافس الشديد وزالت آثاره القوية أيام السلجوقيين ؛ فقد خرجت من حلبته عناصر فتية بعد أن ثلت عروش الحمدانيين والبويهيين والسامانيين ، فصوحت رياض الشعر فى العراق ، وفارس ، وخراسان ، وبقى لها ازدهار نسبى بمصر وبلاد الشام ، فيما بقى من أيام الفاطميين وما تلاها من دولة الأيوبيين ومماليك الأيوبيين .

وقد تعددت فى ظلال الدول الناشئة مواطن الشعر ، فغنيت الأقاليم بالشعراء ، وذلك مالم يكن والشمل مجتمع ، والأطراف فى قبضة الخليفة يشدها إلى بغداد ، فما كان أمام الشعراء آنذاك إلا متجه واحد تتعلق به النفوس وتتجه إليه الأنظار ، أو بعبارة أخرى لم يكن هناك إلا معرض وسوق كبرى تشتد إليها الرحال ؛ تلك هى بغداد ، حيث يستقر الخلفاء ، ويتركز السلطان ، وتتجمع الثروات الضخام ، وتتخرق الأيدى فى البذل والعطاء :

وتبقى بعد ذلك الأقاليم النائية والمدن البعيدة وهى مقفرة أوشبه مقفرة لأن من كانوا يتولون أمورها ، ويقومون على تدبيرها ، من ولاة وعمال ، لم تكن لهم حرية التصرف فيما تحت أيديهم من الأموال ، وبذلك لم تستطع هذه الأقاليم أن تستبقى النابغين من شعرائها ، ولا تستديم إقامتهم بها ، لأنها كانت لا تقوى على تيسير ما يتطلع إليه أمثالهم من حياة رافهة ، ولا تنهض بتحقيق آمالهم من البذل السخى والعطاء الكريم .

أما فى العهد فقد تهيأ لكل من تلك الأقطار المستقلة ملك أو أمير ، يتصرف فى بيت ماله تصرف الخلفاء السابقين ، وبذلك انتعشت الأقاليم ، واخضوضبت فيها منابت الشعر بعد جدب ، وصار لكل قسم من البلاد الإسلامية شعراؤه ، يتربون فى كنفه وتلمع نجومهم فى أفقه . ويجدون فى حاضرته

مايعينهم على الإقامة والاستيطان ، ويغنيهم عن الرحلة والنزوع ، ومن سمت همته منهم إلى مدى من الشهرة والجاه أوسع ، ومنتجع للغنى والثروة أنجع ، فأمامه موارد كثيرة ، يتخير منها مايراه أصفى ورداً وأضفى رفداً .

والغاية أن تاريخ الشعر ، بعد أن كان - قبل ظهور هذه الدول - يرتبط بتاريخ العراق ، ويكتفى فى جميع عناصره بالرجوع إلى سجلات بغداد ، أصبح الباحث عنه ولا بدله مع ذلك من التنقيب فى سجلات القاهرة ، وحلب ، والرى وأصبهان ، وجرجان وطبرستان ، ونيسابور ، وغيرها من البلاد .

وعلى هذا الأساس تألفت الكتب الضخام ، يجمع الواحد بين المتعاصرين من الشعراء ، ولكنه يوزعهم على أقسام بحسب ماينتسبون إليه من أوطان ، ومن أمثال ذلك « يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر » و « تتمة اليتيمة » وكلاهما لأبى منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبى النيسابورى ( سنة ٤٢٩ هـ ) و « دمية القصر ، وعصر أهل العصر » لأبى الحسن على بن الحسن الباخرزى (٤٦٧ هـ) و « خريدة القصر ، وجريدة أهل العصر » لعماد الدين محمد بن صفى الدين الأصبهانى (٥٩٧ هـ) .

وهذه طائفة من أشهر الشعراء فى تلك العهود :

١ — من شعراء مصر : ابن وكيع ، وأبو الرقعمق ، وتميم بن المعز الفاطمى ، والمهذب بن الزبير ، والجليس بن الحباب ، وظافر بن الحداد ، وأمية بن عبدالعزيز بن أبى الصلت ، وعمارة اليمنى ، وابن قلاقس ، وابن سناء الملك وابن الساعاتى ، وابن مماتى ، وابن النبيه وابن الفارض ، وابن مطروح والبهاء زهير .

٢ — ومن شعراء الشام : المتنبى ، وأبو فراس وكشاجم ، والسرى الرفاء والصنوبرى ، والأخويان الخالديان ، والوأواء الدمشقى ، والواسانى ، والمعرى والخفاجى ، والصورى ، وابن حيوس ، وابن الخياط الدمشقى .

٣ — ومن شعراء العراق : السلامى ، وابن نباتة السعدى ، وابن لنكك

البصرى ، وابن الحجاج ، وابن سكرة الهاشمى ، والشريف الرضى ، ومهيار الديلمى ، وابن سبط التعاويذى ، والطغرائى ، والحاجرى . وأيدمر المحيوى

٤ — ومن شعراء فارس. وما وراءها من البلاد الأعجمية : المأمونى ، والقاضى الجرجانى ، وأبو بكر الخوارزمى ، وبديع الزمان الهمذانى ، وأبو الفتح البستى ، والميكالى ، والباخرزى ، وابن الهبارية ، والأرجانى ، والأبيورى .

## المؤثرات العامة فى شعر هذا العصر

شعراء هذه الدولة ـ مع كثرتهم الغامرة فى كل إقليم ـ تناولوا الشعر ولكل منهم ملابساته الخاصة به ، واستعداده الذاتى ، ومزاجه الذى يميزه عن سواه ، إلى غير ذلك مما تتناوله الدراسة التفصيلية لكل شاعر من الشعراء

ولكنهم على اختلاف مواطنهم تأثروا بمؤثرات عامة شاملة ، كانت قوى تأثيرها متماثلة أو متقاربه فى توجيه الشعر توجيهات موضوعية وفنية وكانت آثارها ـ فى عمومها ـ واضحة شائعة ، لايختص بها إقليم دون إقليم .

وهذه هى المؤثرات :

١ — تأثر الشعر بهذه العناية التى وجهتها إليه الدول ، والتى تبارى فيها أصحابها على النحو السابق تفصيله وإجماله ، وأثار ذلك همم الشعراء وأحيا فيهم روح التنافس ، فأفرغ كل شاعر جهده فى تحوير شعره ، ليرتفع بفنه فوق منازل أقرانه ، ويصل إلى مايؤمل من جزيل العطاء ونباهة الصيت .

٢ — وتأثر بأنماط الحياة المتفاوتة ومنازعها المختلفة ؛ من يسر رخى يلين مسه ويطيب معه العيش ، أو عسر شديد يمر طعمه وتضيق به النفس ، ومن إقبال على الدنيا يتعلق بزخارفها ويتطلع إلى مناعمها ، أو إعراض ينفر منها وينأى بجانبه عنها .

٣ ـ وتأثر بتأصل الحضارة وازدهارها ، وتقادم العهد بها ، وتكشفها

كل نوع عن جديد من مظاهر الترف والزينة ، وتحطيمها القيود الخلق والدين وانفلاتها منها قيداً بعد قيد .

٤ — وتأثر بالنهضة العلمية تأثراً لم يتح مثله لمن سبق من الشعراء ، وقد عرفنا مما أسلفنا أن هذا العهد جاء وقد استوفت العلوم على اختلاف فنونها كفايتها من الرواية والجمع ، وتخطت مراحل الطفولة ، وتهيأت لها أسباب الكمال ، وأن المعارف المنقولة من الأمم الأخرى قد انبسط بها الزمن وطال وصححت ترجمتها وسهلت عبارتها ، وانكشفت غوامضها ، ويسرتها جهود المشتغلين بها على العقول والأفهام فنشأ الجيل الجديد من شعراء هذه الدول وآثار تلك النهضة مختلطة بأفكاره ، ومشاعره ، فظهر لذلك فى شعره نتائج جديدة ، وأخرى كانت قديمة ، ولكنها بدت فيه أوضح وأنضج مما كانت فى أشعار السابقين .

٣ — وتأثر كذلك بالنقد أيما تأثر ، فاتجه الشعراء إلى تمحيص الأفكار والمعانى ، وغربلة الألفاظ وتنقيتها فى الغالب الأعم ، ودققوا فى التعبير ، ولاحموا بين أجزاء القصيدة ، خوفا من تعقب النقاد .

وستعرف من حديث النقد مقدار ما أفاده من النهضة الفكرية وسياق الروح العلمية ، وإلى أى مدى كان تأثره بالفلسفة والمنطق ، وكيف اتضحت معالمه ، وتأصلت أصوله ، واستقامت أحكامه ، وسلمت من العصبية والهوى ، وتخلصت من إرسال الدعوى بدون دليل ، وكيف اتسع أفقه ، فتناول الأثر الأدبى من جميع نواحيه ، محاولا أن يضع المنهج الصحيح فى المعنى واللفظ والأسلوب :

ولكن ذلك لا يعفينا الآن من ضرب الأمثال ، لنرى أن النقد فى هذا العهد كاد يكون جبلة وفطرة . وأنه لا يرحم ولا يجامل وإنما يجابه الشاعر فى مجلس الإنشاد :

(١) — ومن أمثلة ذلك ما أورده الثعالبى فى يتيمة الدهر ، من أن

المتنبي أنشد سيف الدولة قصيدته :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ... وتأتى على قدر الكرام المكارم

فلما بلغ قوله :

وقفت وما فى الموت شك لواقف ... كأنك فى جفن الردى ، وهو نائم
تمر بك الابطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح ، وثغرك باسم

قال سيف الدولة قد انتقدنا عليك هذين البيتين كما انتقدنا على إمرىء القيس بيتيه :

كأنى لم أركب جواداً للذة ... ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الروى ، ولم أقل ... لخيلى كرى كرة بعد إجفال

وبيتاك لا يلتئم شطراهما ، كما ليس يلتئم شطرا هذين البيتين ، وكان ينبغى لامرىء القيس أن يقول :

كأنى لم أركب جواداً ، ولم أقل ... لخيلى كرى كرة بعد إجفال
ولم أسبأ الزق الروى للذة ... ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

ولك أن تقول :

وقفت ، ومافى الموت شك لواقف ... ووجهك وضاح ، وثغرك باسم
تمر بك الابطال كلمى هزيمة ... كأنك فى جفن الردى ، وهو نائم

وقال المتنبي : « . . . إنما قرن إمرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد . وقرن السماحة فى شراء الخمر للأضياف بالشجاعة فى منازلة الاعداء وأنا لما ذكرت الموت فى أول البيت ، أتبعته بذكر الردى ـ وهو الموت ـ ليجانسه ، ولما كان وجه الجريح لا يخلو من أن يكون عبوسا ، وعينه من أن تكون باكية قلت : ووجهك وضاح ، وثغرك باسم ، لانه جمع بين الاضداد فى المعنى ، وإن لم يتسع اللفظ لجمعها .

والرأى مارأى المتنبي :

أما فى شعر امرىء القيس ، فلأن مراعاة النظير من القواعد التى يأخذ بها الأدباء أنفسهم عند الإنشاء ، ويؤاخذهم النقاد بها عند الوزن والتقدير .

ولعلها هى التى أوحت إلى سيف الدولة بما اقترحه من ترتيب ؛ فقد ظن بالنظرة العجلى أن حديث الخيل أولى به أن يتصل ولا يتفرق ، وأن حديث الخمر أشبه بحديث النساء فهما لذلك أحرى بأن يتجاورا ويتلاحما .

وتدقيق النظر يقفنا فى صف إمرىء القيس وترتيبه لأنه يجمع لفخره فى هذين البيتين خلالا أربع : الأوليان ركوب الخيل لمتعة الصيد ، وتبطن النساء للذة والمجانة ، وكل منهما خصلة شخصية لايعدوا أثرها ذات صاحبها ، ومن هنا كان التشابه المقرب بينهما ، والأخريان سباء الخمر أى شراؤها لإكرام الضيفان ، وكر الخيل فى الميدان للنزال والطعان ، وهما صفتان اجتماعيتان ، تربطان صاحبهما بمجتمعه ، ولتناظرهما فى ذلك قرنهما فى قرن واحد .

وأما فى شعر المتنبى . فلا يعنينا ماتعلل به من أطراد ذكر الموت فى البيت الأول ، وتأتى الطباق فى الثانى ، فلو لم يقتض الموضوع وسياق المعنى هذا الترتيب ماشفع له مواصلة حديث الردى ولاتحقق الجمع بين الأضداد .

فالمتنبى يمدح سيف الدولة بالشجاعة فى بيته الأول ؛ وقد أوقفه فى موقف الهلاك الأكيد والرعب الخالع للقلوب ، فكان عليه أن يبرز أهم خصيصة للشجاعة فى مثل هذا الموطن ، وهى الثبات ورباطة الجأش ، وليس تصوير ذلك أدق ولا أبرع مما صنع فقد جعله من قوة الجنان وهدوء الفؤاد يخيل أنه محفوظ فى حرز حريز ، هو جفن الردى الذى يخشى منه الهلاك ، والجفن مطبق عليه النوم ؛ فمن أين يأتيه الخوف ؟

ولو أنه صور ذلك بوضاحة الوجه وابتسام الثغر ما أتى بشىء ، أو لأوهم الضعف فقد يكون ذلك من فقد اليقظة والحس ، وأخرجته شدة الهول إلى مايشبه البله والجنون .

وهو فى البيت الثانى يصفى حساب المعركة ويعرض فصلها الأخير ، وليست جميع المعارك سواء فى نهايتها ، فكم من معركة تضعفت فيها القوتان ، واقتربت حال الغالب فى ضعفها من حال المغلوب ، وقد يتكفى الشاعر فى تصوير هذه النهاية أن يجعل المهزوم مكلوما ، والهازم سليما لم يمسه سوء كأنه فى جفن الردى النائم .

ولكن المعركة ليست من هذا النوع ، فقد خرج المنصور منها سليم البنية موفور القوة ، ولذلك عرض عليه أسراه ، وهم أبطال مكلومون ، وهو مبتهج بظفر لم يبدد قواه . . . وبذكر النصر ومباهجه بعد الخذلان ومساوئه تأتى له الطباق .

(ب) ومن ذلك ما يروى المقريزى من وصف احتفال الفاطميين بفتح الخليج فى بعض السنين ، فهو يذكر أن الشعراء تقدموا للإنشاد بين يدى الخليفة على حسب مراتبهم فى الديوان ، فأنشد بن جبر قصيدة مطلعها :

فتح الخليج ، فسال منه الماء وعلت عليه الراية البيضاء

فأخذ الناس عليه قوله : فسال منه الماء ، وقالوا : أى شىء يخرج من البحر غير الماء ؟ وبذلك ضيعوا ماقاله بعد المطلع .

ثم أنشد مسعود الدوله بن جرير قصيدة منها :

ما زال هذا السد ينظر فتحه إذن الخليفة بالنوال المرسل

حتى إذا برز الإمام بوجهه وسطا عليه كل حامل معول

فقال الناس : أهلك وجه الإمام بسطوات المعاول عليه .

ثم تقدم كافى الدولة أبو العباس أحمد ، وكان مما صنعه بديها بالحضرة . وأنشده ، فنال عليه الجائزة والخلعة وزيادة العطاء :

لمن اجتماع الخلق يوم المشهد للنيل ، أم لك يابن بنت محمد ؟!

أم لاجتماعكما معاً فى موطن ... وافيتما فيه لأصدق موعد؟!

والحق بيد هؤلاء الناقدين فيما أخذوه على الشاعرين :

فلو أن الأول عدل عن الحقيقة فى لفظ الماء ، وسلك مسلك المجاز لدل على الماء بشىء مما يتسبب عنه ، فقال : سال منه الخير ، أوسالت النعماء ، أو ما أشبه ذلك ، لو صنع ذلك لتفادى ماوقع فيه .

ولو أن صاحبه ترفق فى التعبير ، ولم يشكل على السامعين بتوالى الضمائر المختلفة المراجع ، ماتبادر إلى أفهامهم سطو المعارك على وجه الإمام تهلكه ، مع أن الشاعر لم يرد إلا سطوها على سد الخليج تفتحه ، ولكنه لم يتلطف وقد يسبق الحين جهد الحريص .

وما كان أنجاه من اختلاط الضمائر ، ولائمة الناس ، لو أنه قال : حتى إذا أمر الإمام بكسره ، أو هدمه ، أو ماهو فى ذلك بسبيل .

( ج ) ثم انظروا بعد هذا وذاك فيما جاء باليتيمة من نقد سيوف الدولة لقصيدة شكره بها الخالدى ، وماروى فى «الصبح المنبى» عن تعقب أبى فراس لأبيات المتنبى فى قصيدته :

واحر قلباه ممن قلبه شبم ... ومن بجسمى وحالى عنده سقم

وقد تكون القصة صحيحة أو مدخولة ، ولكنها على أى وضع تحوى محاولة بارعه لرد هذه القصيدة إلى أصول ماسبق به السابقون على المتنبى ،

## اغراض الشعر فى هذا العصر

أبواب الشعر فى كل عصر لاتخرج عن نطاق الحياة فيه ، لأن الظواهر الاجتماعية والفكرية هى التى توجه بالشعراء إلى مايعالجونه من موضوعات :

وقد احتفظت الحياة فى العصر العباسى الثانى بكثير من تقاليد العصور السالفة وأصول الحياة فيها ، ولذلك بقيت أبواب الشعراء القديمة مفتوحة أمام الشعراء ، فقصدوا القصائد فيما سبقهم إليه السابقون من فنون المدح ، والهجاء ، والرثاء ، والغزل والفخر ، والوصف ، وما إلى ذلك من أغراض ألفت من قبل وتداولها الشعراء .

ولكن هذه الأصول والتقاليد التى احتفظت بها حياة هذا العصر من تراث الأسلاف ، لم تبق – وما كان ينبغى أن تبقى – على وضعها القديم ، وإنما تحور الكثير منها ودخل فى طور جديد ، وظهر إلى جانبه من أنماط الحياة ومذاهب الفكر مالم يكن للسابقين به إلف ، وقد عرفنا من أحاديثنا السالفة عن الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية مقدار ما دخل عليها من تبدل ، وما وجد فيها من أوضاع وألوان :

وهذا الذى اعترى جوانب الحياة من التبدل والتجدد ، جعل الشعراء يختلفون عن سابقيهم فى طريقة التناول للأغراض القديمة ، واقتضاهم أن يتوسعوا فى بعضها دون بعض ، ووجههم إلى موضوعات جديدة لم يسبقهم إلى شىء منها قدماء الشعراء .

## الأغراض القديمة للشعر فى هذا العصر

١ — المدح : غرض قديم قدم الشعر العربى ، والتفنن فيه لم ينقطع منذ اتخذه عبيد الشعر حرفة وأداة للكسب والارتزاق ، وقد كان لاختلال الموازين الاقتصادية واطراد الفساد السياسى منذ قديم ، كان لذلك مدخل أى مدخل فى أن كان نصيب المدح من ديوان الشعر العربى أكبر نصيب ، وفى انزلاق كثير من المادحين فى مزالق رخيصة خسيسة ، ليفتحوا قلوب المغرورين من الممدوحين .

وإذا قسنا مدح هذا العصر بما سبقه فى العصور الخوالى ، خرج من كلتا الناحيتين بأضفى حظ وأوفاه ، فالنتاج منه أغزر وأوفر ، تبعا لكثرة المادحين والممدوحين ، والخنوع والاستخذاء فيه أوضح وأفصح ، وذلك لتدافع الشعراء على الأبواب ، وترامبهم على الأعتاب ، وتنافسهم فى تملق شهوة الكبرياء فى نفوس ذوى الجاه والثراء .

ومقاييس المدح فى هذا العصر هى مقاييسه عند القدماء ، وعدته وصف الممدوح بصفات المثل الأعلى فى الرجل كما ، كان يراه السابقون، غير أن التنافس فيما بين الشعراء دفعهم إلى التفنن فى التعبير عن هذه الصفات وفى بيان مقاديرها عند من يمدحون ، وكان مدار المنافسة والتفنن على المبالغة والادعاء ، المبالغة فيم يكون بالممدوح من هذه الصفات ، والادعاء واختلاق مالم يكن له فيه أى نصيب ، وقد ذكروا أن الشعراء كانوا يتوافدون فى المناسبات على باب قابغاس بن وشمكير أحد ملوك السامانيين ، فيرسل إليهم الجوائز مع نائبه ، ويستحى من مواجهتهم — كما يقول — لأنهم مدحوه بما ليس فيه .

وما كان الممدوحون على طراز قابوس ، بل لعلهم كانوا على الضد من حاله ، ولذلك اندفع الشعراء فى المبالغة والادعاء يتخطون بها حدود العقل والذوق ، وقد يسوء معها الأدب ، أو يرق الدين ، فلا يحول دونهما حياء المادحين ، ولا تعفف الممدوحين .

وهذا المتنبى ، كان من أمدح شعراء هذا العصر ، ومن أشدهم كبرياء ، وأكثرهم تعاليا بنفسه ، ولكنه كان يساير روح الزمن ، ولا يمنعه كبرياؤه وتعاليه من الإيغال فى هذا الباب ، ومن أمثلة ذلك فى بدر بن عمار :

لو كان علمـك بالإله مقسما    في الناس ما بعث الإله رسولا
لو كان لفظك فيهمو ، ما أنزل ال    قرآن ، والتوراة والإنجيلا

وقوله في محمد بن زريق الطرطوسي :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه    لما أتى الظلمات ، صرن شموسا
أو كان صادف رأس عازر سيفه    في يوم معركة ، لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل يمينـه    ما انشق حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه    عبدت ، فصار العالمون مجوسا

ولا تسوغ معاني الشعرين في عقل ، ولا تستقيم مع دين ، اللهم إلا عقل ودين من يؤمن بالحلول ، فما أحيا عيسى عازر بعد مقتله ، ولا انفلق البحر لموسى لجازه ، إلا بمعجزة من الله لا ينالها غير الأنبياء .

وأقرع من دعاوى المتنبي قول السلامي :

يشبهه المداح في البأس والنـدى    بمن لو رآه كان أصغر خادم
ففي جيشه خمسون ألفاً كعنتر    وأمضى ، وفي خزانه ألف حاتم

ولو زاد في العدد إلى مالا يحصيه إلا الله ، ما وقف في سبيله شيء ، اللهم إلا أن يكون علماء الوزن والعروض .

٢ — الهجاء : والهجاء مع المدح منذ قديم كفرسي رهان ، وقد كان وافر المحصول في هذا العصر ، فشعراؤه يهجون من يمدحون إذا أخلفوا الظن ، وأضاعوا الأمل ، كما صنع المتنبي مع كافور ، وابن سبط التعاويذي مع ابن رئيس الرؤساء وابن الهبارية مع نظام الملك ، كان بعضهم يعد الأهجية مع المدحة من أول الأمر ومن ذلك ما ذكروا عن ابن الهبارية ، فانه قدم أصبهان ، وبها السلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك ، فدخل ابن الهبارية على الوزير ، ومعه رقعتان ، في إحداهما مدح ، وفي الأخرى هجاء ، فاعطاه الثانية غلطا ، وكان مما فيها :

لا غرو إن ملك ابن إسـ    حاق وساعده القـدر
وصفا لدولته . وخص    أبا المحاسن بالكـدر
فالدهر كالدولاب ليس    يدور إلا بالبقـر

فوقع الوزير عليها : يصرف لها القواد رسمه مضاعفا .

وقد يهجولا لشيء من ذلك ، وإنما للتفكه والتندر بالناس أو للحقد والحسد على من بسط الله لهم فى الرزق ، وإن مدوالهم حبل الوداد ، وقد ذكر الثعالبي أن أبا الفضل القاشانى بنى داراً ، وبالغ فى العناية بها ، وجاءه المهنئون ومن بينهم اللحام — وهو على بن الحسن الحرانى من شعراء بخارى — فسأله القاشانى احتفالا به وتكريما له — أن يدور ويتأملها ، ففعل اللحام ، ثم أنشد :

متىٰ أراها ينادى حولها اليوم؛ وللنساء بها عول وتلطيم؟ !
متى أراها يبابا لا أنيس بها ؟ ! متى يقام على الشيخ المآتيم ؟ !

ذلك لأن ضياع العدالة الاجتماعية شحن النفوس بالحفائظ ، فكانت تهيج لسبب ولغير سبب ، فتسل من اللسان سيفا صارما ، وسوطا قاطعا ، وتحيله إلى ميزاب يسيل بالهجر والفحش وتمنى السوء للناس ، كما يسيل فم الأفعى بالسم الزعاف .

ووسيلة الهجاء فى كل حين هى تصوير المهجو بصورة المثل الأدنى فى الإنسانية والمروءة ، أو المثل الأعلى فى الخساسة والضعة ، إن صح هذا التعبير .

وهذه الصورة تختلف من عصر لعصر ، بحسب صفات السوء التى يعرفها أهله ، وقد أنبتت حياة الانحلال فى الحضارة العباسية كثير من الهنات والمقاذر ، فكان الشعراء يلتقطونها من مباءاتها ، ويلطخون بها المهجوين ، ويبعدون فى ذلك ويوغلون ، إلى أن يستعدى الناس عليهم السلطان ، كالذى حدث لأهل بخارى مع اللحام ، فقد كان — كما يقول الثعالبي — من شياطين الإنس ، لا يسلم من هجائه أحد من الكبراء والوزراء والرؤساء ، فضج أهل بخارى من عيثه فى الأعراض ، وشغل الحاكمون بأمره ؛ فصدر الأمر السلطانى بنفيه عن الحضرة ، وتابعته الكتب بأن تزعجه الشرطة ولا تتركه يستقر بمكان ، حتى مات على ظهور الرحال .

بل قد يبلغ الإقذاع والإفحاش فى بعض الأحيان مبلغا لا يشفى منه ولا يغسله إلا الدم ، وذكر بعض الرواة أن أكبر السبب فى مصرع المتنبي قصيدته التى هجا بها ضبة بن يزيد العيني ، ورماه فيها بالأبنة ، ورمى أمه بالزنا ، وهى التى مطلعها :

ما أنصف القـــوم ضبة وأمه الطرطبـــة

وكذلك ذكروا أن الوزير نظام الملك أهدر دم ابن الهبارية لما عاودو هجاءه .

وليس من الضروري أن يكون بالمهجوا عيب مما يصمه به هاجيه ، وإنما هو رمى بالحق وبالباطل ، ومن برئت صحيفته من العيوب ؟! فأوساخ المجتمع تغص بها الطرقات ، وما على الهاجي إلا أن يأخذ منها ويقذف ، فان لم تلتصق بالمقذوف فى نظر من يعرفه ويحق حقيقته فهى لا صقة لا محاله عند من يجهله أو يتشكك فى حاله ، وبهذا المعنى يتهدد ابن سكرة الهاشمي بعض الناس ويتوعده بهجاء لا يندفع عاره بما يعرف الناس من نقاء ثوبه ، فيقول :

تهت علينا ، ولست فينا ولى عهد ، ولا خليفة

فته ، وزد ، ما على جار يقطع عنى ، ولا وظيفة

ولا تقل : ليس فى عيب قد تقذف الحرة العفيفة

الشر نار بلا دخان وللقوافى رقى لطيفة

لو هجى المسك — وهو أهل لكل مدح — لصار جيفة

وهذه الرقى اللطيفة التى ينسبها ابن سكرة للقوافى ، هى سر براعة شعراء هذا العصر فى الهجاء ، فلو أنهم جمعوا مافى الدنيا من عاب ، وألصقوه بالناس ، وعرضوه فى معارض الهجو المعتاد ، لوأنهم فعلوا ذلك ما بلغوا به مايريدون من تنكيس الرءوس ، وربما كان فيه ما يرقق بعض القلوب على المهجوين ، ويحفظها على الهاجين .

ولكنهم تلطفوا فى العرض ، وافتنوا فيه افتنانا عجيبا ، باستخراج المعانى الدقية والصور الغريبة من تلك التهم والمعايب وبصوغها فى أسلوب قصصى مشوق يشغل عن أصل التهمة وتحقيقه وينسى مافيها من افتئات وبهتان وظلم صارخ وعدوان .

ثم ارجعوا إلى الواسانى وهو من شعراء اليتيمة ، فله أهاج قصصية يمتد فيها نفسه ويطول باعه ، حتى ليقارب باحداها مائة وأربعين بيتا ، وقارىء أهجياته لا يبالى بما فيها من مقاذر وأوساخ ، ولا يمل من طولها ، لحسن العرض وبراعة الحوار فيها ، ومن شاء فليرجع إلى يتيمة الدهر ، وليتبلغ الآن بهذه القصة الهجائية مما صنع ابن سكرة ، وهى لا تخرج عن الأصل المتعارف فى الهجاء من

التعيير بالبخل ، ولكنها تتناوله تناولا بعيدا مشوقا .

تجشأت فى وجه بوابه ليعرف شبعى ، فملا أمنع
وقلت له : إن بى تخمة فهل من دواء لها ينفع ؟
فقال : لقد غرنى معشر بهذا الحديث الذى أسمع
فلما تذرت بهم صاحبى ولاحت موائده ، أوجعوا
فراحوا بطانا ذوى كظة وأقبلت من أجلهم أصفع

والدقة تقتضينا أن نشير إلى بوادر من هذا الأسلوب فى هجاء الحطيئة وأبى العتاهية ولكنها كانت بوادر قليلة لم يتوسع فيها أحدهما ، ولم تشع فى زمانه ، مثلما اتسع مجالها وشاعت بين هؤلاء الشعراء .

٣ — الحكمة والمثل :

والحكمة والمثل يعرفهما الشعر العربى منذ العهد الجاهلى ، ولكن شعراء هذا العصر توسعوا فيهما وأحسنوا كل الإحسان .

وسر ذلك أنهم للاسباب التى أسلفناها ، تأثروا بالثقافة الفلسفية أكثر مما تأثر السابقون ، فصقل ذلك عقولهم ، ونمى فيهم ملكة الإدراك والحكم الصحيح ثم إنهم أتيح لهم من الذخائر المترجمة فى ذلك عن اليونان والفرس والهند أكثر مما أتيح للأسلاف .

ولذلك جاء نتاجهم من الحكم والأمثال وافرا غزيراً ، يبتكرونه ويستنبطونه بعقولهم أو يقتبسونه مما ترجم لهم ، وقدصنع الحاتمى رسالة يتعقب فيها المتنبى ، ويحاول رد حكمه إلى أصول من فلسفة أرسطو الخلقية ، ومن شعراء اليتيمة شاعران أولعا بنقل الأمثال الفارسية إلى الشعر العربى فى قصائد ومزدوجات تستقل بها أحدهما المروزى أبو الفضل أحمد بن محمد بن زيد السكرى ، والثانى أبو عبد الله الضرير الابيوردى ، وحديثهما فى اليتيمة ، ومعه آثار مما صنع كل منهما فى ذلك .

وكان هذا النتاج مع غزارته ووفرته ممتازاً بالدقة والنضج ، مبنيا على دراسة النفس البشرية ، ومعرفة طبائعها وخصائصها ، وفهم حقائق الحياة ، واستشفاف أسرارها ، وحسبكم دليلا على ذلك ما تحفظون من حكم المتنبى ، وأبى العلاء ومن سار على هداهما فى هذا الدرب .

٤ — الوصف : والوصف انفرجت دائرته واتسع ميدانه فى هذا العصر ، فقد نبهت الحضارة المزدهرة أذهانهم ، ولفتتها إلى مصانعها الفخمة ومظاهرها الرائعة ، فتناولوها بالتصوير الشعرى الدقيق ، وناهيكم بما صنعه جمال الشام فى شعرائها ، وما دفعهم إلى وصف مجالى الطبيعة ومرائى الحسن فيها ، واقرءوا لتعلموا صدق ذلك لأى شاعر منهم . وعلى الأخص الصنوبرى وكشاجم .

على أن الشعراء لم يخصوا بالوصف عظيم الأشياء وجليلها . بل إنهم لم يفلتوا منه شيئا حتى التوافه الصغيرة . وكأنما أصبحت قوة الوصف طبعا فيهم . فلا يقع نظرهم على منظر أو مرفق إلا أعطوه حقه من التصوير . وارجعوا إلى ترجمة المأمونى فى اليتيمة ابروا فيضا من المقطعات الشعرية يتناول فيها بالوصف الدقيق المنارة . والكرسى . والناو . والحمام والسطل والكرنيب . وحجر الحمام . والليف . والمنشفة . والونبيل والكوز . والشرابية . وأدوات الكتابة . وألوانا كثيرة من الشراب وآلاته . وأشكالا متنوعة من الطعام ، حتى اللوز الرطب واليابس ، والباقلاء الأخضر والمنبوت .

وأهم من هذا وذاك نوع من الوصف ، كاد ينفرض فأحياه هذا العصر ، وهو وصف المعارك الحربية وما يكون فيها من عدة وسلاح ، وما يدور بها من كر وفر . وما تنتهى إليه من هزيمة أو نصر . وذلك لكثرة ما التحمت جيوش المسلمين بجيوش المغيرين من الروم والصليبيين . وأبرع الوصف لهذه المعارك أولئك الذين التفوا حول سيف الدولة ، ونور الدين زنكى . وصلاح الدين الأيوبى ومن شهدوا معهم المواقع من شعراء الشام والجزيرة ومصر . وأشدهم براعة شعراء سيف الدولة فى الشام : مثل المتنبى . وأبى فراس . والنامى . وأبى الفرج الببغاء .

وهذه المعارك نفخت الحياة فى فن قديم كان قد أدركه البلى ، وهو الشعر الحماسى الذى يحرض على الجهاد ، ويحيى فى النفوس روح الإقدام : ويحبب إليها التضحية والفداء فى جهاد المغيرين . واستخلاص المدن والسبى من أيديهم . وآثار ذلك واضحة فى شعر من واقعوا هذه الحروب . وفى سير البطولة الموضوعة فى هذا العصر . لإيقاظ الشجاعة والاستبسال فى نفوس الناس . كسيرة عنترة . والبطال وفتوح الشام .

٥ — شعر الهزل : وشعر الهزل والمضاحيك وهو الذى يسخر فيه الشاعر من نفسه . أو من غيره . جلبا للسرور . وترويحا عن النفوس .

ويغلب على هذا النوع من الشعر الارتجال . على حسب المناسبات الطارئة فى مجالس الأنس واللهو . ويمتلىء بالمعانى الفاجرة . والألفاظ الداعرة . ويشتمل على صور عجيبة من السخرية والتهكم . وقد يبرع بعضهم فى ذلك . فيشرح صدر الثكلان . ويستل الضحك من القلب الحزين .

وكل مظهر من مظاهر الحياة مادة لهذا الشعر وموضوع . حتى الموت . لا يحول جلاله وعظم المصيبة فيه دون أن يخرجه المطبوعون على الفكاهة مخرج السخرية والتهكم . وهذا ابن الحجاج يعزى رجلا عن امرأته التى سقطت من السطح فماتت . فيقول :

| | |
|---|---|
| عفا الله عنها . إنها يوم ودعت | أجل نقيد فى التراب مغيب . |
| ولو أنها اعتلت لكان مصابها | أخف على قلب الحزين المعذب |
| ولكن رأت فى الأرض أفعى مجدلا | على قدر غرمول الحمار المشغب |
| فظنته أيراً . والظنون كواذب | إذا أخبرت عن عام ما فى المغيب |
| وأهوت إليه من يفاع . ودونه | ثمانون باعا فى علو مصوب |
| فصارت حديثا شاع بين مصدق | تحققه علما ، وبين مكذب |
| سعى الطمع المردى إليها بحتفها | ومن يمتثل أمر المطامع يعطب |
| فأعظم — ياهذا — لك الله ربها | وربك أجر الشكل فى شاة أشعب |

وأشعب مضرب الأمثال فى الطمع . وقد سئل : هل رأيت أطمع منك ؟

فقال : نعم : شاة كانت لى على سطح . فنظرت إلى قوس قزح : فظنته حبل قت . فأهوت إليه واثبة : فسقطت من السطح . فاندق عنقها .

ولهذا الضرب من الشعر بواكير مما كان يصنعه أبو دلامة فى مجلس المنصور والصيمرى فى مجلس المتوكل . والحمدانى مع ابن حرب وطيلسانه . ولكنهم كانوا قلة وسخريتهم تنصب على غيرهم . أما هذا العصر فقد كثر فيه فرسان هذا الميدان . وكان لهم فى باب الهزء والإضحاك باع طويل . وصورة بديعة : وإذا أعوزهم من يسخرون به ويضحكون الحضرة منه اتخذوا من أنفسهم موضوعا للسخرية والإضحاك ، ومن مشاهيرهم ابن الحجاج . وابن سكره ، وأبو الرقعمق

وصريع الدلاء وابن الهبارية ؛ وشعر الجلات الهزلية وصورها الآن امتداد لجهود هؤلاء الشعراء .

## الأغراض الجديدة للشعر فى هذا العصر

### ١ — الشعر الفلسفى :

هو من مواليد العصر العباسى الثانى . وقد سبق فى حديثنا على الحركة الثقافية واتجاهاتها . أن تعرفنا على هذا اللون من الشعر . وبينا سر نشأته فى هذا العصر . وفرقنا بينه وبين شعر الحكمة ، ونبهنا على أشهر المصطنعين له من فلاسفة الشعراء وشعراء الفلاسفة ، وضربنا له الأمثال هناك .

### ٢ — الشعر الاجتماعى :

هو الشعر الذى ينعى على المجتمع فساده ، ويندد بما يعتور جوانبه من نقص واختلال . وإذا استثنينا قصيدة وحيدة لأبى العتاهية يصور فيها للخليفة ضيق أهل بغداد بالغلاء . إذا فعلنا ذلك استطعنا أن نجعل هذا الفن من ظواهر الشعر التى جدت فى العصر العباسى الثانى . وحسبه ما أخرجت قريحة أبى العلاء من قصائد ومقطعات . تنقد نظم الحكم وأساليبه العفنة وتعرض المذاهب الدينية والفكرية ، وتدرس عادات الناس ، وأخلاق الطوائف المختلفة إلى غير ذلك من أوضاع الحياة الفاسدة وقد مر لهذا الشعر أمثلة فيما مضى من أحاديث .

### ٣ — الشعر الساسانى :

هو — كما عرفنا قبل — من نبت هذا العصر ، وهو كسابقه وليد الفساد الاجتماعى . وثمرة من ثمرات الظلم فقد ظهر بسبب قسوة الحياة طائفة الساسانيين أهل الكدية ، وكان فيهم أدباء وشعراء . فأنشئوا القصائد لا لينعوا على هذا الفساد ، ولا لينقدوا النظم البالية كما يصنع الشعر الاجتماعى ، وإنما يسجلون بها شجاعتهم فى مجابهة الحياة القاسية . وطرق احتيالهم على العيش العصى ، فى أساليب قوية يشوبها شىء من غرابة لغتهم التى تواضعوا عليها وسموها « مناكاة بنى ساسان » وفى أحاديثنا السالفة ما يشير إلى شىء من المشابه والفروق التى بينه وبين شعر الصعلكة فى الجاهلية من ناحية وبينه وبين أزجال « الأدباتية » فى عصرنا الحاضر من ناحية أخرى ، وفى تلك الأحاديث كذلك نماذج من هذا الشعر

٤ — الشعر الصوفى :

والشعر الصوفى كذلك من ثمرات العصر العباسى الثانى ، وقد نشأ التصوف من قبله ، وكان لبعض المتصوفة أشعار ، ولكنها أقرب إلى شعر الزهد منها إلى هذا الذى نعنيه ، وهو ما أنشأه شعراء الصوفية فى هذا العهد — من أمثال ابن الفارض — يقررون به حقائق التصوف ، ويبينون مقاماته وأحواله ويعبرون عن أسراره تعبيراً رمزيا ، يستعيرون فيه أساليب الغزل والخمريات ، ويبالغون فى تجميله وتحميله بأثقال من زخارف البديع .

ولصعوبة الرمز فى هذا الشعر تختلف الأنظار فى فهمه وتفسيره ، فمن أخذه على ظاهره ظنه غزلا ، أوشعراً خمريا ، أو ماهو منهما بسبيل ، ومن عرف شيئا من أسرار التصوف ، نفذ إلى باطنه ، وأدرك مراميه البعيدة ، وكذلك صنع الشراح فى شعر ابن الفارض ، فشرحه البورينى شرحا أدبيا يساير الظاهر ، وشرحه النابلسى شرحا صوفيا يغوص إلى الأعماق الغائرة ليستخرج الكنوز من الرموز وهذه أبيات من سهل شعره ، لا يثقل عليها كما أثقل على غيرها بزخارف البديع ويقتصر فيها من الرمز على سلوك مسلك الشعراء الغزليين :

| | |
|---|---|
| يا مانعى طيب المنام ، ومانحى | ثوب السقام به ، ووجدى المتلف |
| عطفا على رمقى ، وما أبقيت لى | من جسمى المضنى ، وقلبى المدنف |
| فالوجد باق ، والوصال مماطلى | والصبر فان ، واللقاء مسوفى |
| لم أخل من حسد عليك ، فلا تضع | سهرى بتشنيع الخيال المرجف |
| واسأل نجوم الليل: هل زار الكرى | جفنى ؟ وكيف يزور من لم يعرف |
| لاغرو إن شحت بغمض جفونها | عينى ، وسحت بالدموع الذرف |
| وبما جرى فى موقف التوديع من | ألم النوى شاهدت هول الموقف |
| إن لم يكن وصل لديك فعد به | أملى ، وماطل إن وعدت ولا تف |
| فالمطل منك لدى إن عز اللقا | يحلو كوصل من حبيب مسعف |

## معـــانى الشعر

يختلف حظ الشعر من المعانى فى أول هذا العصر عنه فى آخره ، فقد احتفل السابقون من شعرائه بجانب المعنى . ولم يشغلوا عنه بما يجنى عليه فى الغالب : من ترصد لحلى البديع ولذلك جاء شعرهم فى جملته أحفل بالمعانى ، وأخصب من شعر المتأخرين وقد أعانهم على هذا الغنى بالمعانى أمور . منها الحضارة التى نفننت فى عهدهم وازدهرت ، فقد أرهفت حسهم بما توارد عليه من مرائيها . المتعددة ومجاليها المختلفة . وشحذت أذهانهم بكثرة ما عودتهم من حل عقدها ومشاكلها وبذلك دق انتباههم إلى خفايا المعانى . ولطف احتيالهم على استخراج مكنوناتها ودقائقها .

ومنها النهضة الفنية فى جميع فروع العلم . واتساع دائرة الثقافة . وكثرة ما نقل إليهم من معارف أجنبية . وانكشاف الحقائق الفلسفية لهم أكثر مما انكشفت للسابقين . فقد صقل ذلك كله عقولهم . ووضع تحت أيديهم ذخائر من المعانى يستمدون منها بين الحين والحين .

ومنها استمدادهم من معانى الشعراء السابقين . فكثيرا ما كانوا يئلون إلى آثارهم . ويقتبسون من معانيهم . وبخاصة معانى الموضوعات المعروفة منذ قديم وستعرف شيئا عن ذلك بعد قليل .

فبكل أولئك استطاعوا أن يكونوا لهم ثروة من المعانى ، وأن يملئوا شعرهم بالجديد منها والقديم .

### المعانى الجديدة

وقد كان لهم من المعانى المبتكرة نصيب لا بأس به ، ولكنه لا يقاس أبدا بما أخذوه من معانى السابقين :

ونستطيع أن نعثر على شواهد هـذا التجديد فى شعر المتقدمين منهم أكثر مما نجدها فى شعر المتأخرين ، وأشبه المواطن بها تلك الأبواب الجديدة التى فتحوها للشعر . وتلك التى توسعوا فيها أكثر مما توسع السابقون . وأقرب

الأمثلة لذلك تلك الحقائق الفلسفية التي أفرد لها بعض الشعراء قصائد ومقطعات وتلك الثروة الثرية التي خلعوها من الحكم والأمثال .

## المعانى القديمة

أما المعانى القديمة فقد كانت مورداً عظيماً يستمد منه شعراء هذا العهد ، وهذا هو الشأن فى كل عصر ، إذا ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تداول المعانى ممن تقدمهم ، والصب على قوالبهم . كما يقول أبو هلال فى الصناعتين .

وسبب ذلك ما يشير إليه القاضى الجرجانى فى كتابه الوساطة ، وهو أن المتقدمين قد سبقوا إلى أكثر المعانى . وأتوا على معظمها ، وكادوا يستغرقونها فلم يتركوا منها إلا بقايا قليلة ، رغبة عنها ، أو استهانة بها ، أو لبعد مطلبها واعتياص مثالها ، وذلك واضح كل الوضوح فى الموضعات القديمة التى توارد عليها السابقون واللاحقون .

وقد أكثر شعراء هذا العصر من تناول معانى القدماء ، فكانوا يحسنون ويسيئون . ولكن غلب على المجيدين من أوائلهم الإحسان ، إذ كانوا غالبا يتلطفون فى الأخذ ويجتهدون أن يكون لهم معه فضل ، فيعدلون المعنى المأخوذ أو يجبرون نقيصته ، أو يزيدون عليه . أو يضربون له الأمثال ، أو يحتجون له بحجة عقلية . أو يلتمسون له تعليلا حسنا . أو يعيدونه فى تعبير أدق وتصوير أروع . أو ما أشبه ذلك مما يخرجون به المعنى فى صورة جديدة . لا تقل عن الإبداع والاختراع .

ووجوه الإحسان والإساءة فى الأخذ قد تكفل بتفصيلها باب السرقات الشعرية . وهو باب فتنه نقاد هذا العصر : وبسطوا القول فيه ، وأمثلة الأخذ المحسن والأخذ المسيء كثيرة فى مواطنها من كتب النقد ، وشرح الدواوين . فنحيل عليها . ونكتفى بإيراد القليل للتذكير .

مثل لإجادة الشعراء فى أخذ المعانى :

١ — جرير يهجو :

فلا يمنعنك من أرب لحاهم　　سواء ذو العمامة والخمار

وقال المتنبي فى الغرض ذاته :

ومن في كفه منهم قناة    كمن في كفه منهم خضاب

جرير سابق بقوله . فهو صاحب المعنى . والمتنبي آخذ منه . وقد يظن من النظرة العجلى أنهما يستويان في الأداء . بل لقد ظن ذلك بعض قدامى النقاد . فهل هذا صحيح ؟ .

صحيح أن الشاعرين يتفقان فيما يسميه عبد القاهر الجرجاني المعنى الأول ، وعلامته أن يكون من أمهات المعاني . التي شاعت بين الناس . وصارت تشبه البدهيات ، وفي هذا المعاني لا يتفاضل الشعراء . لأنها مطروحة في الطريق ، يعرفها البدوي والحضري . والعربي والعجمي . كما يقول الجاحظ ويتابعه عليه النقاد .

والمعنى الأول في البيتين : هو ذم المهجوين بالجبن والخور . وأنهم لضعفهم لا يمتنعون على من يريدهم بالخسف والإذلال .

وصحيح كذلك أنهما يلتقيان معاً عندما يسميه عبد القاهر المعنى الثاني ويجعله مناط التمايز بين الشعراء لما يحتاجه من براعة وأصالة فن . وهو في الغالب معنى يترتب على المعنى الأول ، ويتفرع عنه . ويدل به الشاعر عليه . وينتقل ذهن السامع أو القارىء منه إليه .

وهذا المعنى الثاني في البيتين هو إهدار الفروق بين الرجل والمرأة . وتسويته بها . ومن وراء ذلك لحاقه بها في الجبن والضعف .

ولكنهما في العبارة عن هذا المعنى الثاني يختلفان . فأيهما أبرع من صاحبه في التعبير وأروع في التصوير .

أما جرير فقد سوى في بيته بين مطلق رجل وهو ذو العمامة . ومطلق امرأة وهي ذات الخمار . ونسي أن الإطلاق يجافي الدقة في التعبير :

فالرجل أي الرجل : قد يكون شيخاً هما . حطمه الهرم . وأوهنت قواه السنون فهو حينئذ أقل غناء من ذات الخمار . والتسوية بينه وبينها ادنى إلى الخطأ منها إلى الصواب .

وأما المتنبي فلم يفته ذلك . ولذلك جعل التسوية بين المثل الأعلى في البأس والشجاعة ، وهو الرجل المتأهب للنزال بما يحمل من أدوات النضال : وبين

المثل الأعلى فى الطراوة والحراعة . وهى المرأة الغارقة فى أنوثتها ، المشغولة بإبراز محاسنها والإعلان عنها ؛ فهى تتعهد نفسها بأسباب النظرية والزينة . ومنها تجميل الكف بالخضاب .

٢ — وقال جرير أيضاً :

إذا غضبت عليك بنو تميم ... رأيت الناس كلهموا غضابا

فاستفاده أبو نواس حين قال :

ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم فى واحد

ثم جاء المتنبي فقال فى مدح ابن العميد :

وجمعت كل الفاضلين كأنما ... جمع الإله نفوسهم والأعصرا
نسقوا كما نسق الحساب مقدما ... وأتى . فذلك إذ أتيت مؤخراً

ولا شك أن المتنبي نظر إلى بيت أبى نواس . وفعل الجمع وإسناده إلى الله فى البيتين من أقوى أدلة ذلك . ولكن فضل المتنبي واضح ليس فيه خفاء :

والمدح أولى به التصريح .

ولأنه بذلك تحاشى فيما جمعه لصاحبه التخليط أو إيهامه على الأقل . فلم يجمع له غير فضل الفضلاء : وأبو نواس جمع العالم فى صاحبه : وفى العالم الخطير والحقير . والخير والشرير . والنافع والضار . والعالم والجاهل : وفيه كل ماشئت من متقابلات .

ثم لأنه أعطانا هذه الصورة البيانية الرائعة التى تغيب عن كثير من الأذهان والتى وضحت قدر ابن العميد بين من سبقوه من الفاضلين . فهو خلاصة الخلاصة ومثلهم قبله مثل مقدمات الحساب وتفاصيله . تسبق وتتقدم ، وتتسلسل وتتلاحق ثم تجىء النتيجة والجملة كما جاء ابن العميد .

٣ — وقال المتنبي .

لم تزل تسمع المديح ولكن ... صهيل الجياد غير النهاق

فأخذه أبو القاسم الزعفرانى ، وهو من شعراء الصاحب بن عباد . فقال :

تغنيك بالمديح طيور    أنا وحدى ما بينهن الهزار

والبراعة فى جانب الوعفرانى ، وجمال الفن يتجلى فى سمو خياله الذى أحكم التناسب بين المتقابلات، واستمد لكل منها صورة من أقرب الأشياء إليه وأشبهها فالشعر غناء ، والشعراء طيور مغردة: وهو الهزار أشجى الطيور غردا لأنه كما يرى نفسه أسمى الشعراء شعراً .

والمتنبى خانه التوفيق ، واعتسف به الخيال حين أدخل الشعراء فى باب النهاق والصهيل . وقابل الشعراء بالحمير . وربط نفسه فى حظيرة الخيل ، وما كان أحرى بمدوحه أن يلطمه بما جعل مادحيه بها ثم أصواتها أنكر الأصوات كما قال الله .

٤ — وقال أبو تمام :

أرخت خماراً على الفرعين، وانتقبت    للناظرين بقد ليس ينتقب

وقال السرى الرفاء :

وأبت ـ وقد أخذ الخمار جمالها    حركات غصن البان أن تتنقبا

مقصد كل من الشاعرين أن لفاتنته أروع قوام ، ولو أنهما قالا ذلك ابتداء ما كان لهما فضل ، لأنه تعبير ساذج يقوله كل من راعه قد جميل : ولذلك استنجد كل منهما شاعريته وبراعة فنه . ليؤدى هذا المعنى الأولى بمعنى ثان جديد .

والمعنى الجديد الذى ابتدأ به أبو تمام وخلفه عليه الرفاء ، هو أن هذا القوام ـ لتفرده فى الكمال ـ لايخفى على من يعرفه . وإن حاولت صاحبته ستره وتغطيته وفى تصوير هذا المعنى اختلف الشاعران .

أما أبو تمام فقد أداه حين وصف القد بأنه لا ينتقب : وكل مالا يستره لاشك أنه مكشوف يسهل التعرف عليه،وبهذا يكمل المعنى الثانى ، ولكنه لا يعطينا المعنى الأول كاملا مع أنه هو المقصود . لأن معالم الجمال فى القامة لا زالت فى حاجة إلى ما يعبر عنها . ويشير إليها .

وأما السرى فقد كان أبرع فناً ، وأدق تصويراً ، فهو لم يقتصر على نفى الانتقاب عن القد نفيا ساذجاً كما صنع أبو تمام . بل أخرجه فى صورة رائعة تجعل القد يأباه ويمتنع عليه : وإذن فليس من الممكن أن يغطى أو يخفى أبداً .

ثم إن انكشاف القد وسفوره لا يكفى لتصوير جمال هذه القامة وجذبها الأنظار فليس من الضرورى أن يكون السافر المكشوف جميلا : ولذلك عمد السرى إلى استعارته الرائعة البارعة . فنقلنا عن غصن البان وحركاته إلى روائع القد . وجذب الأنظار إليه من استقامه ولدونه وتأوذ .

مثل لإساءتهم فى أخذ المعانى :

إذا قسنا إساءات هؤلاء الشعراء باحسانهم فى تداول المعانى السابقة . غفر لهم الإحسان . لأن كفته كانت أرجح كما قلنا من قبل . وإذ قد عرضنا لهم بعض الحسنات . فلنعرض إلى جانبها بعض السقطات ، مع التنبيه على مواطن السقوط . ليتخذ من ذلك قياساً من أراد القياس .

وأوضح ما يكون العثار إذا تعرض الشاعر لمعنى قد استوفى كماله على أيدى السابقين . ولبس من العبارة ثوبا يليق به ويلتئم تفصيله مع قده . فمساه حينئذ أن يضل الطريق . ويدخل عليه التقصير ، وقد ينتهى به المطاف إلى الإخلال بالمعنى . أو التشويه لصورته . أو التعقيد فى التعبير عنه ، وهذه أمثلة قليلة نستطيع أن نرى بها كيف كانت تدخل عليهم الإساءة ، من حيث يريدون الإحسان :

١ — قال أشجع السلمى :

فاذا تنبه رعته ، وإذا غفا سلت عليه سيوفك الأحلام

وقال السرى الرفاء :

لا يشرب الماء إلا غص من حذر ولا يهوم إلا راعه الحلم

يقول كل منهما لصاحبه : إن مخافتك تأخذ على عدوك يقظته ومنامه .

وقد أحسن السرى التناول فى الشق الأول من المعنى ، لأنه أتى بأقوى صورة يتمثل فيها رعب اليقظان ، وهى صورة اضطرابه المذهول . الذى يشل جهازا من جسمه عن عمله . حتى ليعجز حلقه عن إساغة الماء ، وهو أسوغ ما تجرى به الحلوق .

ولكنه قصر فى تصوير الشق الثانى . حيث أخلى الصورة مما يشير إلى نوع الترويع فى الأحلام . أو إلى سببه وحدثه .

ولكن أشجع كان أبرع . لأنه فسر طريقة الترويع بما ذكره من سل السيوف ثم بادر بنسبتها إلى صاحبه باضافة السيوف إلى ضميره ، وبذلك كان بيته أبين للغرض وأوقع فى نفس الممدوح .

٢ — ويقول أحد السابقين :

وإذا الدر زان حسن وجوه　　كان للدر حسن وجهك زينا
وتزيدين أطيب الطيب طيبا　　إن لمستيه ، أين مثلك أينا ؟ !

ثم يجيء المتنبي ، فينظر إلى البيت الثانى . ويقول .

الطيب أنت ـ إذا أصابك ـ طيبه　　والماء أنت ـ إذا اغتسلت ـ الغاسل

يتحدث الأول عن روعة الجمال فى حبيبته . فيقول إنه جاوز الغاية . حتى ليسبغ على الأشياء الجميلة زيادة من الجمال . فاذا سلم له الحكم بجمال صاحبته : صح له هذا التفريع . لأن قيم الأشياء ، تختلف باختلاف مواقعها ، ولا شك أن جمال الحلى على الشوهاء دونه على الحسناء . وبتفاوت الدرجات فى حسن الحسان تتفاوت درجات الروعة فيما عليها من حلية وإن كانت من جنس واحد ونوع واحد ، وكذلك الأمر فى الطيب ، يكون أسطع فى واحدة وأذكى منه فى أخرى تبعا لوقع جمالها وتأثيره على النفس .

والمتنبي مثله يقصد إلى أن كمال ممدوحه فياض ترتفع به الأشياء على أقدارها ولو كانت مثلا عليا فى بهائها .

ولكنه اعتسف حين وضع أمام عينه المبالغة ، فجعل صاحبه عطراً للعطر . وغاسلا للماء ، وهذا مما تمجه العقول . ثم زاد اعتسافا بتعقيد العبارة عن هذا المعنى السخيف . مع أن سلفه لم يبعد فيما استخرج من معنى ، ولا فى أدائه أداء ترتاح له النفس ، ولا يتعسر عليها انتزاعه منه .

٣ — ويقول أبو تمام :

ولو لم يكن فى كفه غير روحه　　لجاد بها . فليتق الله سائله

ثم يعقبه الرستمي فيقول في الصاحب بن عباد :

قل لباغي الندى : خف الله لا تسأله عمراً ، فإنه موهوب

وغاية كل منهما أن يضع ممدوحه في قمة الكرم ، وآية ذلك أنه لا يعتز بشيء على الهبة . فهو يعطي ما في يده . ولو كان روحه التي يحيا بها .

وبراعة أبي تمام لا تعوزها الإشارة ، فالفرق بعيد بين الروح والعمر ، فكلمة الروح تصلنا من أول وهلة بالمعنى الذي يريده ، لأنها أغلى ما يغالي به الإنسان . وتحيزها في مكان — ولكن الكف كما في البيت — ممكن التصور ومما يسهل تصوره لقرانها — في الذهن دائما وفي الذكر غالباً — بالجسم ، وهو دائما في حيز ومكان . فليتبع ذلك تصور تحويلها من يد الواهب إلى يد السائل وأين العمر من هذا . وهو أوقات وأزمان ؟ .

ثم إن العمر يشمل ما فات من حياته وما بقي ، وهو من غير شط يقصد باقيه ولكن أين دليله من لفظه ؟ .

على أن لأبي تمام — بل عليه — أن يطالب السائل بتقوى الله . بعد أن ذكر استمداد صاحبه للجود بروحه . إن لم يجد غيرها في كفه . وذلك يقتضي التنبيه والتحذير . أما الرستمي فقد جبهنا بالتخويف دون ما يستدعيه ؛ بل إنه افتعله افتعالا . ليقتحم هذا المعنى الذي أخذه فأبذله .

٤ — وهذه أبيات لأبي بكر الخوارزمي ، يتناول فيها معنى تناوله كل شاعر قبله ، وكل شاعر بعده ، فما يخلو ديوان شاعر من غزل صادق ، أو متصنع ، وندر ألا يكون لمتغزل شكوى من هجر الحبيب ، ووصف لما يقاسي في بعاده من ألم ولوعة وعذاب .

ولنكون للخوارزمي دلو بين الدلاء قال :

قد عصاني دمعي وخلى ، فخلت الخل دمعا ، وخلت دمعي خلا
وأحاطت بي الهموم ، فخفناه مستهلا . وصاحبا مستقلا
وفؤاداً ، لو ظن إبليس أن النـ ـار في حره ، لصام ، وصلى

فالذي يحدثنا به هو حديث كل من شقي في حبه بالحبيب المرتحل . والدمع ،

المنهمل ، والقلب الخيل ، ومعانى هذا الحديث مورودة منذ أقدم القدم ، وطريق التعبير عنها ممهدة معبدة ، ولكن الخوارزمى يتعثر فيها ، لأنه حاول التجديد فتأدى به إلى التعقيد .

والعقدة فى البيت الأول ، فيما رتبه على عصيان دمعه وخليلة ، من التباسهما عليه ، حتى ظن الدمع خلا ، وظن الخل دمعاً ، فعلى أى أساس أتاه الالتباس؟ هذا ما لم يفصح الخوارزمى به ، ولذلك نحاول التفتيش عنه :

إن الارتباك فى التمييز بين شيئين . وتخيل أحدهما الآخر ، إنما ينشأ عن ظهور كل منهما بمظهر صاحبه وتقمصه شخصيته . وهذا هو مأتى اضطراب الخوارزمى فى أمر الدمع والخل ، فهو يدعى أنهما تبادلا الأوضاع ، ولبس كل منهما أوضح صفات أخيه .

فالأصل فى الخليل دوام الصحبة ، فاذا كان فراق فهو لمام ، والأصل فى البكاء ألا يكون ، وألا يدوم إذا كان ، ولكن هذه الآية انعكست مع الخوارزمى فأخذ خليله وضع الدمع فتخلى عنه وفارقه . وتخلق دمعه بخلق الخليل فلازمه ورافقه ، ومن هنا أحاطت به الأحزان واكتنفته الهموم .

وما أثقل ما خلخل هذا البيت المعقد من تكرار الخاءات واللامات ، ولعل براعة البيت الثالث فى تصوير نار الفؤاد وسعيره . أن تغفر أوتخفف من سقوط البيت الاول وعثاره .

٥ — وهذا مثل آخر نستوضح فيه أهم الاسباب التى أوقعتهم فى الإساءة إلى بعض ما تناولوه من معانى السابقين . وهو ميلهم الشديد إلى المبالغة والتهويل ، فقد جرهم ذلك إلى أن يثبتوا مقادير المعنى أكثر مما يستقيم به الاداء ، وأن يخرجوه فى صورة ضخمة هائلة ، مع الايسر منها بلوغ الغاية والغرض .

ونحن لا ننكر أن مذهب المبالغة قديم فى الشعر . ولا أن لها أمثلة صارخة من شعر السابقين ، ولكن الذى لا ينكره أحد أنها صارت طابعا عاما فى هذا العصر ، وأن إسراف الشعراء فيها ذهب إلى أبعد الآماد .

وقد انساق الشعراء فى هذا المضمار بسائق عنيف ، يستمد عنفه من أحوال المجتمع الفاسدة ، ومن سبق الاسلاف إلى أكثر المعانى التى تتأدى بها الاغراض

فهم فى المدح مثلا مدفوعون بدافع قوى من المنافسة المحتدمة فيما بينهم ، إذا يحاول كل منهم أن يكون أسبق شعراء الحلبة وصولا إلى قلب الممدوح . والممدوحون فى قمة التعالى والتأله ، وقد نمى استمرار الطغيان فى نفوسهم حسيسة الكبرياء والغرور ، فاصبحت لا ترضى بما دون العلياء من معانى الثناء .

وهم فى الهجاء كذلك . تنفجر قلوبهم بالاضغان والاحقاد والحسد ، وتلهب أعصابهم الرغبة الجامحة فى إيلام المهجو وإيجاعه ، بل فى قتله وتحطيمه ، وأيسر ما يشفى هذه القلوب المريضة . ويشبع هذه الرغبة العارمة . هو التضخيم والمبالغة فى معانى الثلب والتجريح .

وهم فى جميع الفنون مضطرون إلى تناول معانى السابقين ، ولا بد لهم مما يبررون به هذا التناول . وكانت المبالغة أسهل المبررات ، فاقبلوا عليها وتذرعوا بها إلى استحلال المعنى واغتصابه من صاحبه القديم .

لقد أسرفوا فى مبالغتهم ، والإسراف مظنة الخطل . ولذلك كان ينتهى بهم فى بعض الأحيان إلى أوضاع يستحيل معها قبول المعنى . وتقبح صورته وتشوه

ولننظر فى ذلك إلى قول المتنبى يمدح سعيد بن عبد الله الكلابى ، ويذكر يوما كان له على بنى تميم :

| | |
|---|---|
| لما رأته وخيل النصر مقبلة | والحرب غير عوان أسلموا الحللا |
| وضاقت الأرض ، حتى كان هاربهم | إذا رأى غير شىء ظنه رجلا |
| فبعده ، وإلى ذا اليوم ، لو ركضت | بالخيل فى لهوات الطفل ما سعلا |

إنه يحدثنا بهذه الأبيات عما أوقعه الممدوح من خوف ورعب فى قلوب بنى تميم .

والبيت الاول يصور هذا الرعب بأثر من آثاره الحسية ، وهو فرار التميميين من ديارهم ، وهربهم قبل أن تتسعر نار الحرب . وتحتدم المعركة فى الميدان .

والبيت الثانى يصوره بأثرين من آثاره النفسية :

أولها ما ينشأ عن الذعر من حيرة واضطراب ، تعمى معهما مسالك الهرب وتضيق الأرض على سعتها أمام المذعورين .

والثانى ما يوقظه الخوف الشديد من تنبه وحذر ، فيرتاب الخائف بكل حركة

ويتوقع من ناحيتها الشر والهلاك .

ومستمد المعنى الأول قول الله سبحانه : وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ولكن هيهات أن يقاس به قول المتنبى ، فالفضل فى الآية بين ، ومرجعه إلى ما اشتملت عليه من قيود . فالقيد الأول ـ عليهم ـ يصرف معنى الضيق إلى المذعورين ويصبه عليهم صبا ، والقيد الثانى ـ بما رحبت ـ يوجهنا إلى أن ضيق الأرض ضيق معنوى : لأنها فى الواقع رحيبة متسعة .

وأصل المعنى الثانى قوله سبحانه : « يحسبون كل صيحة عليهم » . نظر إليه جرير فقال :

ما زال يحسب كل شىء بعدهم خيلا تكر عليهم ورجالا

وقد اعتمد المتنبى على قول جرير حين قال :

... ... ... كان هاربهم إذا رأى غير شىء ظنه رجلا

وفى الآية مزية يعرى منها قول جرير ، ومناط الدقة فى اختيار الصيحة دون غيرها لتكون سببا فى ارتياب المرعوب وتوهمه هجمة العدو عليه ، لأن الصياح مما تحدثه الجيوش الزاحفة ، فسماعه يحضر صورة الحرب فى خيال الرعديد الهارب من المعركة : وإذن فهو معذور إذا أساء الظن بكل صيحة . وتوقع من ورائها الغارة الشعواء .

وقد وضع جرير بدلها كلمة شىء ، مع أن فى الأشياء كثيرا من التوافه ، يعجز الوهم والظن مهما بلغ أن يربط بينها وبين الخطر الداهم فى الجيش الزاحف

ولكنه تأسى بالآيه فى إيقاع الحسبان والظن على شىء موجود ، وفى توضيح الشر المظنون بصورة كاملة من صور الحرب ، وهى كر الخيل والرجال ، وفى وصل هذا الشر بالخائفين الظانين بأن جعل الكر عليهم ، وسلم من عيب الإطلاق

أما المتنبى فقد أوقع الظن على غير شىء ، وغير الشىء هو المعدوم كما يقتضيه معنى كلمة « شىء » وخاصية النفى بالاداة « غير » ولا اعتبار لما تمحل به الشراح فانه لا طائل تحته عند التحقيق .

ثم انه جعل المظنون من هذا العدم رجلا ، والرجل وحده لا يعطى الصورة الكاملة للحرب ، ولا يكفى فى نقل الخيال إلى توهم الغارة والزحف .

وهو مع هذا التفسير قد أخلى عبارته من عائد يعود بهذا الخطر الموهوم على

من توهموه كما رأينا فى الآية الكريمة ، وفى بيت جرير .

والبيت الثالث يختلف فيه الشراح . فيراه بعضهم تصوير الدلة بنى تميم بعد هذا الهرب المخزى ، ويرى فيه الآخرون صورة ثانية لما يحدثه الرعب فى بعض النفوس من تبلد البلد وتنفتح معه الأفواه .

والمبالغة على كلا التفسيرين مسرفة والصورة ممقوتة . فلصحة المعنى الأول لا بد أن تتضاءل أشخاص بنى تميم تبعا لتضاؤل قيمتهم ، وأن تضاءل معهم خيلهم إلى مادون الهباء فى الحجم ، وإلا فكيف لا يسعل الأطفال إذا ركضوا بهذه الخيل فى لهواتهم . مع أن السعال يكون لحساسية شديدة فى جهاز التنفس ، تتأثر بأدنى جسم غريب . ولو كان رذاذة ماء ؟ ! ! .

ولصحة المعنى الثانى يحسب أن يفغر الأطفال أفواههم فتنفتح ولا انفتاح الأبواب الواسعة ذوات المصاريع الضخمة . ويالها من أفواه تنفذ منها الخيل الراكضة بفرسانها ! ! إنها لا بد أن تنتهى إلى فضاء رحيب رهيب .

## ألفاظ الشعر

أما الألفاظ فنشير أولا إلى شوائب كانت تشوبها فى بعض الأحيان .

١ — مثل شيوع ألفاظ الفحش والبذاء فى شعر السخف والمجون . وفى شعر الهجاء . حيث يتناول الشعراء ذكر السوءات والعورات . فيعلنون عنها بألفاظها الموضوعة لها دون استحياء أو تستر فى كناية .

٢ — ومثل المصطلحات العلمية التى أدخلها على لغة الشعر بعض الشعراء المتعالمين . وبعض العلماء المتشاعرين . حين كانوا يستمدون بعض المعانى العلمية فيضطرون إلى التعبير عنها بألفاظها التى تواضع عليها العلماء .

٣ — ومثل بعض الكلمات الجاسية والمفردات الغريبة التى كان يعمد إليها بعض المفسرين فى الشعر بالتزاماتهم مالا يلزم فيه كما صنع أبو العلاء فى اللزوميات .

٤ — نتحدث بعد ذلك عن أظهر صفة للألفاظ . وهى السهولة والرقة . فقد مال اليها الشعراء . ثم تقدموا فيها خطوة بعد خطوة ، حتى وصلوا فى آخر العهد إلى غاية ما يكون عليه اللين .

وقد دفعهم إلى تسهيل الألفاظ وترقيقها دوافع كثيرة قوية . وهى فى الواقع الدوافع التى تدرج بها الشعر العربى تدرجا متلاحقا من الجسوة والغلظة إلى الدماثة والرقة ، إلا أنها كانت فى هذا العهد أقوى دفعا منها فى عهود السابقين .

فهم يسيرون على سنة الشعر العربى فى اتجاهه دائما إلى الإسجاح والرفق ، وبمقدار ما يبتعد على البداوة يقترب من الحضارة . وينتقل من خشونة الحياة وقسوتها إلى رفاهة العيش ونعومته .

وهم يستجيبون لحضارة تتخذ الشعر وسيلة من وسائل كمالها ، وتصطنعه فى أغراض تستدعى العذوبة والصفاء ، حيث يتغنى به القيان والغلمان ، وتحلى به جدران القصور ، وتوشى به الفرش والاستار ، وتزدان به الحسان ، رقما وتطريزا على الغلائل والعصاب ونقشا بالخضاب ، على الوجوه والاكف والاقدام .

ثم إنهم يقاربون بسهولتهم أفهام الجماهير . بل أفهام الخاصة . فقد كان مستواها دائما فى نزول . كلما تزايدت اللغة العامية انتشار وتغلغلا . وكلما ابتعدت الفصحى عن عهود القوة والاستمساك .

فالشاعر يحاول فى مدحه أن يقترب من ذوق ممدوحة وبطانته . وهو ذوق صقلته الحضارة بالرقة . وعودته الموسيقى والغناء على العذوبة والصفاء . وبعد به الزمن عن استساغة الضخم الرنان من الألفاظ . ويتسهل فى هجائه اليسير وذلك أوجع وآلم فى باب الهجاء ، ويرق فى غزله ليصـــل إلى الشغاف من القلوب الرقاق . ويلين فى مجونه . بل ينزل إلى الهلهلة والسخافة لانهما أشبه بالمجون . وقل إن شئت . إن مسايرة الشعراء لروح العصر ، ورغبتهم فى أن يشيع آثارهم بين جميع الطبقات ، دفعتهم إلى السهولة واللين . ليجرى بهما الشعر على كل لسان . وتسيغه جميع الأذواق والافهام .

وإذا رجعنا إلى نتاج الشعراء من أول عهدهم بهذه الدولة الناشئة . وأخرجنا منه شعر أبى العلاء المعرى . الذى أسرته أحوال خاصة به فى إسار من التعسير والتصعيب . وطبعته على إيثار الغريب . ثم تركنا شعر المتنبى . وأبى فراس . والشريف الرضى . وكثير من أمثالهم . ممن آثروا احتذاء أسلافهم فى الجزالة والقوة . إذا تركنا هـذا وذاك طالعتنا السهولة الغالبة على بقية الشعراء . فارقة بين شعرهم وأشعارهم السابقين .

فاذا سرنا مع الزمن ، سارت معنا السهولة متصاعدة طبقة فوق طبقة حتى تبلغ القمة فى شعر الشعراء المصريين على عهد الأيوبيين ، ونجد فيه دماثة ورقة يلطف فيها التأنى ، ويدق الصنع . فتنساب انسياب الماء ، وتتداخل تداخل الخيط الدقيق فى النسيج الشف الرقيق .

ارجعوا فى التمثيل لهذه الرقة إلى ما يتغنى فيه من أشعارهم ، ولعلكم قد حفظتم من كثرة ما سمعتم الغناء فى قول ابن النبيه :

أفديه إن حفظ الهوى أو ضيعا        ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا

أو قوله :

أمانا أيها القمر المطل        فمن جفنيك أسياف تسل

فان لم يكن ذلك من محفوظكم فاقرؤا للبهاء زهير :

لو ترانى وحبيبى عندما        فر مثل الظبى من بين يدى
ومضى يعدو ، وأعدو خلفه        وترانا قد طوينا الأرض طى
قال : ما ترجع عنى ؟ قلت : لا        قال : ما تطلب منى ؟ قلت شى
فانثنى يحمر منى خجلا        وثناه التيه عنى ، لا إلى
كدت بين الناس أن ألثمه        آه ! لو أفعل ، ما كان على ؟

## اسلوب الشعر

١ — إذا كان الشعر قد عرف طريق التأثر بالعلم فى لفظه ومعناه ، بما استمده الشعراء من معانى العلوم المختلفة ومصطلحاتها كما بيناه ، فالمنتظر أن يكون أسلوبه أيضا قد تأثر بالأساليب العلمية ، وطرق العلماء فى التعبير .

وقد كانت مسالك التأثير والتأثر بين أساليب العلم والشعر ممهدة ، فقد كان الشعراء دائما فى غمار الحركة العلمية الدائبة ، منهم من يشارك فى بعض جوانبها مشاركة قوية . ومنهم من يطوف فى روض الثقافة العامة ، يرتشف من كل زهرة ويأخذ من كل فن بطرف ، وفى سبيل ذلك طالعوا المؤلفات العلمية ، وارتادوا مجالس الدرس والمناظرة ، وفى هذه وتلك رأوا كيف تصطبغ عبارة العلماء بصبغة المنطق . وكيف تناقش الآراء وتقرع الحجة بالحجة فى الجدل والحوار ، فسرت

من ذلك عدوى إلى أسلوب الشعر ، وبدت فيه من آن لآخر مظاهر منطقية وجدلية ، قل أن نجد لها نظيراً في أشعار السابقين :

(ا) فتارة ينهج الشاعر في تأليف عبارته منهج العلماء المنطقيين في تأليف الأقيسة والأشكال ، كالذى نراه في قول البستى :

ولو أبقى فراقك لى فؤادا  وجفنا كنت أجزع من سهادى
ولكن لا رقاد بغير جفن  كما لا وجد إلا بالفؤاد

وقال الباخرزى :

حمل العصا للمبتلى  بالشيب عنوان البلى
وصف المسافر أنه  ألقى العصا كى ينزلا
فعلى القياس سبيل من  حمل العصا أن يرحلا

(ب) وتارة يضمن الشاعر شعره محاورة لا تعرف الهوادة والرفق ، وإنما تسلك مسلك الجدل العنيف الذى يأخذ بالتلابيب ، ويحاول فيه كل من المتحاورين أن يقطع الطريق على صاحبه بما يقدم من حجة أو شبه حجة ، ومن ذلك قول أبى العلاء المعرى :

هى قالت لما رأت شيب رأسى  وأرادت تنكراً وازورارا
أنا بدر ، وقد بدا الصبح فى رأ  سك ، والصبح يطرد الأقمارا
لست بدراً ، وإنما أنت شمس  لا ترى فى الدجى ، وتبدو نهارا

وقد يبعد الشاعر فى جدله عن مثل هذا الحجاج الشعرى ، ويخرج إلى اللجاج والمكابرة ، كما فى قول شاعر :

وخليع بت أعذله  ويرى عذلى من العبث
قلت : إن الخمر مخبثة  قال : حاشاها من الخبث
قلت : فالأرفاث تتبعها  قال: طيب العيش فى الرفث
قلت : منها القىء ، قال : نعم  شرفت عن مخرج الحدث
وسأسلوها . فقلت : متى ؟  قال: عند الكون فى الحدث

وقد يقال إن هذا التأثر المنطقى أسبق من ذلك ، وأن ابن المعتز تكلم عن المذهب الكلامى ضمن ما أورده من ألوان البديع ، ونحن لا ننكر ذلك . وإنما تقرر أن حظ القدماء منه قليل نادر لا يقاس بما كان من آثاره فى شعر هذا

العصر ، بل لقد كان نوابغ السابقين يأنفون مسالك هذا التأثر ، ويرون فيه مجافاة لمذاهب العرب ، وبعدا عن الطريق السوى للشعر ، ولعلنا نذكر قول البحترى لمن كان يريده على اقتحام هذا الطريق :

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغنى عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنـ ـطق ما نوعه وما سببه
والشعر لمح تكفى إشارته وليس بالهذر طولت خطبه

٢ — وهذه ظاهرة أخرى من ظواهر الأسلوب ، غلبت على شعر هذا العصر ، وكان لها فيه مظهر الطغيان ، وهى ظاهرة الخضوع للتصنيع البديعى التى وقع فى أسرها جميع الشعراء :

والإقبال على البديع لم يكن من مبتكرات هذا العهد ، فقد كان له شأن عرفناه عند شعراء العصر العباسى الأول ، إلا أن شعراء الدول الناشئة تغالوا فيه ، وفاقوا أسلافهم من وجوه .

فاقوهم بكثرة الأنواع التى عرفوها واستعملوها ، فقد التفتوا إلى زخارف لم يلتفت إليها السابقون ، أو لم تكن عندهم ذات بال ، وإن كان كثير منها لا طائل تحته مثل « ما لايستحيل بالانعكاس » ونحوه من ضروب العبث اللغوى والتلاعب بالألفاظ .

وفاقوهم بالتفنن فى نفس الأنواع المشهورة من قبل ، فلم يقفوا بها على حدود ما عرف السابقون ، بل فرعوا النوع الواحد إلى فروع متنوعة ، وأخرجوه فى صورة متعددة . كتلك التى تنوعت وتعددت للجناس .

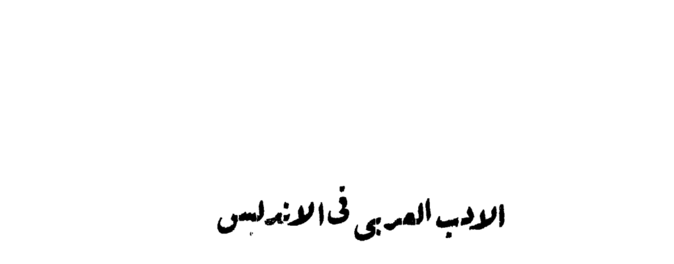
وفاقوهم فى مدى الإقبال على تلك الزخارف وفى درجته ، فهو إقبال عام شامل لجميع الشعراء من ناحية ، وهو من ناحية أخرى إقبال مسرف لا يعرف الاعتدال . ولا سيما عند المتأخرين ، فقد كانوا فى أغلب الأحيان يحشدون الكثير من حلى البديع ، ويراكمونها على الاسلوب ، ولا يبالون فى سبيل تحقيقها أن يصيب المعنى ضعف أو غموض ، أو أن يلحق العبارة زيادة وفضول .

وأهم ما وجههم هم وأسلافهم إلى فنون البديع أن القدماء سبقوهم إلى أكثر المعانى الشعرية ، وضيقوا عليهم مجال الابتكار ، وحين ألجأتهم الضرورة إلى تناول المعانى القديمة كان لا بد من أن يحدثوا شيئا يبررون به هذا التناول ، فكان

تحسين العبارة بزخارف البديع أحد هذه المبررات ، وإن شئنا قلنا كما قال قدامى النقاد : إنه ستر للفقر المعنوى بالتفنن فى الصناعة اللفظية .

وأمر آخر دفع شعراء هذا العصر الى الإسراف فى البديع والاحتفال به أشد من السابقين ، وهو أنهم جاءوا بعد أن خلا لهم الطريق ، وبعد أن قطع ابن المعتز ألسنة النقاد بكتاب البديع ، الذى دافع فيه عن أنواعه المتداولة فى زمانه ، وأرجعها الى أصول عربية قديمة ، وقدم لها شواهد ناطقة من القرآن والحديث وشعر الإسلام ، والجاهليين .

وأما الشعراء السابقون ، فقد كان أكثرهم يتهيب ويسير فى طريق البديع على حذر . خوفا من تعقب النقاد الذين اعتبروه بدعة يستحق المسرف فيها اللوم والإزراء .


الادب العربي في الاندلس

# أحوال الأدب فى الأندلس

١ — خرجت الأندلس من عهدها الأول منذ الفتح ( ٩٢ — ١٣٨ هـ ) وليس لها كيان أدبى ظاهر ، شأنها فى ذلك شأن الأقطار التى أضاع شخصيتها الأدبية أو أذابها ارتباطها السياسى بدمشق أو بغداد .

فما كان من السياسة العامة أن ينهض الولاة بآداب الأقاليم ، ولا كان فى استطاعة الولاة أن ينهضوا بها - لو كانت لهم فى ذلك سياسة خاصة - لأنهم خاضعون فى كل تصرفهم لحساب عسير من دار الخلافة ، عاجزون عن البذل السخى الذى يرضى الآمال الطامحة . ويجمع حولهم جموع الأدباء .

ويضاف إلى ذلك أن ولاة الأندلس لم يمتع أحدهم بطول مدة الحكم ولا وجد من الفراغ الهادىء قسطاً يلتفت فيه إلى الأدب والأدباء - إن كانت له فى ذلك رغبة خاصة - فقد شملهم التبدل المستمر ، حتى بلغت عدتهم عشرين فيما دون نصف القرن ، وخرجوا من الصراع مع أهل البلاد ، إلى فتن وقلاقل متلاحقة ، يبعثها التعصب العنصرى بين العرب وبين البربر ، أو التعصب القبلى بين العدنانيين والقحطانيين .

٢ — ثم آل الأمر فيها إلى الأمويين ( ١٣٨ — ٤٢٢ هـ ) ، فمكنوا للأندلس أن تتبوأ مكانها من تاريخ الأدب ، فقد استقلوا بالبلاد ، وأصبحوا مسئولين عن كل شئونها ، والأدب من أهم هذه الشئون ، فاتجهوا بكل عنايتهم إليه ، مدفوعين بدوافع قوية .

فهم عرب ، فى طبعهم تذوق الأدب ، ولكثير منهم ملكات أدبية تسلكهم فى عداد الخطباء أو الكتاب أو الشعراء ، وهم يعرفون كما عرف آباؤهم ما للأدب من أياد بيض فى تحصين الدولة والدعوة لها ، وهم فى منافسة شديدة مع العباسيين ، تقتضيهم الا يكون حظ قرطبة فى إنعاش الأدب أدنى من حظ بغداد .

ولذلك سلكوا مسالك العباسيين . فأجزلوا العطاء للأدباء ، واقتصروا في اختيار الوزراء والأعوان على النوابغ منهم ، فألهبوا بذلك الهمم ، وحفزوها على التجويد والإتقان .

بل لقد حاولوا التفوق على العباسيين فاجتذبوا بعض علماء الأدب من المشرق إلى الأندلس ، كما صنع عبد الرحمن الناصر مع أبي علي القالي ، والمنصور ابن أبي عامر مع أبي العلاء صاعد ، وكلاهما من بغداد ، وضحوا بالمال الكثير ليرسل المؤلفون كتبهم الأدبية إلى الأندلس قبل أن يظهروها في المشرق وقد ذكروا أن الحكم المستنصر أرسل إلى أبي الفرج الأصبهاني بألف دينار إعطاء أن تكون له النسخة الأولى من كتاب الأغاني .

٣ — وجاء على أعقابهم ملوك الطوائف ( ٤٢٢ — ٤٨٤هـ ) فكان ظهورهم أروج للأدب وأنهض به من ذي قبل ، فقد كثرت بكثرتهم أسواقه وزادت فرص الظهور أمام الأدباء ، وتعددت لهم سبل الكسب كالذي حدث عن انقسام الملك العباسي إلى دول وإمارات ، فبعد أن لم يكن للأدباء متحول عن قرطبة وبني أمية ، ظهر لهم من العواصم مع قرطبة : إشبيلية . وبطليوس ، وسرقسطة ، وطليطلة ، وشاطبة . وغرناطة ، والمرية وغيرها من معارض الأدب الجديدة ، واستعد للترحيب بهم من الملوك : بنو جهور ، وبنو عباد ، وبنو الأفطس ، وبنو هود ، وبنو عامر ، وبنو ذو النون وبنو صمادح ، وغيرهم من أصحاب الملك .

وكثرة هؤلاء عرب خلص ، وقلتهم متعربة ، ولكنهم جميعاً يحسنون ذوق الأدب لرسوخ أقدامهم في الثقافة العربية ، بل لقد كان لبعضهم مشاركة قوية في الأدب ، كالمتوكل العامري ، والمعتمد بن عباد ، ثم إنهم وقد اغتصبوا ملك الأمويين ، يهمهم أن ينسى الناس ما كان لهم من أمجاد ، فلتكن عنايتهم بالأدب — إذن — فوق ما عرفه الناس للأمويين ، ذلك كله إلى ما كان بين الملوك أنفسهم من تنافس فاق في شدته وحدته ما كان بين الأمويين والعباسيين .

وقد عرفهم الأمويون كيف يحتفلون بالادب ، واستعانوا بالنابغين فيه على تدبير الملك والسياسة ، واجتذب بعضهم شعراء بعض بالعطايا السنية ، ورتبوا للمطيفين بهم رواتب منتظمة من بيت المال ، غير ما ينالهم من الهبات فى المناسبات الطارئة .

٤ — وبانقراض الاسر القوية من ملوك الطوائف ، وسقوط الاندلس فى قبضة المرابطين والموحدين ( ٤٨٤ – ٦٢٩ هـ ) فقد الأدب معنى التشجيع والإثابة ، ولم يبق للشعراء إلا دوافعهم الذاتية ، أو اندفاعهم بحكم الماضى القريب ، فتوقف الأدب وأصابه الركود والخمود . وسبب ذلك أن البلاد فقدت استقلالها ، وحكمها نواب عن الملوك المقيمين بعيداً عنها ، وقد كانت الرحلة إليهم سهلة قريبة المنال ، لولا أنهم من البربر ، لا نفه لأكثرهم فى العربية ، ومن كانت له بها صلة فهى بعيـــدة عن فهم الاساليب العالية وإدراك مراميها ، فضلاً عن استطعامهـا ، والاهتزاز عند سماعها .

غير أن أيام الموحدين فى جملتها كانت خيراً للأدب من أيام المرابطين إذ كان لاكثرهم حظ من الثقافة ، ولبعضهم نزعة أدبية تنزع إلى تشجيع الادباء وإثابتهم وإن كانت دون ما عرف عن الامويين وملوك الطوائف بكثير .

٥ — وجاء الختام بدولة بنى الاحمر (٦٢٩ – ٨٩٧ هـ) وكانت مدتها أكثر من قرنين ونصف قرن ، عاد فيها للأدب نشاطه وانتعاشه ، إذ عاد للبلاد استقلالها وتولى أمرها أسرة عربية تعرف قدر الادب ، فصحا بعد غفوة طال بها عهد المرابطين والموحدين ، ولكنها كانت صحوة الموت ، فقد طوردت العربية فى أخرياته ، وأخذ مجالها فى الضيق يوما بعد يوم ، بما يقتطعه الفرنجة من بلاد المسلمين ، إلى أن انتهى الامر بطاردهم والتعفية على آثارهم ، ولله عاقبة الامور .

# المؤثرات العامة فى الأدب الاندلسى

١ — تقليد الأندلسيين للمشارقة :

إن انفصام الصلة السياسية بين الأندلس والمشرق لم يحدث أى أثر فيما كان بينهما من ارتباط وتفاهم متين .

وقد قام هذا الارتباط ، ودام ، واشتد توثقه على أساس لم يتحول عنه الأندلسيون من أول العهد إلى آخره ، فجعلوا الشرق قبلتهم الثقافية يتوجهون إليها فى كل فن من الفنون ، ونصبوا من رجاله أئمة وهداة ، يسيرون على ضوئهم ، ويقتدون بهم فى كل ما يأخذون ويدعون ، ولقد عبر عن ذلك ابن شهيد أصدق تعبير حين قال : « إن أهل الأندلس أبوا إلا متابعة أهل المشرق ، يرجعون فى أخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب أو طن بأقصى الشام أو العراق ذباب ، لجثوا على هذا صنما ، وتلوا فى ذلك كتاباً محكماً » .

وابن شهيد يقول ذلك عن خبرة وعيان ، لأنه منهم ومخالط لهم ، فهو أدرى بأحوالهم . وهو ينظر فى قوله هذا إلى جانب الأدب أكثر مما ينظر إلى غيره ، لأنه علم من أعلام الأدب هناك ، ومؤرخ من أشهر مؤرخى هذا الأدب .

على أن شواهد صدق قوله غير قليلة ، منها اتجاه كثير من شعرائهم إلى معارضة شعراء المشرق ، معارضة تأخذ مع التزام الوزن والقافية أكثر المعانى والأساليب كالذى نراه فى معارضات ابن دراج لأبى نواس ، وابن زيدون للبحترى ، وابن خفاجة للمتنبى .

ومنها ما نلمحه فى تقدير نقادهم لأدبائهم ، فهم يلتمسون لهم مقاييس من أدباء الشرق ، يقيسونهم عليهم، ويحاولون إلحاقهم بهم ، فيقابلون جمرانة بن

الصمة الكلابى بجرير والفرزدق ، وابن دراج ببشار وأبى تمام ، وابن زيدون بالبحترى ، وابن هانىء بالمتنبى .

ومنها نسجهم على منوال المشارقة فى التأليف الأدبى ، فابن عبد ربه يحذو فى « العقد الفريد » حذو ابن قتيبة فى « عيون الأخبار » ، ويصنع ابن بسام كتاب « الذخيرة » على غرار ما صنع الثعالبى فى « يتيمة الدهر » .

وأهم من هذه النزعات الفردية ما نراه فى المناهج الأدبية العامة ، فهم يحاذون الشرق فيها خطوة خطوة ، فما انتقل أدب الشرق من طور إلى طور ، وظهرت فيه طريقة جديدة ، إلا سرى ذلك إلى الأندلسيين بسرعة البرق ، فجروا فيه على الأعقاب .

## ٢ — تأثرهم بالاتجاه الثقافى العام فى بلادهم :

إلا أنهم لم يتابعوا المشرقين حين تأثرت آدابهم بالثقافات الدخيلة ، وما كان فى استطاعتهم أن يفعلوا ذلك ، لأن الأدب الأندلسى قضى زهرة شبابه ، والاتجاه الثقافى فى البلاد يميل إلى الجانب الإسلامى العربى الخالص وينأى عن الجانب الفلسفى وينفر منه ، بل يشنع على من يصبو إليه ، ويتهمه بالإلحاد والزندقة ، ومن وراء هذه التهمة حتفه وهلاكه .

وعلى ذلك كانت ثقافة الادباء أيام ازدهار الادب وقوته عربية إسلامية فلم تبد فى أدبهم آثار التفلسف كما بدت فى أدب الشرق ، لان الفلسفة لم تكن جزءاً من ثقافتهم العامة ، ولم يسمحوا لتلك الآثار أن تتسرب إلى أدبهم بالتقليد — إلا لماما — خوفا من العامة والدهماء .

ولا ننكر بهذا القول أن للأندلسيين فضلا مشكوراً على علوم الاوائل وفلسفة اليونان ، فقد أعطوها حقها فيما بعد ، وعنوا بها عناية فائقة ، ونبغ فيها من رجالهم كثير ، أمثال ابن باجة المتوفى ٥٣٣ هـ ، وابن طفيل ٥٨١ هـ ، وابن رشد ٥٩٥ هـ ، وابن زهر ٥٩٥ .

فمعارف هؤلاء وغيرهم على غير تلك العلوم أعظم من أن تخفى ، فهم

أخذوها عمن ترجموها واشتغلوا بها من مسلمي الشرق ، وعنهم أخذها أهل الغرب ، فكانوا بذلك حلقة لو فقدت لانقطع اتصال النهضة الغربية الحديثة بهذه العلوم القديمة .

ولكن ذلك النضج الفلسفي لم يجد مجاله للتأثير فى الادب الاندلسي لأنه جاء بعد فوات الاوان .

٣ — تأثرهم بجمال الطبيعة ونعومة الحياة :

وكان مما تأثر به الاندلسيون فى أدبهم ، وفرة الخير فى بلادهم ونعومة العيش بها ، فقد طبعهم ذلك على الرقة واللين فى اللفظ ، وعودهم تناول المعنى من قريب دون تعمق أو غوص لما فى ذلك من مشقة وعناء تعجز عنهما الاعصاب المترفة الناعمة .

وطبيعة البلاد كذلك ، كان لها فى أدبهم أوضح الآثار ، فقد خلقت بالجمال الفاتن ، واجتمع لها من ضروبه وألوانه ما تفرق على غيرها من بقاع الأرض ، وذلك لما اختلف على سطحها من ارتفاع وانخفاض ، يعمهما الخصب ، ويتنوع فيهما الجو ، فتنبت كل رقعة ما يناسبها ، وتتجاور لذلك مناظر من جمال مختلف الاشكال .

وللجمال الطبيعي فى ذاته مزاياه التى تنبه الخواطر وتوقظها ، وتهذب الخيال وتنميه ، فإذا تجاورت منه أنماط مختلفة ، وتجمعت فى مكان صوره المتنوعة ، كان من غير شك أشد إيقاظاً للحس والشعور ، وأقوى تنمية للخيال ، وأبعد مدى فى توسيع آفاقه .

وكذلك كان شأن الطبيعة فى الاندلس ، نضحت على الادب من جمالها ، ووفرت نصيبه من الخيال السامى ، فكاد النثر يكون شعراً ، واكتسى الشعر روعة وسحرا .

# النثر فى الأندلس

## ١ - الخطــابة

**تمهيــد :**

إذا رجعنا إلى تاريخ الأندلس وجدناه يموج بالدم ، ورأينا فيه سيوفاً لا تغمد إلا لتنتضى ؛ وغارات شعواء قليلة الإغباب ، يشبها الصراع الدائم بين المسلمين والفرنجة ؛ والفتن والاحقاد بين المسلمين أنفسهم ، للعصبية العنصرية ، والقبلية ، وللمطامع السياسية والمنافسة على الملك .

ومعنى هذا فى حديث الخطابة أن أقوى الحوافز الدافعة إلى اصطناعها كان مهيأ لها على طول التاريخ الأندلسى فى تلك الحروب والثورات .

ولكن تهيؤ البواعث الخطابية لا يكفى وحده لخلق خطابة قوية تستحق العناية والتسجيل ، بل لا بد أن تتوافر إلى جانبه أمور أخر ، أهمها أن تجد هذه البواعث خطيباً حاضر البديهة ، متمكنا من لغته ، قادراً على مجابهة الجماهير وعلى التأثير فيها بما يملك من خلابة اللسان ، ومن قوة الحجة والبرهان .

فإذا اعتبرنا هذا المقياس من الناحية الاستنتاجية للبحث ، ونظرنا معه نظرة واقعية إلى ما بين أيدينا من خطب الأندلسيين ، ولاحظنا مع هـذا وذاك فقدان أهم البواعث الخطابية بعد استقرار الأمور للأمويين ، إذا فعلنا ذلك استطعنا أن نحدد للخطابة الأندلسية عهود قوتها وضعفها . وحكمنا مطمئنين بأنها كانت قوية فيما دون القرن ، على عهد الولاة التابعين للمشرق ، وعهد الجيل الأول من الأمويين ، وأنها ضعفت بعد ذلك واطرد ضعفها إلى أن انتهت اللغة العربية من تلك البلاد ، اللهم إلا أن تجىء فلتات نادرة ، لا يحكم بها على زمانها ، لأنه لا حساب للندرة والشذوذ .

**عهد القوة ، وأسبابها ، وسماتها :**

فالعهد الأول عهد صراع متلاحق وفتن وقلاقل ، بين الفاتحين وأهل

البلاد وبين العرب والبربر ، وبين المضربين واليمنيين ، ومن هنا توفرت أسباب القول للخطباء .

ثم إنه عهد سلامة اللغة والتمكن منها ، وقوة الملكات وبراءتها من الوهن والضعف ، لأنها ملكات الجيل الأول من العرب الفاتحين ، والعرب النازحين على أعقاب الفتح شوقا إلى ما سمعوا به من خير الأندلس ، وهؤلاء وأولئك جاءوا من مواطن الفصاحة فى آخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى قبل أن يتسرب الخلل والفساد إلى ألسنة العرب .

وقريب من ذلك حال الأمويين ، فقد دخلوا البلاد من غير جيش يعتمدون عليه ، وإذا كان اليمنيون قـــد انحازوا إليهم من أول الامر ، فقد كان ذلك سبباً فى ابتعاد المضربين عنهم للعـــداوة المحتدمة بين الفريقين هناك .

وإذن فالأمويون الأندلسيون كانوا فى حاجة ماسة إلى سحر الخطابة ، ليتخذوا منه سلاحا ينتى القلوب الثائرة عليهم ، ويسكن القلوب النافرة منهم ويجمع الشمل حولهم ، ويوطد أركان الحكم لهم ، حتى بعد فراغهم من تأليف الناس على حبهم ، وصرفهم عن التعلق بدولة المشرق ، لأن الأطماع كانت تحفظ بعض الأمويين على بعض ، فتشتعل الفتن ، وتهيج الثورات ، وحينئذ لا بد من الخطابة ، يؤلب الثائرون بها الناس ، ويخرجونهم عن الطاعة . ويطفىء بها ولى الأمر نار الفتنة ، ويرد الخارجين إلى الولاء .

وفى هذه وتلك استطاع الامويون وأعوانهم أن يسدوا الفراغ ، ووجدوا فى أنفسهم عدة البيان حاضرة ، بما ورثوا عن آبائهم من قوة العارضة وذلاقة اللسان .

والظن بهذه الفترة التى تكاملت فيها الخطابة أسباب القوة ، أن تكون غزيرة النتاج ، موفورة الحظ من ثروة الخطب ، ولا يقدح فى هذا الظن قلة

ما وصلنا من آثارها ، فلعل أكثر خطبهم قد ضاع بضياع حفاظه قبل أن يدركه التدوين ، ولعل أكثر مادون قد أدركه التلف بفعل الاسبان ، لانهم بعد أن طردوا المسلمين من تلك الديار ، مسحوا كل ما كان لهم من أثر وأبادوه بالإحراق والإغراق

وبالتأمل فى هذه الآثار الباقية من عهد القوة تلمس أن الاستعداد الخطابى كان متقارب الدرجات عند جميع الخطباء ، وندرك الصفات التى شاعت فى خطبهم جميعاً وغلبت على اللفظ والمعنى والاسلوب .

فالألفاظ نقية صافية تنفر من الغريب وترتفع عن السوقة والابتذال . ويطرد فيها الصفاء والنقاء دون تفاوت ، ومن غير تكلف أو إكراه ، ومنشأ ذلك سلامة السلائق ، وتمكنها من اللغة ، وانقياد الفصيح لها فى سماحة ويسر .

والمعانى فطرية ، تساوق التفكير الواقعى ، وتسلم من التعميق والبعد ، وتنأى عن التهويل والمبالغة ، وهذا ما يناسب حظهم من الثقافة فى هذا العهد فقد كانت عربيتهم خالصة ، لم يخالطها التفلسف ، ولم يعودها العمق فى التفكير والغوص وراء البعيد ، وهو أيضاً متناسب مع الطبع العربى السليم الذى يؤثر الصراحة والصدق ، وينظر إلى الامور من قريب .

وفى الاسلوب شبه من الاساليب البدوية ، فيه تماسك وتلاحم وقوة نسج ، ويغلب عليه الإيجاز ، ولا يعرف من بهارج البديع وزخارفه إلا ما جاء عفواً واقتضاه المقام ، وذلك لانهم قريبوا عهد بالبداوة وما تمتلك من قوة البيان ، ولان صنعة البديع لم تكن إلى ذلك الحين قد عرفت طريقها إلى النثر هناك ،

عهد الضعف ، وأسبابه ، وسماته :

وبعد أن هدأت الاحوال للأمويين وذهبت الطبقة الاولى منهم ، ظهرت الاجيال المولدة ، وهي أجيال نشأت فى حجور الامهات والحواضن

الاعجميات ، واشتد اختلاطها بالفرنجة منذ الصغر ، فالتاثت ملكاتها ، واضطربت ألسنتها ، ودب الفساد إلى لغتها ، وانضم إلى ذلك أن الجيوش نظمت ورتبت ، فلم تعد هناك حاجة إلى التفاصح فى تجميع الجموع وتحريكها وأن دواوين الحكم دونت وأعدت ، فاستغنت بها الدولة عن الخطابة فى معظم الشئون ، وقامت أقلام الكتاب مقام ألسنة الخطباء .

وبذلك ركدت ريح الخطابة فى موضوعاتها ، ولم يبق لها إلا مجال ضيق لا يتجلى فيه التدفق الخطابى . واقتصرت على الموضوعات التى تخلقها المناسبات والاجتماعات ، كالوفادة والتهنئة والإملاك وما أشبهها ، وعلى الموضوعات الدينية التى تهدف إلى تبصير الناس بشئون دينهم ، ويقوم بها العلماء فى أيام الجمع والاعياد ، وفى مجالس الوعظ والإرشاد .

أما صفات الخطابة فى هذا العهد ، فماذا تنتظر أن تكون عليه خطابة قوم فقدوا الملكات المطبوعة والسلائق الفطرية ؟ .

ثم ماذا تنتظر من صفات كلام ليس من شأن موضوعاته أن تبعث الحرارة الخطابية ، فتجيش الخواطر ، وتنحل عقدة اللسان ؟

لقد فقدوا قوة البديهة والقدرة على الارتجال ، إلا النادر القليل ، وأصبح أكثرهم فى المواقف الخطابية بين اثنتين :

إما أن يؤخذ أحدهم على غرة ، ويحمل الكلام دون استعداد ، فيتلجلج وينقطع ، ويخرسه العجز ، ويهوله المشهد الرهيب ، أو يتحامل على نفسه ، ويحاول الصمود ، فيقتلع الكلام اقتلاعاً ، وينزعه انتزاعاً ، من صدر شحيح وعطن ضيق ويلتمس الفرار من موضوعه إلى مخارج يتسع له فيها الحديث ، وحينئذ تجىء عباراته سوقية ، وأسلوبه مهلهلا ، وأفكاره مشتتة لا يربطها غير أوهى الأسباب .

وإما أن يكون على علم سابق بيوم الحفل ، فيستعد لموقفه بالتحضير والتحبير فإذا جاءه ألقى من ورقته أو من حفظه كلاماً خلا فيه إلى القلم ، فنأتق

فى الإنشاء ما شاء ، وخرج من الأسلوب الخطابى المتوثب ، إلى الأسلوب الكتابى الهادىء ، وجرى على طبع الكتاب هناك فى ميلهم إلى الإطناب ، وشغفهم بالسجع وغيره من زخاف البديع .

هذا فى الخطابة الإجتماعية ، أما الخطابة الدينية فقد انحدرت إلى حال من الضعف عجز فيها الخطباء عن أن يحضروا خطبهم بأنفسهم قبل الإلقاء فاستعانوا بالدواوين التى وضعها بعض النابهين منهم ، ورتبوها على مدار العام ، كما كان يفعل كثير من خطباء مساجدنا إلى عهد قريب .

خطباء العهدين وبعض المشهورين منهم :

لو جاز لنا أن نعتمد على الاستنتاج وحده ، لذهبنا إلى أن العهد الأول كان مليئاً بالخطباء ، نظراً لتوفر الدواعى وتكامل العدة الخطابية ، ولكن الواقع يقف فى طريقنا . حيث لا يقدم لنا التاريخ من أسماء الخطباء إلا قلة قليلة ، وإذا كنا قد جوزنا ضياع كثير من الخطب على التدوين ، فإننا لا نستسيغ ضياع الأسماء ونسيان التاريخ لها ، فكم من جاهلى نوه المؤرخون بشأنه فى الخطابة . مع أنهم لم يرووا من آثاره شيئاً أو رووا منها القليل ، ولذلك نعتمد على التاريخ فى الحكم بقلة الخطباء ، ولا نسترسل مع الاستنتاج .

وليس من المعقول أن يكون عهد الضعف والركود أحسن من سابقه حظاً ، وإذا كان مؤرخوه قد ألصقوا وصف الخطابة بكثير من أعلامه المتأخرين ، فإنه تقليد سايروا فيه معاصريهم من المشارقة ، حيث أجروا وصف الخطيب على كثير من العلماء ، لا قصداً إلى حقيقة مدلوله ، بل لمجرد التشريف والتعظيم ، وكأن شعورهم بالنقص فى الخطابة هو الذى دفعهم إلى تعويض الحقيقة المفقودة بتمويه الألقاب والأوصاف .

وأياً ما كان الأمر فقد كان من أشهر خطبائهم فى العهد الأول :

طارق بن زياد ، على رغم من توقف فيه ، تعللا بما يراه بعض المؤرخين من عجمة نسبه ، ويوسف بن عبد الرحمن الفهري ١٤٢ هـ ، وعبد الرحمن الداخل ١٧٦ هـ .

وفى العهد الثانى : المنذر بن سعيد البلوطى ٣٥٥ هـ : والمنصور بن أبى عامر ٣٩٢ هـ . ولسان الدين بن الخطيب ٦٧٧ هـ

## ٢ — الكتابة

### تأخر الأندلس عن المشرق فى النهوض بها وسببه :

مما نلاحظه من تتبع التاريخ الأدبى للأندلس ، أن الكتابة تأخرت فى نضجها هناك أكثر مما كان ينتظر ، وأنها تخلفت فى سيرها عن الكتابة المشرقية ، ولم تستطع ملاحقتها إلا بعد مدة طويلة ، فقد انقضى عهد الولاة كله ، وقريب من نصف العهد الأموى بعده ، قبل أن يظهر فى النثر الكتابى ملامح العمل الفنى وسماته ، وقبل أن يوجد منه آثار يمكن أن تقارن بنثر المشرقيين ، فما سبب هذا التأخير ؟ .

لقد فتحت بلاد الأندلس ، ودخلتها اللغة العربية ، بعد نصف قرن من إنشاء ديوان الإنشاء فى دمشق ، ومعنى ذلك أنها قطعت شوطاً طويلاً فى طريق نهضتها التى تمت على يد عبد الحميد الكاتب ، وكان الظن بها أن يطرد سيرها فى الأندلس كما اطرد سيرها فى المشرق ، وأن يكون خطوها هنا على غرار خطوها هناك ، لولا أنها اضطرت أن تبدأ السير من جديد ، وأن تستعيد مرة أخرى كل ما خطته فى المشرق من خطوات . وأن تتئد فى هذه الاستعادة اتئاداً بليداً فيظهر المشرق عمالقة الكتاب فى العهدين الأموى والعباسى الأول ، دون أن نجد من معاصريهم فى الأندلس من يستطيع أن يطاول واحداً منهم فى منزلته الفنية ، أو من يستطيع على الأقل أن يقلدهم فى طرائقهم الكتابية ، اللهم بعد فوات المعاصرة بزمن طويل .

وسبب ذلك أن الكتابة العربية لم تصادف فى أول عهدها بالأندلس مثل ما كان قد تهيأ لها وتمكن فى المشرق من استقلال واستقرار فى النظم السياسية والاجتماعية ورسوخ فى رسوم الحكم وتقاليده ، إلى غير ذلك من الأمور التى أفاد منها النثر الكتابى هناك ، وصار بسببها صناعة عتيدة ، واضحة المعالم ، وطيدة الأركان .

هكذا كانت الحال فى عهد الولاة ، فما كانوا فى تبعيتهم للمشرق ، وفى ملاحقة الغزو لهم ، بمستطيعين أن يرتقوا بدواوينهم حتى تضارع ديوان دار الخلافة ، ولا أن يتخذوا فى بطائنهم وأعوانهم كتاباً كباراً ، يضاهون أو يقاربون كبار الكتاب هناك .

وكذلك ظل الأمر بعد أن استقل بأمر البلاد عبد الرحمن الداخل وخلفاؤه من الأمويين ، فقد احتاجوا إلى زمن طويل حتى مكنوا للأحوال السياسة والاجتماعية أن تستقر ، وحتى وجدوا القوة على أن يجاروا العباسيين فى تنظيم الإدارة وتدوين الدواوين ، وأن ينافسوهم فى مختلف ميادين النشاط .

ومن ذلك الحين تهيأت للكتابة فرص انتعاشها وتقدمها ، على أيدى الكتاب المنقطعين لها فى الدواوين ، واتجهت أنظارهم إلى المشرق يلتمسون القدوة من كتابه ويجدون فى السير فى ركابه على نحو ما سيتضح لنا الآن .

## أطوار الكتابة وخصائص كل طور :

أما الأطوار التى تقلبت فيها الكتابة الأندلسية ، فمن تدبر نصوصها على اختلاف الأجيال ندرك أنها مرت على وجه التقريب فى أطوار ثلاثة :

### الطور الأول :

هو طور الفطرة والسذاجة ، وقد استطال هذا الطور ، واستغرق مدة تمتد من أول الفتح سنة ٩٢ هـ إلى أوائل القرن الرابع الهجرى على التقريب .

وقد انقضت هـــذه المدة - كلها أو معظمها - وليس هناك - للأسباب التي ذكرناها آنفاً - من يتفرغ للكتابة ويحس أن في رقيه بها رقياً بحرفته التي تدر عليه الرزق ، بل كانت الكتابة عملاً يقوم به أي عربي اللسان وجد وقت قيام الضرورة للكتابة ، فيكتب الحاكم مثلاً بنفسه وخط يده ، أو يملي على واحد ممن بحضرته فيخط بقلمه بين يديه مادعت الحاجة إليه .

ولذلك لم نجد في الآثار الكتابية لهـــذا الطور شيئاً من التأنق والتصنع ، لأن ذلك لا يكون إلا ممن يحترفها ويتخذها صناعة ، وإنما جاءت فطرية ، ساذجة ، قوية الشبه من لغة الخطب ، إذ كانت بلسان عربي غير ملحون ، فغلب عليها وضوح المعنى ، وقربه ، وترتيبه كما يترتب في ذهن المتكلم وسهولة اللفظ ، ودنوه من مستوى الأوساط ، وخلوص الأساليب من الالتواء والتكلف ومجاراتها في جملتها الاساليب المتخاطبين في الاستغناء بجمال الوضوح ومسايرة الفطرة عن جمال الزخرف المصنوع .

الطور الثاني :

هو طور قوة الكتابة الأندلسية ، وقد ظهرت منه بواكير منذ القرن الثالث الهجري ، ولكن معالمه لم تتكامل إلا في مطالع القرن الرابع ، بعد أن أتيح للأندلس من الفرص ما مكن لأبنائها أن يكون لهم نشاط فني في الميدان الكتابي وبعد أن شهدت البلاد ما شهدت من ازدهار حضاري وعلمي وأدبي ، وبخاصة ذلك الذي كان على عهـــد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ)

وكان بلوغ القمة من هذه القوة على أيدي الكتاب الذين تربوا في أحضان النهوض الأدبي بقية العهد الأموي وجميع عهد الطوائف ، ثم أخذت تتحور من بعدهم رويدا رويدا حتى انتهت إلى طورها الأخير .

وأهم ما مهد لهذا الطور ومكن له ، أن الدولة بعـــد أن استقر الأمر للامويين اتسعت مطالبها ، وقويت حاجتها إلى استخدام الكتابة فى تنظيم شئونها ، وأصبحت بحيث لا يستطيع سد هـــذه الحاجة إلا المتفرغون للكتابة من المختصين بها ، ومن ثم ظهرت بين طوائف المجتمع طائفة جديدة ، اتخذت الكتابة حرفة وصناعة ، وصار لها وضع اجتماعى مرموق ظل يسمو ويرتفع يوما بعد يوم .

ومن شأن ذلك التخصيص المهنى أن يحمل الكتاب على أن يستعدوا لمهنتهم ؛ وأن يتفننوا فيها تفننا يبرر انقطاعهم لها وتكسبهم بها ، ومعنى هذا أن الكتابة استحالت عن عمل عادى يؤدى على أى وجه كان ، وتكفى فيه سلامة اللسان إلى فن يحتفل به صاحبه ، ويتسامى فيه ، ويودعه كل ما يستطيع من تأنق وتجويد وتنسيق .

وكان المجال فسيحا للتأنق والتفنن فقد اتسعت الآفاق أمام الكتابة ، وتعددت أغراضها ، وتنوعت موضوعاتها ، حتى سد بها الكتاب مفاقر الدولة والجماعة والفرد ، فجرت الأقلام تدير جهاز الحكم وتصرف شئون البلاد ، وتسجل نبضات العقول وسبحات الأفكار ، وتصور اختلاجات النفوس واهتزازات المشاعر :

أما وسائل هذا التأنق والتفنن ، وأما الدقائق التى شاعت بين كتاب هذا الطور وتجمعت منها خصائص الكتابة الفنية ، فهى مستمدة فى جملتها من المشرق ، وقد عرفنا فيما سبق كيف كانت منزلة أدبائه فى نظر الأندلسيين وكيف كانوا يعتبرونهم أئمة وقادة يلتمسون منهم القدوة ، وعلى هـــذا الأساس جروا وراءهم ، واهتدوا بهداهم فى ميدان الكتابة ، وأدلة ذلك كثيرة ، أقربها ما نراه من نسج ابن شهيد فى رسالة « التوابع والزوابع » على منوال أبى العلاء المعرى فى رسالة « الغفران » وما نلمسه فى رسالة ابن زيدون الهزلية التى تهكم فيها بابن عبدوس ، من مجاراة للجاحظ فى رسالة التربيع والتدوير .

ومنزلة الجاحظ عند الاندلسيين لا تضارعهـا منزلة أديب آخر ، وكانت آثاره من أسرع آثار المشرق وصولا إليهم وقد ظلوا إلى أيام ابن خلدون يعتبرون كتابه « البيان والتبيين » أصلا من أصول الادب وركنا من أركانه .

ولذلك كانت طريقته الكتابية ومذهبه البياني أول ما ائتموا به من مذاهب البيان ثم بعد أن اتضحت لهم معالم الطريق فى كتابة ابن العميد ومشايعيه من كتاب العهد البويهى ، ثم اتجهوا إليها يستمدون منها استمداداً لا يذهب إلى آماد بعيدة ، وإنما يقتصر ما تسيغه أذواقهم ويلائم ماهم فيه من عيش رخى ناعم وحياة لينة مترفة .

وإذا كان لكل كاتب منهم طابع خاص يتميز به عن غيره ، فإن آثارهم جميعاً تشترك فى صفات غلبت عليها وشاعت فيها شيوعا عاما ، لأنها انبعثت عن مؤثرات عامة كان جميع الكتاب فى التأثر بها بمنزلة سواء .

فالمعانى قريبة واضحة ، لا يتعمقون فيها ولا يغوصون عليها ، وذلك ما يتناسب مع حياتهم الوادعة ، وما تحتمله أعصابهم الرافهة .

والالفاظ من ألفاظ الشعر غالباً ، فهم شعراء قبل أن يكونوا كتاباً ، وكثيراً ما يعمدون إلى أبيات الشعر يحلون نظمها ويغيرون ألفاظها فى كتابتهم ، ولكن هذه الالفاظ الشعرية قد يخالطها فى بعض الاحيان شىء من الغريب ، حين يتناوله الكاتب ، جرياً وراء حلية لفظية لا يتحقق إلا به أو استجابة لدافع نفسى يميل إلى التعصب ويشغف بالغريب .

أما الاسلوب فأول ما يطالعنا من صفاته الميل إلى الإطناب ؛ حيث يرادفون الكثير من الجمل على المعنى الواحد ، إظهاراً للقدرة على تفنن العبارة أو رغبة فى الإكثار من صور المعنى ، أو توسلا لتحقيق حلية لفظية ، أو ماهو من هذا بسبيل ، ،

ويؤلفون العبارة من فقر قصار ، ينثرون بينها كثيراً من الحكم والامثال

ويستمدون لها من شعر السابقين أبياتا أو أشطارا فيضمنونها إياها سليمة النظم ، أو يدمجونها فى كلامهم بعد نثرها وحل عقودها ، ولا يتحرجون — إذا دعت مناسبة — أن يكثروا من الإشارة إلى المشهور من حوادث التاريخ وأبطاله ، وأوضح مثل لذلك رسائل ابن زيدون .

ثم إنهم كأئمتهم فى المشرق ميالون إلى تحسين العبارة وتجميلها ، ولكنهم لم يذهبوا مذهبهم فى كل أنواع البديع ، فلم يشتد إقبالهم إلا على السجع ، تخفف منه بعضهم فى أول الأمر كابن عبد ربه ، ثم أخذ الكتاب يستكثرون منه شيئا فشيئا ، حتى صار لازمة . وتصدوا به الكتابة الأدبية إلى بعض الكتابات العلمية كالنقد والتاريخ .

وسيادة الخيال الشعرى فى كتاباتهم واضحة لاتحتاج إلى تنبيه ، ولا غموض فى سرها لأن الذين تصدوا للكتابة ، كانوا مطبوعين على الشعر ، ولهم حساب فى سجل رجاله ، بل إن منهم من كانت له صدارة الشعراء فى زمانه ، ولذلك صبغوا النثر بصبغة الشعر فما يمنعه من دخول نابه إلا موازين أصحاب العروض .

الطور الثالث :

هو نهاية المطاف للكتابة العربية ببلاد الأندلس ، أخذت فيه آخر أوضاعها الفنية هناك ، ثم لم يتح لها بعد ذلك أن تتخذ وضعا سواه ، إذ بانتهائه انتهى عهد تلك البلاد باللغة العربية وبفنونها الأدبية .

وبداية هذا الطور تبتدىء وبلاد الأندلس ولاية تابعة لشمال إفريقية ، ولكنها لم تصاحب هذه التبعية من أول أمرها ، وإنما جاءت بعد أن تقضى من الزمن فترة تكفى لانقراض البقية الباقية من كتاب العهد السابق ، وهذا الجيل رباه كبار الكتاب حينذاك ، ثم امتدت به الأيام حتى أدركته دولة بنى الأحمر ، فصاحبها إلى أن زال سلطانها وزال معه كل سلطان كان للغة العربية هناك سنة ٨٩٧ هـ .

وهذا الطور فى وضعه من سابقه ، يشبه الطريقة الفاضلية فى وضعها من طريقة ابن العميد ، من جهة أن كلا منهما تطور سيء لسلفه ، وإن كلا منهما جر على نفسه الضعف من حيث ابتغى القوة ، غير أن زمان استمساك هذا الطور بالقوة فى الأندلس كان أطول ، حتى جاء آخره ـ مع طول المدة ـ شبيها بأوله أو قريب الشبه منه على حين أشرع الانحدار بطريقة القاضى الفاضل فى المشرق ، وعجل إليها الضعف والهزال .

وقد كان هناك كثير من العوامل العاملة على وصول طريقة العهد السابق إلى ما صارت إليه فى هذا العهد :

١ — فامتداد الزمن بالطريقة السالفة كفيل بأن يدفعها إلى التطور ، وكان من الجائز أن يكون هذا التطور إلى ما هو أحسن ، لولا ما نعلم من تعلق الأندلسيين بغبار المشارقة وتقليدهم إياهم فى كل ما يصنعون .

٢ — ثم إن الانتعاش الأدبى الذى نعمت به بلاد الأندلس على أيدى خلفاء بنى أميــــة وملوك الطوائف فى العهد السابق ، قد ذهب بذهاب استقلال البلاد وفقدانهـا الشخصيات القوية التى تستطيع تحريك النشاط الأدبى ، بعد أن انتقل زمام السياسة من أيدى أبنائها إلى أيدى المرابطين والموحدين فى إفريقية .

٣ — وأمر آخر مكمل لذلك الذى سبق ، وهو أن المرابطين والموحدين ، على حين لم تبدر منهم بادرة رعاية الأدب والأدباء بالأندلس قد أولوا العلماء والفقهاء كل عناية ورعاية لأنهم كانوا سبب دخولهم البلاد ولذلك اعتمدوا عليهم فى كل أمر من أمور الدولة ، واستعانوا بهم فى جميع الأعمال وتبع ذلك أن تولى فريق مهمة الكتابة فى الدواوين ، فتولوها بذوق فيه جفاف ، وذوق من يدرك وسائل البلاغة والبيان إدراك علم ونظر لا إدراك ممارسة وعمل .

وأيا ما كانت الأسباب فقـد كان هـــذا الطور امتداداً لسابقه ،

وجرى كتابه كما جرى أسلافهم على أعقاب المشارقه ، وكانت كتابة العهد البويهى العتية القوية ؛ فقد شاخت على أيدى كتاب العهد السلجوقى ، فاتجه إليها الأندلسيون ، ومنها استمدوا أسباب الضعف إلى كتابة العهد الماضى ، فبدت صورتها إلى نتاج هؤلاء المتأخرين وقد علاها المشيب وزايلها نضرة الشباب وروعه الفتوة ، فأوغلت فى التماس وسائل الزينة من زخارف البديع وأصباغه ، لعلها أن توارى بها عوار الكبر وجفاف الهرم .

وفى سبيل ذلك أقبلوا على بعض البديعيات الصعبه التى جفاها أسلافهم ، أو تخففوا منها غاية التخفف ، مثل الطباق والجناس ، وشغفوا بحشد المصطلحات العلمية فى كتاباتهم على سبيل التورية ، وكان ذلك الشغف بالغاً منتهاه بمصطلحات النحو وسائر العلوم العربية ، لأنها كانت أشهى الألوان لهم فى غذائهم الثقافى .

والسجع الذى تناوله من سبقوهم فى بساطه ودون تكلف ، صعبه هؤلاء المتأخرن ضروباً من التعصيب ، كأن يداخلون بعض السجعات فى بعض ، أو أن يبنوا الرسالة من أولها إلى آخرها على سجعة واحدة مهما طال السرى ، إلى غير ذلك من وجوه المشقة والكلفة .

ومثل هذه الأعمال العسره كانت فى نظرهم براعة يهون فى سبيلها أن تفقد الفقر رشاقتها السابقة ، فتطول وتدخل عليها الهلهلة ؛ وتكثر فيها الجمل الفرعية ، وتبعثر فيها الكلمات الجاسية وما أشبه ذلك من أسباب الكلف البادى على وجه كتاباتهم ، إذا بدون ذلك لا يستطيع الكاتب أن يشبع بهمته من اقتناص حلى البديع . . . .

تم الكتاب

بحمد الله وعونه وتوفيقه

## فهرس

| الصفحة | الموضوع |
|---|---|

| الصفحة | الموضوع |
|---|---|
| ١٣٤ | المقامات . |
| ١٥٢ | أثر المقامات فى الأدب . |
| ١٥٥ | الشعر فى ظلال العصر العباسى الثانى . |
| ١٥٨ | المؤثرات العامة فى شعر هذا العصر . |
| ١٦٣ | أغراض الشعر فى هذا العصر . |
| ١٦٤ | الأغراض القديمة . |
| ١٧٢ | الأغراض الجديدة . |
| ١٧٤ | معانى الشعر . |
| ١٧٤ | المعانى الجديدة . |
| ١٧٥ | المعانى القديمة . |
| ١٨٥ | ألفاظ الشعر . |
| ١٨٧ | أسلوب الشعر . |
| ١٩١ - ٢١١ | الأدب العربى فى الأندلس . |
| ١٩٣ | أحوال الأدب فى الاندلس . |
| ١٩٦ | المؤثرات العامة فى الادب الاندلسى . |
| ١٩٩ | النثر فى الاندلس : الخطابة . |
| ٢٠٤ | الكتابة . |

## مؤلفات حديثة

١ ـ الشعر والتجديد
٢ ـ قصة الأدب فى مصر ـ ٥ أجزاء
٣ ـ « « فى الأندلس ـ ٥ أجزاء
٤ ـ « « المعاصر ـ ٤ أجزاء
٥ ـ صور من الأدب الحديث ـ ٤ أجزاء
٦ ـ مواكب الحريه فى مصر الإسلامية
٧ ـ التراث الروحى للتصوف الإسلامى فى مصر
٨ ـ فى ظلال الإسلام



Bibliotheca Alexandrina
0437519